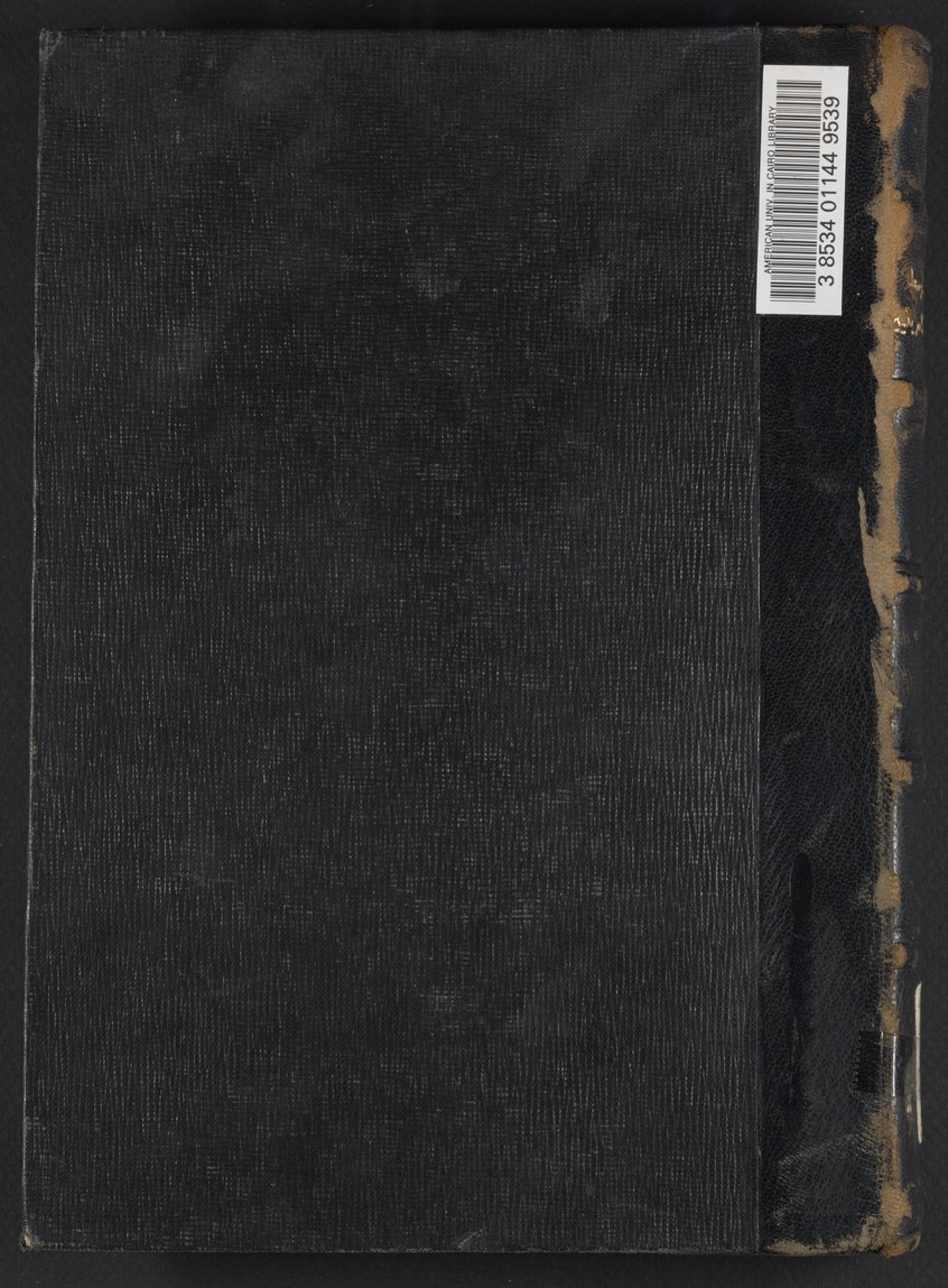
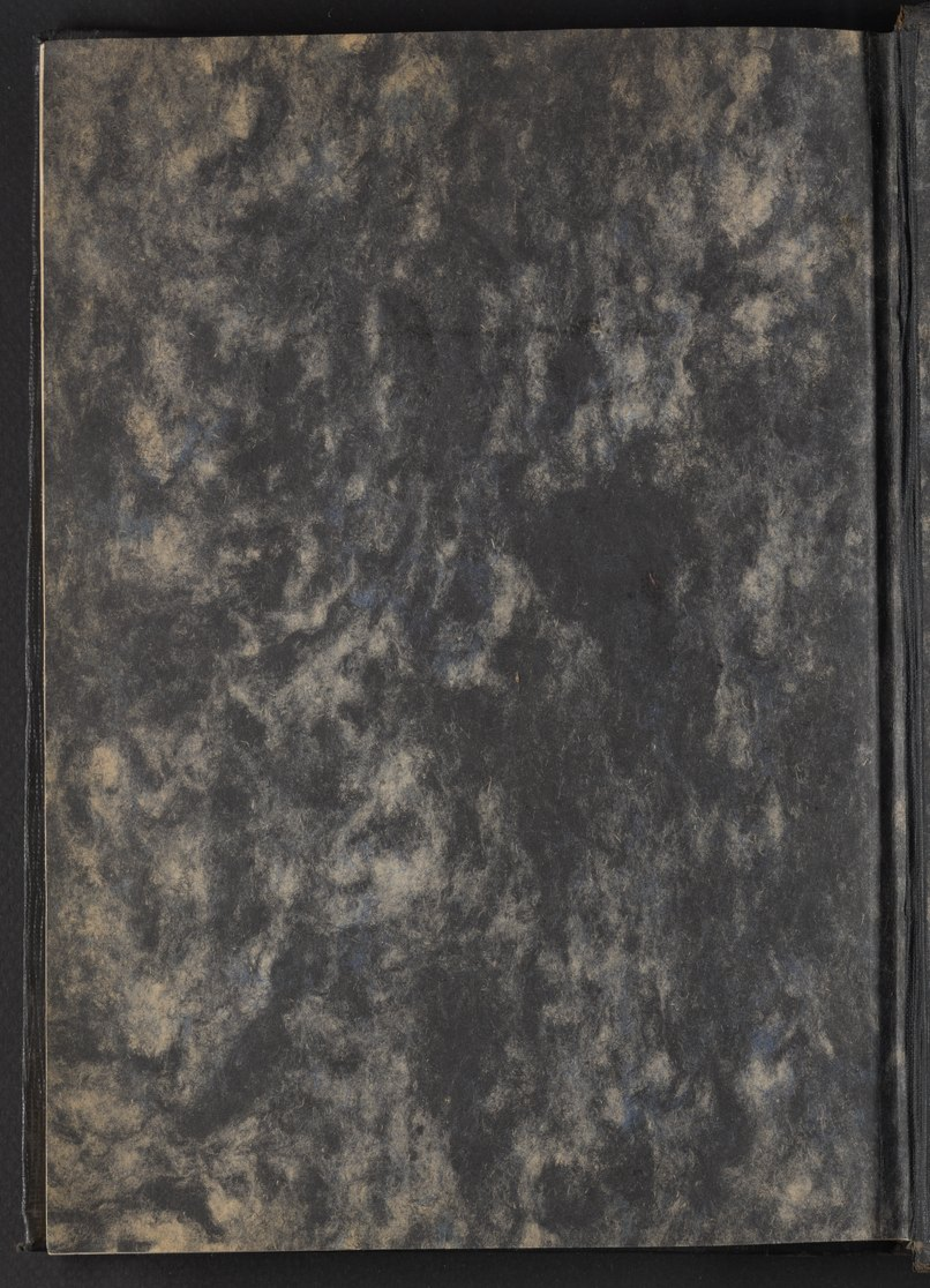
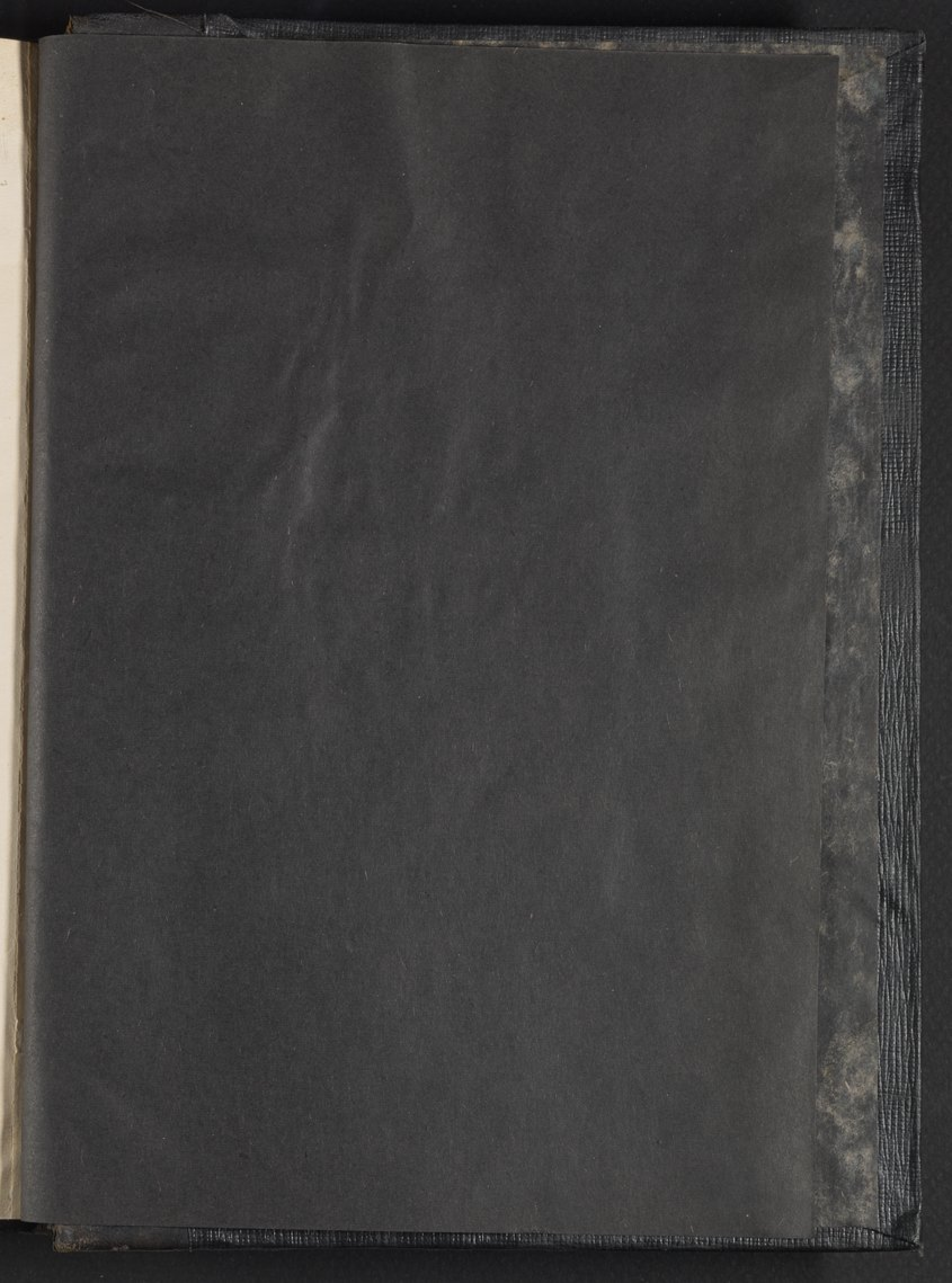

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01144 9539





الشرق الأوسط

في

مؤلفات الأمريكيين

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر

نيويورك — القاهرة

الشرق الأوسط

فى

مؤلفات الأمريكيين



المؤلفون

جورج سارتون — رتشارد إتنجهاوزن

كوينسى رايت — فيلكس بوشنسكى

وليم دياموند — روجر سولتو

أشرف على جمعه وتحريره

مجيد خدورى

راجعه

محمد مصطفى زيادة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

القاهرة ١٩٥٣

هذه الترجمة إلى اللغة العربية

مرخص بها

حصلت مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر (نيويورك - القاهرة)

على ترخيص خاص بترجمة ونشر فصول هذا الكتاب من المؤلفين والناشرين.

المترجمون:

عمر فروخ

محمد مصطفى زيادة

جعفر خياط

تعريف بالمؤلفين والمترجمين

من هم ؟

يرغب القراء أن يعرفوا شيئا عن مؤلفى الكتب التى يقرأونها ، وتحقيقا لهذه الرغبة تنشر مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر (نيويورك — القاهرة) تعريفا بجميع الذين شاركوها فى اخراج هذا الكتاب .

المؤلفون

چورچ سارتون

(George Sarton)

أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارڤارد بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهو من الثقات فى هذه المادة ، وفيها ألف كتبا عديدة . ونشر سارتون أبحاثا مفردة فى فلسفة العلوم والفنون الأسيوية ، والثقافة العربية ، فى مجلة ايزيس التى تعد أهم مجلة لتاريخ العلوم فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا . ونال سارتون جوائز ودرجات علمية كثيرة ، على سبيل التكريم ، من مختلف الجامعات والجمعيات العلمية فى أنحاء العالم .

رتشارد اتنجهاوزن

(Richard Ettinghausen)

أمين قسم الفن الاسلامى فى متحف فرير للفنون (Freer Gallery of Art) فى واشنجطن بالولايات المتحدة الأمريكية . وهو كذلك رئيس تحرير مجلة الفن الشرقى (Ars Orientalis) المخصوصة بأبحاث

الفنون الشرقية عامة ، ومؤلف بحث عنوانه الكتب والمجلات المنشورة باللغات الغربية فى شؤون الشرق الأوسط ، فى مطبوعات المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية (American Council of Learned Societies).

كوينسى رايت

(Quincey Wright)

أستاذ القانون الدولى بجامعة شيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية ، ورئيس سابق للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية ، واتحاد الأساتذة الجامعين الأمريكيين ، والجمعية الدولية للعلوم السياسية . وله بحوث ومؤلفات عديدة فى تاريخ العلاقات الدولية .

فيلكس بوشنسكى ووليم دياموند

(Felix Bochenski and William Diamond)

يعمل كل من هذه المؤلفين الاخصائيين خبيرا فى قسم المعاملات المالية الخاصة بالشرق الأوسط وآسيا ، فى بنك التسليف الدولى فى واشنجطن، بالولايات المتحدة الأمريكية .

روچر سولتو

(Roger Soltau)

مؤلف ومؤرخ معروف فى دوائر الجامعة الأمريكية فى بيروت بلبنان ، واشتغل بالتدريس فى هذه الجامعة سنوات عديدة حتى وفاته ، سنة ١٩٥١ م .

مجيد خدورى

أستاذ العلوم السياسية بجامعة چونز هوبكنز فى واشنجطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومدير الأبحاث بمعهد الشرق الأوسط فى واشنجطن . وهو من الخبراء فى شئون الشرق الأوسط ، وله مؤلفات فى الشريعة الاسلامية ، وفى تاريخ العراق الحديث .

عمر فروخ

أستاذ بكلية المقاصد الاسلامية ببيروت ، وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق ، وجمعية البحوث الاسلامية فى بومباى بالباكستان ، وله مؤلفات وبحوث معروفة فى الدوائر العلمية بالشرق الأوسط .

محمد مصطفى زيادة

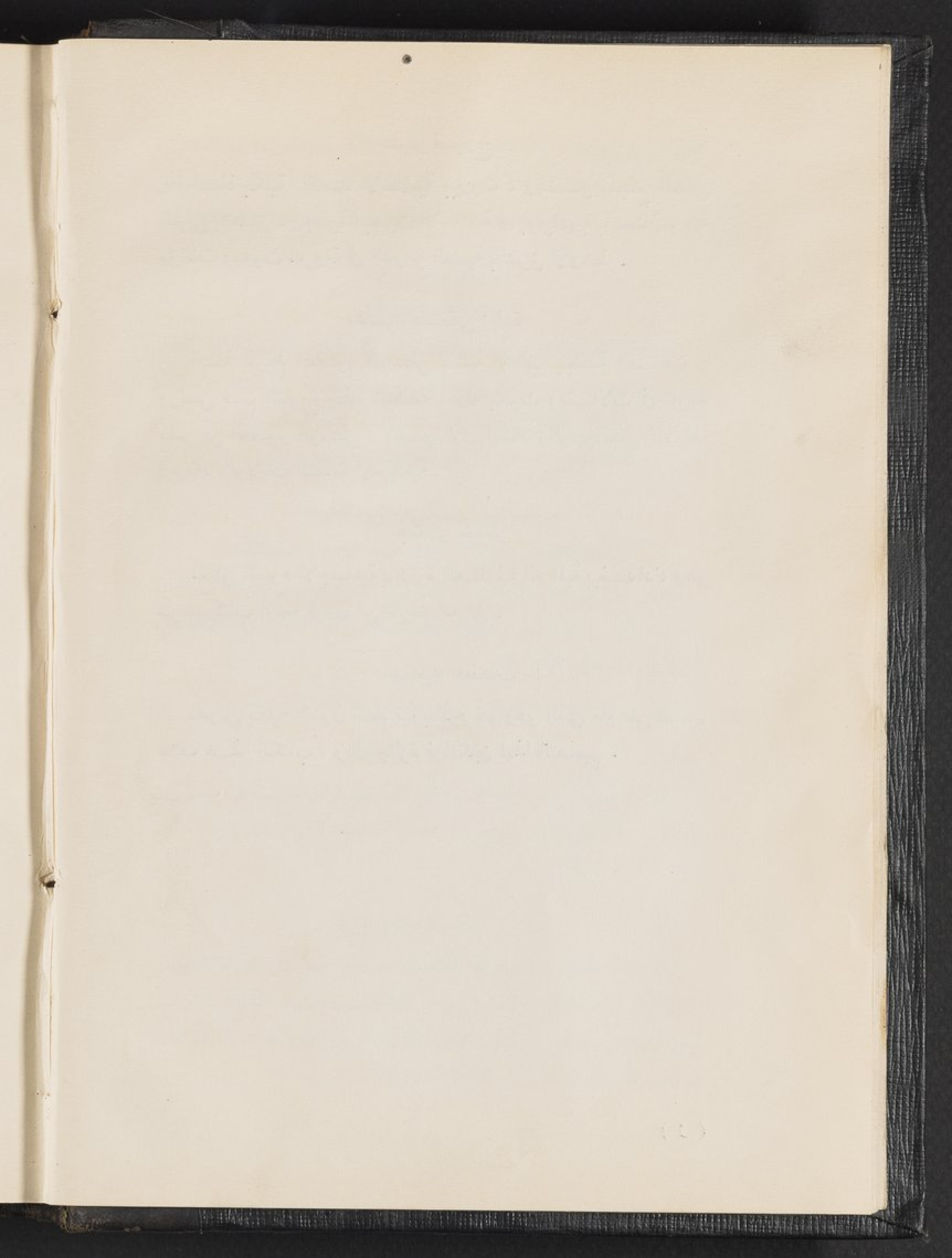
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ورئيس قسم التاريخ بهذه الجامعة ، وله بحوث ومقالات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى . وهو الآن أستاذ زائر بجامعتى فلوريدا ويوطاه بالولايات المتحدة الأمريكية .

جعفر خياط

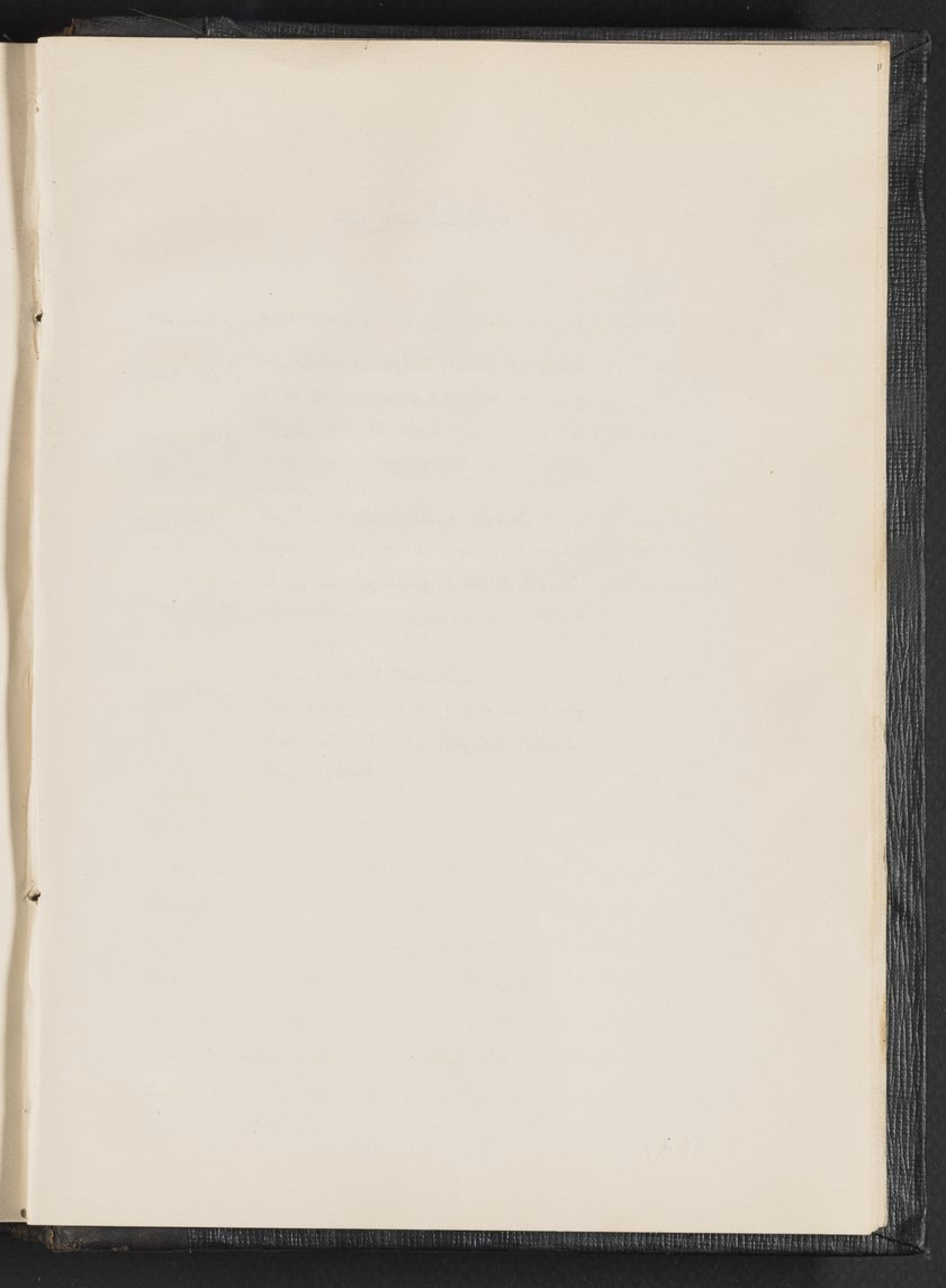
مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية ببغداد ، وهو مترجم كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق .

سعيد خطاب

مدرس بكلية الفنون التطبيقية بالقاهرة ، وهو الذى قام على تصميم غلاف هذا الكتاب ، ونال جائزة فرانكلين لهذا التصميم .



محتويات الكتاب



تصـــدير

عندما أعلنت مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر (نيويورك القاهرة) برنامجها الكبير ، وهى مؤسسة ثقافية أمريكية غرضها التعاون الثقافى بين قادة الفكر فى الولايات المتحدة الأمريكية وبلاد العربية ، قام مستر ديتس سمث ، مدير هـذه المؤسسة ، برحـلة الى الشرق الأوسط ، وزار معظم عواصمه . وتحدث مستر سمث فيما تحـدث الى كثير من المعنيين بالتـعاون الثقـافى بين الشرق والغـرب ، للقيـام على ترجمة طائفة مختـارة من البحـوث والدراسات الأمريكية الخاصة بشئون بلاد العربية ، واخراجها فى كتـاب واحد ، لاطلاع القـارىء على نتاج الفكر الأمريكى فى سهولة وقلة عنـاء .

ثم طلب الىّ مستر سمث أن أقوم على جمع مـواد هذا الكتاب ، فأخذت شاكرا فى اختيـار بحـوث دالة على مختلف الجهـود العلمية الخالصة فى ميادين التاريخ والاجتماع ، والاقتصاد والسياسة .

وسوف يلحظ القـارىء خلو هذا الكتاب من بحث مختار فى التربية والتعليم ، وليس معنى هذا أن الفكر الأمريكى لم ينتج شيئا فى هذه الناحية الهامة فى شئون الشرق الأوسط ، ولا سيما أن الخبراء الأمريكيين مشهورون ببحوثهم التربوية عامة . وانما آثرت الاقتصار على موضوعات الفصول المذكورة فى صفحة محتويات الكتاب ، نظرا لوجود ترجمة عربية طيبة لكتاب أمريكى فى التربية عنـوانه التربية فى الشرق الأوسط العربى ،تأليف رودريك ماثيوز ، أستاذ التربيـة فى جامعة بنسلفانيا ، ومتى عقراوى ، مدير التعليم العالى بوزارة المعـارف العراقية سابقا ، وترجمة أمير بقطر ، أستاذ التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . (المطبعة العصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م) .

والبحوث التى يراها القراء هنا — فى ثوب عربى — مختارة من عدد من الكتب والمجلات الأمريكية الكبرى ، ومؤلفوها ممتازون بالدقة والأمانة والعدالة العلمية ، وهم مشكورون لسماحهم أن تقوم مؤسسة فرانكلين على اختصار بعض هذه الفصول وتعديلها ، قبل تقديمها للنقل الى العربية ، رغبة فى اخراجها واضحة للقارىء العربى .

والفصل الأول من هذه البحوث من تأليف الدكتور چورج سارتون ، أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارڤارد بالولايات المتحدة الأمريكية . وأصل هذا الفصل محاضرة عامة ألقاها المؤلف فى واشنجطن تحت اشراف مكتبة الكونجرس ومؤسسة چورج كايزر ، وهو من ترجمة الدكتور عمر فروخ ، عضو المجمع العلمى العربى بدمشق ، وأستاذ بكلية المقاصد الاسلامية ببيروت بلبنان . والفصل الثانى دراسة فى الفنون والآثار الاسلامية ، ومؤلفه أخصائى مشهور هو الدكتور رتشارد اتنجهاوزن ، عقب محاضرة ألقاها فى موضوع الفنون والآثار الاسلامية فى مؤتمر ثقافى بجامعة پرنستون سنة ١٩٤٧ م ، ثم نشره فى الكتاب الشامل لبحوث هذا المؤتمر ، وعنوان هذا الكتاب « المجتمع والثقافة فى الشرق الأوسط » . ونقل هذا الفصل الى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وذلك أثناء اقامته أستاذا زائرا بجامعتى فلوريدا ويوطاه بالولايات المتحدة الأمريكية . ويلى هذا فصل موضوعه مستقبل الشرق الأوسط ، ومؤلفه الدكتور كوينسى رايت أستاذ القانون الدولى بجامعة شيكاجو . وأصل هذا الفصل محاضرة ألقيت فى مؤتمر الشرق الأوسط فى جامعة شيكاجو سنة ١٩٤٢ ، ثم نشره المؤلف فى السنة التالية فى كتاب البحوث الخاصة بذلك المؤتمر . على أن المؤلف رأى أن يضيف الى بحثه بعض المتجددات قبل ترجمته ، ثم قام على الترجمة الدكتور جعفر خياط ، وهو مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية .

والفصل الرابع من هذا الكتاب بحث دقيق فى عدة مشروعات اقتصادية بالشرق الأوسط ، على غرار مشروعات وادى التنسى بأمريكا ،

وهى المشروعات التى أدى نجاحها فى الولايات المتحـدة الى تفكير المفكرين فى شئون التعمير والاصلاح الزراعى ، فى غير أمريكا من البلاد . وهذا الفصل من تأليف اثنين من خبراء بنك التسليف الدولى فى واشنجطن، وهما الدكتور فيلكس بوشنسكى والدكتور وليم دياموند ، والفصل نفسه مأخوذ من مجلة الشرق الأوسط فى واشنجطن (المجلد الرابع ، ١٩٥٠) . وقام على ترجمة هذا البحث كذلك الأستاذ جعفر خياط .

أما الفصل الخامس وهو الأخير ، فمن تأليف الأستاذ روچر سولتو ، وهو منشور فى مجلة التاريخ الانجليزية (العدد ٢٢٥ ، سنة ١٩٤٠ م) . ومؤلف هذا الفصـل انجليزى قضى عشر سنوات من حياته فى التعليم بالجامعة الأمريكية فى بيروت ، وكانت وفاته سنة ١٩٥١ ، وهو مؤرخ معروف لدى خريجى هذه الجامعـة ، ومنهم الدكتور عمر فروخ صاحب الترجمة لهذا الفصل .

ونظرا لصعوبة الاتصال بالدكتور عمر فروخ والدكتور جعفر خياط من أجل بعض الأعمال التحضيرية قبيل ارسال أصول هذا الكتاب للمطبعة، ولضرورة القيام على اعداد محتويات الكتاب وتنسيقها كلها فى صورة واحدة ، قبل الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يقوم على ذلك العمل أملا فى اخراج الكتاب فى صورة نهائية جديرة بالقارىء العربى الجديد ، بجميع بلاد العربية ، واعتمد فى عمله على ما أبداه مؤلفو هذه الفصول لمؤسسة فرانكلين أولا من الترحيب بكل تعديل من شأنه أن يوضح محتويات هذا الكتاب للقارىء ، وهو ما حرص المترجمون أنفسهم على الأخذ به . (انظر ص ٤) .

وعسى أن تكون هـذه الفصول المختارة ، بعد تطـويع أسلوبها وتحريرها ، وترجمتها وتنسيقها ، حافزة للقارىء العربى أن يستزيد من الاطلاع على بحوث ثقافية أخرى من مؤلفات الغربيين ، لمعرفة صلات الثقافة الاسلاميـة فى الشرق الأوسط بثقافات الأمم المعاصرة لها ، فى

مختلف الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ولتقدير ما يستطيع تبادل المعرفة بين الأمم أن يصل اليه من الخير العام المشترك .

واذ وضحت طريقة اختيار هذه الفصول وترجمتها الى العربية للقارىء العربى الجديد ، ينبغى أن أشير هنا الى ما طرأ على الفكر الأمريكى من تطور فى العصر الحاضر . ذلك أن العلاقات الثقافية بين أمريكا والشرق الأوسط اقتصرت — فى زمن مضى — على نفر من علماء الآثار القديمة واللغات السامية ، ونفر آخر من رجال المنظمات التبشيرية ، فضلا عن عدد من السائحين الذين لم يروا بلاد الشرق الأوسط الا من نوافذ الفنادق الأوربية والسيارات الأمريكية ، دون أى اهتمام كبير لمعرفة أحوال الشعوب فى هذه البلاد . على أن هذا الاعراض الأمريكى القديم لم يكن مقصورا على الشرق الأوسط ، بل تعداه وتتذاك الى معظم بلاد العالم ، بسبب سياسة العزلة التى أيدها الشعب الأمريكى نفسه ، وهى سياسة أدت الى عزلة ثقافية ، فصلت بين الأمريكيين ومنابع ثقافتهم الأوربية الأولى ، كما فصلت بينهم وبين ثقافات الشعوب الشرقية القديمة والمتوسطة والحديثة ، فضلا عن حضارتها .

ثم تغيرت هذه الحال كلها عقب الحرب العالمية الأولى ، فتبدلت العزلة الأمريكية الى سياسة التعارف والتعاون ، بين الأمم جميعا . وازداد هذا التبدل بعد الحرب العالمية الثانية ازديادا مطردا جعل أمريكا — حكومة وشعبا — ترغب رغبة دائمة فى التعرف على الشعوب الأوربية ، وغير الأوربية . وتظهر هذه الرغبة واضحة للمتصلين بمعاهد العلم الأمريكية فى أنحاء العالم ، وهى ليست وليدة الدوافع السياسية ، أو الجشع الاقتصادى ، بل ترجع الى شعور أمريكى عام بأن الولايات المتحدة التى أصبحت ذات مركز دولى عظيم ينبغى لها أن تملأ هذا المركز الجديد الفريد ، على أساس المعرفة والاحترام المتبادل والتعاون المشترك ، وهو أساس الديمقراطية التى بذل الأمريكيون فى سبيلها جهودا داخلية عنيفة ، منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، ثم أخذوا يبذلون فى سبيلها جهودا خارجية كبيرة منذ العشرينات من هذا القرن العشرين .

وربما كانت الجامعات والمعاهد الأمريكية أسبق الأوساط الأمريكية الى هذا الشعور الذى غدا عاما بين الأمريكيين ، بدليل ما بكرت اليه هذه الجامعات والمعاهد من اعداد برامج خاصة لتدريس اللغات الأجنبية، والثقافات الشرقية ، وتشجيع البحوث الواسعة فى أحوال الشعوب المختلفة . ومع حداثة الأمريكيين بدراسة بلاد الشرق الأوسط ، لم تلبث البرامج الخاصة بهذه البلاد أن امتدت الى مختلف النواحى الثقافية العمرانية ، وبرهان ذلك أن جامعات هارڤارد وپرنستن ومتشيجن وبنسلڤانيا — وهى التى عنيت سابقا بدراسة اللغات السامية أو الآثار القديمة — أعدت حديثا دروسا وبحوثا تعنى باللغات الشرقية الحديثة ، وأحوال الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية فى العصر الحاضر . وفى مدرسة الدراسات الدولية العالية فى جامعة چونز هبكنز ، وهى التى ينتمى اليها كاتب هذه السطور ، منهج واسع يتناول دراسة الشرق الأوسط الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر ، بالاضافة الى دراسة الشريعة الاسلامية وحاضر العالم الاسلامى . ويتصل بهذه المدرسة معهد الشرق الأوسط لنشر البحوث والدراسات الشرقية الحديثة بين الأمريكيين، فى مجلته التى بدأها منذ سنة ١٩٤٧ ، وعنوانها « مجلة الشرق الأوسط »، وهذه عدا المؤلفات العلمية التى أخذ المعهد فى الاشراف على طبعها . ولا بد من الاشارة هنا كذلك الى جهود « المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية » ، اذ يقوم هذا المجلس على ترجمة مجموعة من الكتب العربية القديمة والحديثة الى اللغة الانجليزية ، ويعد العدة لنشرها فى المستقبل القريب .

وانبرت بعض المؤسسات الأمريكية لتمد هذه الجامعات والمعاهد بالاعانات المالية السخية ، تشجيعا للبحوث العلمية فى الشرق الأوسط وغيره من البلاد . ومن هذه مؤسسة روكفلر وفورد وهوتنى وكارنيجى وغيرها ، بل منحت هذه المؤسسات هبات مالية الى أعداد من الأساتذة الاخصائيين والطلاب الأمريكيين ، لتسهل لهم سبيل التفرغ الى دراسة شئون الشرق والعناية بالبحوث الشرقية . ثم ما لبث أن لقيت بحوث

هؤلاء الأخصائيين تشجيعا من دور الطباعة والنشر الأمريكية ، فنشرت بحوثهم راضية ، وصدر فى أمريكا من هذه البحوث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية مجموعة من المؤلفات التى تجد بضعة طيبة من اسمائها فى ملحق هذا الكتاب .

مجيد خدورى

حضانة الشرق الأوسط

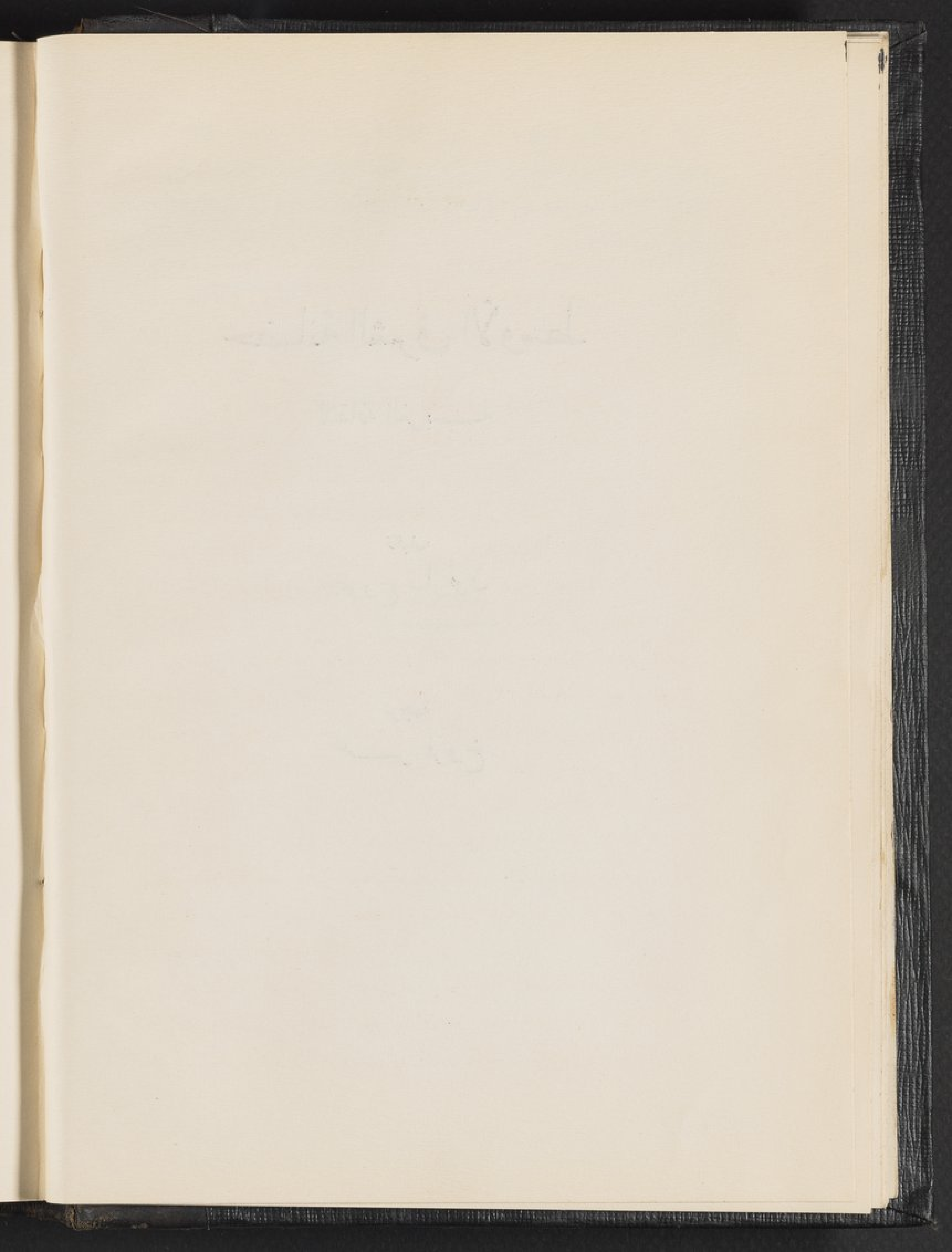
للثقافة الغربيـــة

تاليف

جورج سارتون

ترجمة

عمـــر فروخ



كلمة المترجم

هذه محاضرة للمستشرق الدكتور جورج سارتون ، أحد أساتذة جامعة هارفارد (فى الولايات المتحدة) ومؤلف كتاب « مقدمة الى تاريخ العلم » . ألقى سارتون هـذه المحاضرة بناء على دعـوة من مكتبة الكونجرس الأميركى ومؤسسة جورج ك . كايزر ، فى التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٥٠ ، فى منتدى كوليدج فى مكتبة الكونجرس .

وقمت على نقل هذه المحاضرة الى اللغة العربية حبا لما فيها من معارف جليلة ومن ملحوظات صحيحة . والدكتور سارتون جد منصف للعرب وللمسلمين ، ولكن له أيضـا ملحوظات لا تسرنا كثيرا . على أن هـذه الملحوظات ، اذا كانت تحتمل مأخذا فأننى سأعلق عليها بالشرح والاشارة ، واما اذا لم يكن فيها مأخذ فيجب أن نجعل منها عبرة لأنفسنا .

أنا أشعر مع صاحب المحاضرة — وأعتقد كما يعتقد كل واحد منا — ان الاسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية وأجملها ، وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الاطلاق . ولكن المسلمين اليوم كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام . ان الاسلام يدعو الى العلم والقوة والنظافة ، ولكن المسلمين ليسوا فى هذه الأمور خيرا من غيرهم ، ولا مثل غيرهم أحيانا . وهـذا ما شعر به المصلحون المسلمون ، فقال الشيخ محمد عبده : « الاسلام محجوب بالمسلمين » ، أى أننا اذا نظرنا الى مبادىء الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادىء جلية واضحة وجميلة سامية ، كما هى حقيقة . وصاحب المحاضرة يعرج على هـذه الملحوظة مرارا فى أثناء كلامه .

اننى هنا أرجو من بنى قومى أن يولوا هذه الملحوظة حسن عنايتهم ، وأن يعلموا أن لا أمل لهم بالنهوض الا اذا رجعوا الى حقيقة دينهم جاء فى القرآن الكريم : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

والعلم اليوم على أقلة بين المسلمين. وجاء فى القرآن الكريم أيضا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، فلما ثارت الحرب بالأمس فى فلسطين كنا أقل استعدادا ماديا وروحيا من خصومنا بمراحل . وكذلك جاء فى الحديث الشريف : « النظافة من الايمان » ، ثم أقر الاسلام الطهارة والغسل والوضوء . ولكن المسلمين ، فى مجموعهم ، لا يستطيعون اليوم أن يفتخروا بأنهم أنظف شعوب الأرض ، كما أراد منهم دينهم أن يكونوا .

ان المسلمين — فى مجموعهم — بعيدون اليوم عن حقيقة دينهم ، فلا عجب اذا رأيناهم بعيدين عن حقيقة الحياة نفسها . وصاحب المحاضرة نفسه يعتقد أن شعوب الشرق الأوسط — وهم المسلمون فى الأكثر — يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضية ، والى زعامة العالم السياسية والعلمية ، كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الا اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث الاسلام على الأخذ بها ، بهذه الروح الصحيحة يجب أن نقرأ هذه المحاضرة القيمة .

وهنا موضع ملحوظة على أسلوب هذا الكتاب ، وهى اننى تصرفت تصرفا يسيرا فى مواضع معدودة عند نقل هذه المحاضرة الى اللغة العربية ، فاستغنيت عن بضع جمل لأنها تدور مثلا حول « الخطة » التى اتبعها المؤلف فى كتابة الكلمات العربية بالأحرف اللاتينية ، كما فى المقدمة ، أو ما هو قريب من ذلك ، مما لا يحتاج اليه القارىء العربى . وهنالك أيضا كلمات أضفتها لتكون العبارة أجرى على الأسلوب العربى ، من غير أن يتأثر المعنى فيها كثيرا أو قليلا . وكذلك لما وصلت الى المقاطع التى تعالج حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضوع القرآن الكريم جريت فيها على الآداب الاسلامية ، فكسوت تلك المقاطع تقوى يستشعرها المسلم ، وهى مما لا يجد الكاتب الغربى نفسه مضطرا الى التقيد بها . ثم ان الكتاب فى الأصل يضم حواشى « تفسيرية » كثيرة ، وهذه تمنع القراءة السائرة ، ومن أجل ذلك عمدت الى ادخال هذه الحواشى فى

المتن . ورجعت فى ذلك كله الى رأى الدكتور سارتون ، فلم يجد ضررا فى ما فعلته . ولكننى أبقيت حواشى التعليق وحواشى المصادر والمراجع على حالها .

وبما أن قارىء هذا الكتاب فى حلته العربية سوف يقف متسائلا أمام عدد من الآراء والتعابير والألفاظ أحببت أن أضع لهذه كلها حواشى للتفسير (اذا كانت غير مألوفة فى البيئة العربية العامة) ، أو للتعليق (اذا كانت تلك الآراء والتعابير والألفاظ على غير المنهج المأنوس عندنا فى بحوث الاسلام خاصة) . وحرصت على أن أختم كل حاشية من وضعى أنا بالحرفين الأولين من اسمى (ع . ف) ، تمييزا لها من الحواشى التى هى للمؤلف .

وبعد ، فان علىّ تبعة كل ما فى هذا النص العربى ، مع العلم بأن الدكتور سارتون قرأه وأجازه . وعسى أن تكون سقطاتى قليلة فى نقل هذه المحاضرة القيمة ، وأن أكون أديت بنقلها الى اللغة العربية خدمة ثقافية توجيهية لقومى ولأمتى .

عمر فروخ

المعلومات المتضمنة فى هـذه المحاضرة وفى حواشيها تـزداد قيمة بالرجوع الى كتاب عنوانه « مقدمة الى تاريخ العلم » [١] للمؤلف ، وهو ثلاثة أجزاء كبيرة فى خمس مجلدات ، نشرتهـا مؤسسـة كارنيجى فى واشنجتون بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٤٨ م . وستكون الاشارة الى هذا المرجع هـكذا : (Introd.) [٢] . وكذلك يحسن الرجوع الى مراجعات وتقاريظ صـدرت فى مجلة ايزيس ، وهى مجلة مخصوصة بتاريخ العلم ، صدر منها الى الآن ثلاثة وأربعون مجلدا (١٩١٣ — ١٩٥٢) فى بلجيكا والولايات المتحدة . وهنالك أيضا مقتطفات قليلة أضيفت الى هذه المحاضرة ، لم يشر اليها بعلامات الاقتباس المعروفة ، وهى مأخوذة من رسالة للمؤلف عنوانها « آثار العرب العلمية » [٣] فى الكتاب الذى صدر احياء لذكرى المستشرق المجرى الكبير اغناطيوس جولدتزيهر [٤] .

أضفت الى هـذه المحاضرة فيما بعد عـددا من الحواشى ومن أسماء المراجع ، لا ليتمكن القارىء من التثبت من الأحكام الواردة فى هذه المحاضرة فحسب ، بـل لتساعده تلك الحواشى والمراجع على متابعة البحث أيضا .

---

(١) راجع « آثار المؤلف » فى ترجمته (ع . ف) .

(٢) سوف أترك أسماء المصادر والمراجع الاجنبية بلغتها الأصلية ، اذ لا فائدة عملية من نقلها الى اللغة العربية . وما دامت الغاية من ذكر عناوين الكتب ان يرجع القارىء اليها ، فالذى يعرف اللغات الاجنبية لا يحتاج الى هذا النقل ، والذى يجهل اللغات الاجنبية لا يستفيد منه . اما اذا كان اسـم الكتاب دال بنفسـه على قيمة علمية خاصـة فاننى أنقله حينئذ الى اللغة العربية (ع . ف) .

(٣) اسم هذه الرسالة Arabic Scientific Literature.

(٤) Ignaz Goldziher Memorial Volume, part I, pp 55-72, Budapest, 1948.

انى أقدر هذا الشرف الذى أولتنى اياه مؤسسة جورج ك . كايزر حينما جعلتنى محاضرها الأول ، كما أعد من التقدير الكبير لى أن أدعى الى الكلام فى هذا المنتدى الشائق الذى نحن مدينون به الى كرم السيدة اليزابث سپراج كوليدج (١) . ان السيدة كوليدج بنت هذا المنتدى للموسيقيين وأحباب الموسيقى ، وأنا أرجو ألا تكون محاضرتى غير جديرة به . اننى لست موسيقيا مبدعا ، ولكننى وقفت حياتى منذ سنين طوال على التوفيق بين الخلافات الناشئة بين العلوم وبين الآداب ، وعلى معرفة العلة فى سوء التفاهم بين الشرق والغرب . وليس على الأرض ولا فى السماء موسيقى أجمل من التوفيق بين القلوب المتآلفة أو المتحابة .

انكم تعلمون ، على الأرجح ، أن المؤرخين القدماء كانوا يحبون أن يبدأوا صحف تاريخهم منذ البدء الأول ، بقصة آدم وحواء . ونحن يجب أن نفعل مثلهم ، ذلك لأن « شجرة معرفة الخير والشر (٢) » كانت فى وسط جنات عدن . ومع أن ثمة خلافات كثيرة (كانت وستبقى) بين الدراسين على الموقع الصحيح للجنة ، فاننا لا نخطىء أبدا اذا قلنا ان تلك الجنة كانت فى مكان ما من « الشرق الأوسط » .

دعونا نقف لحظة فى ظل هذه الشجرة . ان وقوفنا هذا سيحمل الى أذهاننا شيئا من الحكمة القديمة — ان جنات عدن ، أو الفردوس ، كانت دار الخلد التى أضاعها آدم وحواء ، وأهبطهما الله منها الى الأرض (٣) . ونحن نجد أن أكثر الشعوب القديمة متفقة على أنه كان فى غابر الأزمان عصر ذهبى أخذ البشر يتقهقر بعده شيئا فشيئا . من ذلك مثلا ما ورد عند الشاعر اليونانى القديم هسيود انه كان ثمة عصر للذهب ، ذلك العصر الذى كان عصر سلم وكمال . ثم تبع هذا العصر عصر الفضة ، ثم عصر الشبه (النحاس الأصفر) ، ثم عصر الحديد (٤) . واذا نحن تابعنا هسيود

---

(١) Mrs. Elizabeth Sprague Coolidge

(٢) التوراة ، سفر التكوين ٢ : ٩ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة البقرة (٢ : ٣٦ ، ٣٨) ، سورة الاعراف (٧ : ١٩ ــ ٢٥ ، سورة طه (٢٠ : ١١٧ ــ ١٢٣ ــ ١٢٣ ــ (ع ٠ ف) .

(٤) Hesiod : His works and days (Lines 109-201)

فى خيالاته أمكن أن نقول اننا اليوم فى عصر المعاجين [١] ، أو عصر البترول. وبعد ، أفيكون هذا كله نهاية أم بداية لعصر جديد ؟ والغريب ان رجلا ذا عبقرية مثل سيمون ستيفن (١٥٤٨ — ١٦٢٠ م) الفلمنكى [٢] ، وهو العالم فى الرياضيات والطبيعيات ، كان يؤمن بعصر خرافى للعلوم والحكمة فى غابر الأزمان ، وكان يعتقد كذلك ان هذا المجد الذى غبر مع الزمن يمكن أن يعود بوسائل متعددة، منها مثلا تعلم اللغة الهولندية [٣].

أيتقدم العالم أم يتأخر ؟

وبعبارة أخرى لم يكن العلماء يؤمنون بأن العالم سائر الى التقدم ، بل انه فى ارتداد الى حاله الأولى ، بعد تقدمه الأول . فبعد العصر الذهبى الذى كان فى غابر الزمن فى مكان ما من الشرق الأوسط ، لم تفتأ البشرية تتقهقر فى رأيهم من سيء الى أسوأ منه . ولم يشذ عن هذا الاجماع سوى شخص واحد ، شخص واحد كان متفائلا الى حد ما ، وكان يؤمن بالمستقبل .. ذلك هو الفيلسوف الرومانى العظيم سنيكا [٤] المولود فى قرطبة ، وهو الذى عبر عن حقيقة التقدم فى ميدان المعرفة تعبيرا واضحا . ذكر سنيكا هذا الايمان بالتقدم مرتين على الأقل : مرة فى رسالة الى لوسيلليوس ، ومرة أخرى فى « المسائل الطبيعية » [٥] . وكذلك كنا رأينا بعض هذا الايمان بالتقدم من قبل عند ثوسيديدس [٦] الذى شهد القرن الخامس قبل الميلاد — فى مطلع كتابه « فى التاريخ » ، ولكن بوضوح أقل . وهذا الايمان بالتقدم العلمى الذى جاش فى صدر سنيكا كان الأساس الذى قامت عليه فكرة برنارد المنسوب الى شارتر بفرنسا —

---

(١) أى plastics وهى مادة لدنة طيعة تصنع اليوم منها أدوات كثيرة .

(٢) Simon Stevin ، والفلمنك مقاطعة من هولندة .

(٣) دعا ستيفن هذا العصر « العصر الباحث » ، وهذا غريب منه . راجع Sarton : « Simon Stevin of Bruges » (*Isis* 21: 241-303, 1934, P. 259).

(٤) Seneca ، شهد النصف الثانى من القرن الاول ، الرسالة الرابعة والستون الى لوسيلليوس Lucillius وهى واردة فى Introd. 2 : 484

(٥) *Natural Questions* 7 : 25

(٦) Thucysides

والذى شهد النصف الأول من القرن الثانى عشر — حينما قال : « اننا نظهر بالنسبة الى الأقدمين وكأننا أقزام متربعون على أكتاف الجبابرة » ، مما أصبح مثلا سائرا على الألسن [١] . ويمكننا أن ندرك ذلك فى ميدان المعرفة ادراكا واضحا ، لأن الجهود العلمية هى الجهود الانسانية الوحيدة التى يمكن أن تتراكم وأن تقبل التقدم . فمن أجل ذلك يجب أن نبنى تاريخ الانسانية على تاريخ العلم .

على أن فكرة الرقى اتسعت فى العصور الحديثة حتى امتدت شيئا فشيئا الى ما وراء الميدان العلمى ، فتناولت حياة الانسان كلها ثم بلغت أقصى اتساعها [٢] فى العصر الفيكتورى [٣] . ولقد ساد العالم فى ذلك الحين اعتقاد بأن العالم ينتقل من حسن الى أحسن ، مع العلم بأن البشرية كانت يومذاك مبتلاة بأنواع دائمة من الشقاء ، كالمرض والفقر وارتكاب الخطايا ، أو ويلات عارضة كالطوفان والمجاعات والحروب . ولكن لم يشك أحد فى أن هذه الأنواع من الشقاء ستنكسر حدتها مع الزمن ، وأنها هى ستكون أقل حدوثا فى هذا العالم ، كما أن الويلات العظمى سيمكن التغلب عليها فى النهاية . غير ان اطمئناننا لم يضطرب الا نادرا ، اذ اتفق أن تمتعت الطبقة العليا والطبقة الوسطى فى انجلترة وأمريكا برخاء عظيم ، حتى أن القليلين فقط كانت لهم جرأة على الاحتجاج على تكاليف الحياة . على أن أعظم الاحتجاجات على هذا التفاؤل الشامل عند الناس صدر عن الكاتب الانجليزى ادورد كاربنتر (١٨٤٤ — ١٩٢٩) فى كتابه الذى تحدى بعنوانه جميع الناس : « المدنية ، أسبابها وعلاجها » [٤] .

ولقد جاء التعبير عن مثل هذه الآراء بشدة وبشىء من التهكم المر فى آثار المرحوم أناندا كوماراسوامى ، فى مجموع مقالاته المسمى :

---

(١) انظر شواهد كثيرة على ذلك فى Introd. 3. 870

(٢) فى الاصل Climax ، اى ذروتها .

(٣) عصر فكتوريا ، ملكة انجلترا (١٨٣٧ — ١٩٠١ ، وقد عظمت انجلترا فى أثنائه سياسيا واقتصاديا وأدبيا (ع . ف) .

(٤) Edward Carpenter : *Civilization, Its Cause and Its Cure* (1889) ؛ اشارة الى أن المدنية مرض .

« أحارس أنا لأخى ؟ » [1] . كان صـــديقى كوماراسومى مبالغا وغير متسامح ، ومع ذلك فان آراءه تستحق أن تكون موضع تأمل ، ولاسيما أنها مملوءة بالشواهد وبأسماء المراجع .

ومن الغرابة بمكان أن المصـــلحين الذين نعوا دائما على المجتمع كثرة الشقاء والظلم فيه ، كانوا مع ذلك متحمسين لمظاهر الرقى كالآخرين، اذ كانوا يعتقدون أن العالم — مع ما فيه من الشر — فى تحسن مستمر يوما بعد يوم . أما رجال العلم أنفسهم ، فكانوا أكثر تفاؤلا مما تدعو اليه الحكمة .

غير أن هذا الاطمئنان العلمى قد تزعزع على أثر الاكتشافات التى قلبت حياة العالم رأسا على عقب ، أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى ، حتى أن نخبة من رجال العلم عادوا أقل ثقة مما كانوا من قبل وأكثر تواضعا [2] . ان هـــذا التفاؤل الأنانى الذى يقول به أصحاب الأعمال الناجحة زعـــزعته الحرب العالميـــة الأولى ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فقضت عليـــه . وهكذا رجعنا كلنا حينئذ الى وجهة نظر قريبة من المعقول .

هنالك شىء من التقدم ، لا أقول فى ميدان العلم فقط ، حيث يكون التقدم عادة ظاهرا ، بل فى غيره من الميادين أيضا . ولكن يجب علينا ، على كل حال ، الا نوغل فى التفاؤل ، اذ أن كل تقدم اجتماعى مهدد أبدا بالتوقف أو بالتلاشى ، نتيجة ما يحتمل أن يصيب العالم من الكوارث . والتقدم — على المدى الطويل — يصبح حقيقيا أكيدا ، ولكن حياتنا نحن قصيرة جدا ، ولعل الحظ لا يرافقنا أيضا فى مدى الحياة القصيرة . ان المدنية ليست

---

(١) Ananda K. Coomaraswamy (1877-1947): « *Am I my Brother's Keeper* ? » (New York 1947) ، وعنوان هـــذا الكتاب مأخوذ من التوراة : سفر التكوين ٤ : ٩ .

(٢) راجع للتمثيل على ما نحن بسبيله مجموعة الأحكام المتواضـــعة التى فاه بها اثنان أحدثا أثرا عميقا فى العلم الحديث ، وهمـــا ماكس بلانق والبرت اينشتاين :
Max Planck (*Isis* 40 : 66-69), and Albert Einstein. *Introd* 3 : v)

مرضا ، ولكنها توازن دقيق جدا يمكن أن يختل بطرق مختلفة . وكلما تعقد التمدين أضحى أكثر دقـة ، وبالتالى أضحى توازنه أقرب الى الاختلال . وكذلك كلما غدا التمدين أرقى كانت الخشية من سقوطه أعظم ، ولنذكر فى هذه المناسبة ألمانيا واليابان !

التقدم فى ميدان العلم

ونحن على كل حال اذا أردنا أن نفهم تاريخ الانسانية ، أى أن نجعل منه موضوعا مفهوما ، يجب علينا أن نولى انتباهنا للعناصر التقدمية فيه . أى لتطور العلوم . ذلك ان تاريخ العلم (أو تاريخ المعرفة) يجب أن يكون النـواة لكل تاريخ للحوادث الانسانية ، لأن البشر يختلفون عن الحيوان فى الرغبة الملحة الى الخير والجمال ، والحقيقة والانصاف . فاذا لم يتصف الانسان بواحدة من هـذه القيم الروحانيـة يصبح حينئذ وحشا ، بل أشد الوحوش قدرة وقسوة معا . ولذلك كان أهم أقسام التاريخ تاريخ الدين ، وتاريخ الفن ، وتاريخ العلم . على أن التقدم لا يكون أبدا ملموسا أكيدا الا فى القسم الأخير من هذه الأقسام . من أجل ذلك وجب أن يحتل تاريخ العلم المركز الأوسط فى صورة المدنية ، لأن الاجماع واقع على أن تاريخ العلم بـدأ — على التحقيق — فى المكان الذى تواضـعنا على أن نسميه الشرق الأوسط ، مع أنه من المستحيل علينا أن نجزم فى أى قسمى هذا المكان بدأ . أفى القسم الغربى منه ، فى مصر ؛ أم فى القسم الموغل نحو الشرق ، فى ما بين النهرين ؟ ومن الممكن أيضا أن يكون العلم تطور أولا فى مناطق أخرى ، أى ايران أو الهند أو الصين ، أو فى الهند الصينية ؟ ولكن معرفتنا بالتطورات الأولى للعلم فى هذه المناطق غامضة وغير أكيدة . ثم ان هذه التطورات البعيدة لم تؤثر فى مدنيتنا الغربية مباشرة ، كما أثرت فيها التطورات التى جرت فى بلاد الشرق الأوسط .

الواقع ان ديننا لمصر وما بين النهرين عظيم ، وعظيم جدا ، حتى ان موجزا قصيرا لشرح بعض ما بلغه هذان الموهوبان فى العلم تضيق عنه هذه

المحاضرة . ولكن دعونى أذكركم بحقيقة واحدة هى أن هذين البلدين كليهما اكتشفا وسائل الكتابة ، ومن المرجح أن هذه الفكرة المدهشة كانت ابتكارا فى البلدين ، غير أن الأسلوبين اختلفا على كل حال .

اخترع المصريون للغتهم التعبير بالصور (الكتابة الهيروغليفية) ؛ ثم اكتشفوا أحسن وسائل الكتابة فى العصور القديمة ، وهو نبات البردى الذى استطاع الكاتبون أن يبرزوا على صفحاته المصقولة فنهم فى أروع أشكاله . أما السومريون [١] فلم يكن لهم بد من أن يقنعوا بالكتابة على الطين ؛ وهذا هو الذى قرر اشكال خطوطهم المسمارية [٢] . ومع ذلك أتقن السومريون كتابتهم تلك حتى أصبحت اللغة البابلية — قبيل انتهاء القرن الخامس عشر قبل الميلاد — لغة السياسة الدولية ، وأصبح الخط المسمارى خط المراسلات فيها ، واستعمل هذا الخط لكتابة لغات كثيرة من لغات آسيا الغربية . على أن استعمال البردى فى مصر أدى الى اختراع المجلدات أو الكتب ، بينما كان لألواح الطين فى ما بين النهرين ميزة خاصة ، هى أنها لم تكن قابلة للتلف . وهكذا ظلت ألواح الطين متفرقة لا يجمع بينها جامع ، بخلاف صفحات البردى التى كان يسهل ضمها وجعلها كتبا مجلدة . هذا مع العلم بأن قطعا من البردى ومجلدات تامة منه قد حفظت الى يومنا هذا ، بفضل جفاف الجو فى مصر ، بينما لم يكن بالامكان حفظها لو أنها كانت فى ما بين النهرين . أما ألواح الطين فيمكن أن تظل محفوظة سليمة فى كل مكان ، ما لم يتعمد أحد أتلافها [٣] ، وهكذا نجد أنه لم يكن عند البابليين كتب كما كان عند المصريين ، ولكن البابليين عوضونا عن هذا النقص بخلق دوائر لحفظ الوثائق منسقة ، وبخلق مكاتب منذ عهد متقدم .

---

(١) السومريون شعب غير سامى سكن مابين النهرين ، واكتسب كثيرا من خصائص الساميين فيما بعد . (ع . ف) .

(٢) الخط المسمارى خط تصويرى تشبه علاماته الشكل الجانبى للمسمار . وقد يسمى أيضا الخط الأسفينى ، لأن علاماته تشبه أيضا الشكل الجانبى للاسفين .

(٣) تجد وصفا شائقا لذلك فى كتاب ادوارد كيارا : « لقد كتبوا على الطين » :
Edward Chiera (1885-1933): *They Wrote On Clay* (Chicago 1938).

ومعظم الناس يعرفـون من عبقرية المصريين أكثر مما يعرفون من عبقرية البابليين ، وما ذلك الا للعجائب الباقية فى الآثار المصرية من الأهرام والمسلات والهياكل العظيمة ، على حين أبنية الطابوق [١] فى ما بين النهرين قد درست بعوادى الزمن ، أو خربت خرابا عجـزت عنه يد الاصلاح . ولا ريب أيضا فى أن مما ساعد على شهرة العبقرية المصرية وجود مسلات كثيرات تقوم فى عواصم أوربا ، وفى نيويورك أيضا ، وهى شواهد واعلان عن تلك العبقرية [٢] . ونحن على كل حال مدينون للأمتين كلتيهما بنشوء الفن والأدب والرياضيات والفلك والكيمياء وبصناعات أخرى ، واننا نحن الغربيين مدينــون لهم بكتابنا المقدس نفسه وبديننا وقواعد أخلاقنا دينا كبيرا .

اين كان مهد المدنية

ان الحقيقة القائلة بأن مهد المدنية الغربية كان على ضفاف النيل والفرات ودجلة لم تكن تفهم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر ، أما الآن فانها أصبحت واضــحة أجلى الوضوح ، بل نحن اليوم نســتطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية ولدت فى تلك البلاد المحظوظة .

والواقع لم يمض وقت طـويل على الزمن الذى كان الدارسون يرون فيه أن جذور المدنية الغربية كانت فى اليونان ، فيما يتعلق بالعلم ، وفى فلسطين فيما يتعلق بالدين . ثم لم يكلف الدارســون أنفسهم أن يذهبوا الى ما وراء ذلك . ولكننا نحن اليوم نعلم أن اليونان واليهود أنفسهم مدينون بذلك كله للمصريين والبابليين ، وربما لغيرهم أيضا من الأمم التى تقدمتهم . خذ مثلا ، فى باب المعلومات العامة المتعلقة بالعلوم السابقة على عصر اليونان ، ما يلى من الكتب والبحوث :

---

(١) الطابوق هو الآجر (طين مشوى يبنى به فى العراق) .

(٢) وسع سارتون هذه الفكرة فى مقال له عنوانه : أجريبا ، فونتـــانا وبيجافتا . نصب مسلة الفاتيكـــان سنة ١٨٥٦ م .

Agrippa, Fontana and Pigafetta. The Erection of the Vatican Obelisk in 1856. (*Archives Internationales d'Histoire des Sciences*, No. 8, 1949, pp. 827 - 54, 14 figs.)

— الرياضيات قبل اليونان .
— نصوص مسمارية فى الرياضيات (ثلاثة أجزاء) ، بالألمانية .
— نصوص مسمارية فى الرياضيات ، بالانجليزية .
— نصوص بابلية فى الرياضيات .
— أوراق البردى التى اكتشفها رند .
— الطب فى أشور وبابل .
— أوراق البردى فى الجراحة ، وهى التى اكتشفها أدوين سميث .
— أوراق البردى التى اكتشفها ايبرس [١] .

هذا عدد من العناوين البارزة ، وهنالك عدد آخر منها يمكن الاستشهاد به فى هذا المقام . على أن هذه المراجع قد ذكرت هنا لتقنع القارىء بأن الحكم المتعلق بما نحن بسبيله من قدم العلوم الشرقية ، وأنها سابقة على عصر اليونان ، قائم على معرفتنا الواسعة بذلك . ان معرفتنا بالعلوم السابقة على عصر اليونان كبيرة بلا ريب ، ولكن معرفتنا بانتقال هذه العلوم الى اليونان جزئية لسوء الحظ وناقصة أيضا .

ان العلم اليونانى لم يكن بدءا لحركة علمية ، ولكنه كان ذروة لجهود علمية ترجع الى ما قبل ألفى عام قبل ذلك . وان لدينا رسائل مصرية فى الرياضيات والطب تعود الى القرن السابع عشر ق . م ، ولكنها

---

(١) Otto Neugebauer *Vorgeschichte Mathematik* (Berlin). 1934; *Isis* 24: 151-53); *Mathematische Keilschrifttexte* (3 vols., Berlin 1935—37; *Isis* 26: 63— 81; 28: 490—91); *Mathematical Cuniform Texts* (New Haven, 1943; *Isis* 37: 96-97, 231).

François Thureau-Dangin : *Textes Mathématiques Babyloniens.* (Leiden 1938, *Isis* 31: 394-425).

Arnold Buffum Chace: *The Rhind Mathematical Papyrus.* (Oberlin 1927-29, *Isis* 14: 251-55).

Georges Contenau: *La Médecine en Assyrie et en Babylonie.* (Paris 1938, *Isis* 31: 99-101).

James Henry Breasted: *The Edwin Smith Surgical Papyrus* (Chicago 1930, *Isis* 15: 355-67).

B. Ebbell: *The Papyrus Ebers.* (Copenhagen 1937, *Isis* 28: 126-31).

مستقاة من كتابات أسبق عليها ببضعة قرون آخر . وقد تعود أطباؤنا ، اذا ذكروا أبو قراط [١] ، أن يسموه « أبا الطب » ، ولكن قد يكون من الخير لهم أن يذكروا أن أبو قراط ليس رأس الطب ، ولكنه يقف فى منتصف تاريخ الطب بين امحوتب [٢] وبيننا . وكان امحوتب هذا وزير فرعون زوسر وطبيبه ، وقد اشتغل بالطب فى مصر فى القرن الثلاثين قبل الميلاد .

لم ينشأ العلم فى اوربا بل فى آسيا

وكذلك يحسن أن نعرف أن أقدم العلماء الطبيعيين اليونانيين (دارسى الطبيعة) [٣] لم يكونوا فى أوربا ، بل على الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى ، وفى الجزر القريبة من تلك الشواطىء . أجل ، انهم كانوا ينتمون الى جاليات [٤] يونانية ، ولكنهم كانوا متأثرين بالشرق . ثم ان اليونانيين أنفسهم كانوا ينظرون جنوبا أو شرقا للبحث عن مهد المعرفة والحكمة ، وسافر كثيرون من هؤلاء الى مصر وبابل لطلب العلم . وأنا سميت هؤلاء القوم يونانيين ، ولكن هذه التسمية تنقصها الدقة ، فان شعوب الشرق الأوسط وشعوب الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط تمازجت منذ مطلع القرن العشرين ق . م مرارا وتكرارا .

على أن آراءنا فى هذه الأمور غشيها الظلام بما افتعله المؤرخون القدماء عند تأريخهم للحروب الفارسية اليونانية من التنويه بأعمال اليونانيين المجيدة فى معركة ماراثون البرية (٤٩٠ ق . م) ، وفى معركة سلاميس البحرية (٤٨٠ ق . م) . ويمكن أن توصف هذه الحروب بأنها صدام بين الاستبداد الآسيوى والشورى اليونانية ، ولكن من

---

(١) أبقراط أو ابو قراط أو بقراط (Hippocrates) طبيب يونانى قديم مشهور .

(٢) Jamieson B. Hurry, *Imhotep, the Vizir and Physician of KingZoser* (2 ed. Ed., London 1928, *Isis* 13: 373-75, 14: 226)

(٣) الفلاسفة الطبيعيون أقدم فلاسفة اليونان الذين وصلت الينا اخبارهم . (ع . ف) .

(٤) الجالية جماعة من قوم تعيش فى أرض قوم آخرين . (ع . ف)

التضليل أن نتحدث عنها كأنها حرب بين الشرق والغرب . فالفرس كانوا حلفاء للفينيقيين ، والفينيقيون كانوا بدورهم متأثرين بالمدنية الغربية ، كاليهود فى يومنا هـذا ؛ بينما كان كثير من اليونانيين قد اكتسبوا الصبغة الشرقية . ثم ان هذه الحروب لم تكن أيضا نزاعا بين الآريين والساميين ، فالفرس عريقون فى الآرية كاليونان أنفسهم ، بينما حلفاؤهم الفينيقيون كانوا ساميين . وكذلك كانت الامبراطورية الآخامانية (الفارسية) كتلا متراكمة من جميع السلالات والأمم العائشة فى الشرق الأوسط ، وهى التى تمازجت مرة بعد مرة مع مرور ألوف السنين . أما اللغة العامة فى تلك الامبراطورية الفارسية الآرية فكانت الآرامية ، وهى لغة سامية .

ويجب علينا أن ننظر دائما الى الشرق الأوسط على أنه أرض تلتقى فيها الطرق وتفترق ، وقد اتفق لبعض الناس أن دعوا بلادنا (الولايات المتحدة) بوتقة [1] ؛ ولكن هذا الوصف ينطبق انطباقا أشد على الشرق الأوسط ، مع فارق واحد ولكنه عظيم جدا ، هو أن أمريكا قامت بهذه العملية نحو مائتى عام أو تزيد قليلا ، بينما الشرق الأوسط قد شهد هذا التمازج مدة تزيد على ذلك عشرين ضعفا .

تأثير الشرق على اليونان

واذا نحن رجعنا الى العلم اليونانى وجدناه قد تشرب بمؤثرات شرقية مختلفة ، من ايرانية وبابلية ومصرية . هذه المؤثرات يمكن أن يتتبعها الباحث فى كتب افلاطون [2] فضلا عن كتاب يونانيين آخرين حيث الأثر الشرقى عندهم أشد وضوحا [3] . وانه ليفيدنا أن نستعرض جميع

---

(١) البوتقة أو البودقة اناء تصهر فيه المعادن ، كناية عن امتزاج الشعوب . (ع . ف) .

(٢) أفلاطون فيلسوف يونانى عظيم عاش من ٤٢٩ الى ٣٤٠ ق . م (ع . ف) .

(٣) لمعرفة مدى الاثر الايرانى راجع :

Joseph Bidez et Franz Cumont: *Les Mages Hellénisés* (2 vols. Paris 1938, *Isis* 31: 458-62), J. Bidez: *Eos ou Platon et l'Orient* (Bruxelles 1945, *Isis* 37: 185), F. Cumont: *Lux Perpetua* (Paris 1949).

واما لمعرفة مدى الاثر المصرى فراجع الحاشية ص ٢٣ مع متنها ثم ارجع الى : =

الآراء الشرقية الملموحة فى تآليف اليونان العلمية ، غير أن عملا مثل هذا يحبسنا زمناطويلا ، ثم لا تكون أكثر من اشارات عارضة تتعلق بموضوعنا.

ولكن بدلا من أن نفعل ذلك نرى أن ندع الماضى البعيد ، ثم نقفز فى ثنايا العصور حتى نصل الى القرن السادس للميلاد ، لنقف عند العام المحتوم ، ٥٢٩ م ، حينما أغلق جستنيان جامعة أثينا ومنع تدريس الفلسفة، فى اليونان كلها . ثم فتح دير جبل كاسينو فى ايطاليا لاحتضان الفلسفة . ولن يستطيع أحد أن يجد تاريخا أجدر من هذا ، ليكون الحد الروحى بين عصرين تواضع الناس على أن يسموهما العصر القديم والعصر الوسيط . فى ذلك الزمن كانت الفرق [1] المسيحية فى الشرق الأوسط : المارونية ، والنسطورية ، والجريجورية،[2] والقبطية ،والحبشية ، واليعقوبية (والأربع الأخيرات يقول أصحابها بالطبيعة الواحدة فى المسيح [1]) قد ثبتت واتسعت الشقة بينها وبين الكنيسة العامة . على أن الذى كان أسوأ من ذلك أن تلك الكنيسة العامة تمزقت بالانشقاق الذى كان يزيد شيئا فشيئا بين الكنيسة البيزنطية أو الأرثوذكسية فى الشرق (اليونان) وبين الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب (ايطاليا) . وبما أن القارىء قد يكون أقل علما بالانشقاق الأول فى الكنيسة منه بحركة الاصلاح الدينى البروتستانتية ، فان الملحوظات التالية يمكن أن تعينه على فهم ذلك ، وخصوصا فيما يتعلق بالتعبير الآنف الذكر : القائلين بالطبيعة الواحدة فى المسيح .

Robert William Rogers (1864-1930) : *Cuneiform Parallels of the Treatment*. (New York 1912). T. Eric Peet (1882-1934) : *Comparative Study of the Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia, Egypt's Contribution in the Literature of the Ancient World*. (London 1931). James Henry Breasted (1865-1935) : *The Dawn of Conscience*. (New York 1933. *Isis* 21 : 305-16).

(١) فى الأصل الكنائس .

(٢) الفرقة الجريجورية منسوبة الى جريجوريوس بطريك الاسكندرية من أتباع أريوس . وكان أريوس اسكندريا أيضا ، وكان يقول ان المسيح ليس بآله ، بل هو مخلوق من لا شىء ، الا انه أول المخلوقات ، والخلائق جميعا اخوته . وكان جريجوريوس يقاوم الكاثوليكيين حتى قتل عام ٣٤٨ م . راجع كتاب ديوان البدع للمطران جرمانوس فرحات ، رقم ٥٠ ، ٥٦ (ع . ف) .

نشأت الفرق الأولى فى النصرانية من اختلاف الآراء فى طبيعة المسيح ، أهو انسان أم اله ؟ أم أن له طبيعتين ، بشرية وآلهية ، مفترقتين أو ممتزجتين ؟ فالرأى المسيحى المعتبر فى المسيحية صوابا كان يقول بأن فى المسيح طبيعتين (بشرية والهية) ، ولكن فى أقنوم (شخص) واحد . أما النساطرة أتباع نسطور الاسكندرى فادعوا أن للمسيح طبيعتين وأقنومين (شخصين) [1] ؛ ولقد حكم مجمع أفسوس عام ٤٣٥ م على آراء نسطور بأنها كفر . على أن القائلين بالطبيعة الواحدة قد تمسكوا بالطرف الآخر من حبل الجدل وقالوا بأنه ليس فى المسيح الا طبيعة واحدة وأقنوم (شخص) واحد ، وهؤلاء أيضا حكم عليهم مجمع خلقدونية بالكفر عام ٤٥١ [2] .

الستار الحديدى قديما وحديثا

يتكلم الناس اليوم عن الستار الحديدى الذى يفصل بين أوربا الشرقية الخاضعة للنفوذ السوفيتى وبين أوربا الغربية الواقعة تحت النفوذ الانجليزى الأميركى . هذا الستار كان موجودا فى أثناء حقبة طويلة من العصور الوسطى بين العالمين اليونانى واللاتينى [2] ، ولما أشرف القرن الثامن الميلادى على نهايته كان الانفصال بين الكنيستين الشرقية والغربية قد أصبح تاما . وكانت العداوة بين اليونان واللاتين قد أصبحت شديدة الى درجة أن اللاتين لما أرادوا فيما بعد أن يستقوا من ينابيع الحكمة القديمة فضلوا أن يتعلموا اللغة العربية لا اللغة اليونانية [3] .

---

(١) ذكر المطران جرمانوس فرحات فى كتاب « ديوان البدع » (رقم ٨٩) عن نسطور أنه قال : « ان مريم العذراء ليست بوالدة الله ، لأجل أن الله لا يمكن أن يولد من انسان ... وحاشالى أن اعبد آلها ابن شهرين ... وكما أن المسيح فيه طبعان فكذلك هو ابنان ومسيحان : أحدهما اله من الله الاب ، والآخر انسان من أمه مريم . وهذا كان يسمى العذراء والدة المسيح لا والدة الله » (ع . ف) .

(٢) راجع فى ذلك أيضا : Introd. 3,53-55, 1057, 1830.

(٣) سبق لى أن عالجت هذه المسألة مرارا ، أى « الوحدة والتباين فى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط » .

غير أنني أستبق الآن حوادث قصتي . يجب أن نقف هنا لحظة لأسرد عليكم ، بايجاز على كل حال ، حادثة واحدة من أخصب الحوادث الكبرى في تاريخ الانسانية ، وهي ظهور الاسلام . ولكن لكي نستطيع ذلك يجب أن ننتقل الى بقعة من أقل بقاع الأرض شهرة، عندنا نحن الأميركيين ، أي الى بلاد العرب . من أجل ذلك كان وصف هذه البلاد أمرا مرغوبا فيه في هذا الموقف . غير أنني سأوفر عليكم هذا العناء ، على كل حال ، اذ أعتقد أنكم تعرفون الأمور الأساسية في الموضوع . ومن المرجح أن نفرا منكم حاضرون بيننا يعرفون عن شبه جزيرة العرب أكثر مما يمكن لي أنا أن أعرفه . لقد كانت شبه جزيرة العرب الى زمن قريب تعد بقعة من أشد البقاع محلا على وجه الأرض ، ولا غرو فالقسم الأكبر منها أرض صحراوية واسعة مهجورة لا أنيس فيها . أو ليس غريبا اذن أن يتوجَّب على الانسان الذهاب الى مثل هذا المكان المهجور ، ليستنزل وحيا الهيا جديدا ! ولكن هذه القصة معروفة بينكم بلا ريب ، ويكفيني في هذا المقام أن أعيد الى أذهانكم بضع ذكريات .

ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشي (صلى الله عليه وسلم) في مكة نحو ٥٧٠ م . ولقد تألم جدا لحال قومه ، ولما كانوا فيه من الجهل والطمع والقسوة ، وافتراق الكلمة وهجر الفضائل . ثم صدع بالدعوة نحو عام ٦١٠ ، وعمره يومذاك أربعون سنة ، بعد أن عظمت خبرته بالناس ، وامتلأ صدره بايمان متقد وطيد . في ذلك الحين كانت مكة المركز الرئيسي للتجارة في شبه جزيرة العرب . أما أهلها — وفيهم عدد كبير من الأغنياء ، ومن الذين رزقوا حظا من الجدل — فقد كانوا على شيء كثير من العناد . وسلك أهل مكة مع محمد (صلى الله عليه وسلم) كما سلك أكثر الأقوام مع أنبيائهم ، أن نصحه المشرب بالتهديد الضمني كان يبدو مناقضا لمصلحتهم التجارية . ومع أنهم لم يكونوا من قبل قد فتحوا له قلوبهم قط ، فانهم بعد أن خرج نصحه لهم الى التهديد السافر ، أصموا عن كلامه آذانهم مرة واحدة .



وفى سبتمبر من عام ٦٢٢ ، بعد أن رأى الرسول محمد أنه لم يبق ثمة فائدة من الصبر على عناد المكيين ، هاجر الرسول باتباعه الى مكان آخر ، يبعد نحو مائتين وعشرة أميال (١) شمالى مكة ، الى يثرب التى أصبحت تدعى منذ ذلك الحين مدينة الرسول ، أو المدينة اختصارا .

هذه الهجرة كانت حدا فاصلا فى حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفى تاريخ الدين الجديد ، لأنها البدء الرسمى للاسلام دينا ودولة معا . ثم لم يطل الأمر بعد ذلك حتى جعلت الهجرة مبدأ للتقويم الاسلامى ، أيام الخليفة الثانى عمر بن الخطاب .

وكان محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل اخوانه الأنبياء السابقين ، ولكن كان أعظم منهم نجاحا بما لا قياس فيه . ولقد كانت الآيات الكثار ، التى أوحى بها الله اليه بلسان عربى مبين ، يحفظها أصحابه غيبا ، أو يدونها كتبة الوحى منهم بعد نزولها مباشرة . ثم ان هذا الوحى الذى يتألف منه القرآن المجيد ، جمع فيما بعد فى مصحف واحد ؛ جمع مرتين : مرة عام ٦٣٢ م أيام الخليفة الأول أبى بكر الصديق ، باشراف زيد بن ثابت ، أحد كتبة الوحى وكبار الصحابة ؛ ثم أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، باشراف زيد بن ثابت نفسه للمرة الثانية والأخيرة نحو عام ٦٥٠ م . وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة ، رتبت ترتيبها الحالى فى الجمع الثانى ، فجاءت السور الطوال منها أول المصحف ، والسور القصار آخره على التدريج ، ما عدا فاتحة الكتاب ، وهى قصيرة ، ولكنها جعلت السورة الأولى ، وما عدا سورا قصارا غيرها أيضا جاءت قبل غيرها من السور الطوال (٢) . وسورة الفاتحة يقرأها المسلم فى صلاته كما يقرأ المسيحى أعداد « أبانا » . والقرآن أقصر من العهد الجديد (٣) ، ولكنه يختلف عن العهد الجديد اختلافا كبيرا . آنه

---

(١) نحو ٣٦٦ كيلومترا . (ع . ف) .

(٢) ترتيب سور القرآن الكريم أمر توفيقى يرجع الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى جعل آيات السور على الترتيب الذى هى عليه وفى جعل السور مرتبة ترتيبها الحالى (ع . ف) .

(٣) المقصود بالعهد الجديد الأناجيل الأربعة : انجيل متى ، وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا . وهى أربع روايات لحياة المسيح ، ثم أعمال الرسل ، ثم رسائل مار بولس وبطرس وسواهما ، ثم رؤيا يوحنا اللاهوتى . (ع . ف) .

يتضمن أركان الايمان وأجزاء من القصص ، كما يتضمن أمـــور الفقه والتشريع والعبـادة . وأروع أقسامه بالغة فى أسلوبها البديع [١] . أما الرسول نفسه فكان زاهدا [٢] ، وفقيها ومشرعا ، ورجلا عمليا ، وأحد أعاظم الشعراء [٣] فى تاريخ الأدب العالمى ، لو جاز لنا أن نعده كذلك .

الاسلام وأركانه

أما اسم هـذا الدين الجديد فهو الاسلام ، ومعنى « الاسلام » أن يسلم الانسان نفسه الى الله . وأما اسم أتباعه ، فكان مشتقا من المصدر نفسه : « المسلمون » . وقد كان الاسلام — كما أوحى به الى رسول الله ، وكما صدع به رسـول الله — دينـا بسيطا نقـيا . ولكن اتفـق أن علقت به — كما اتفق لغـيره من الأديان — شوائب من الاسرائيليات [٤] التى أتى بها قاصرو العقول ، أو من الجدل الذى أغرم به الفقهاء الظاهريون ، الذين يتمسكون بظاهر الألفاظ ، ويدعون الغوص على مقاصد الكلام ومعانيه . ولكن الاسلام فى شكله الأصلى أمر باهر .

وأركان الاسلام الخمسة هى :

١ — الشهادة أو اعلان الدخول فى الاسلام ، وهى قول : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

---

(١) أسلوب القرآن واحد ، وما الاختلاف الذى يخيل الى غير العربى سوى تصريف الكلام حسب الأغراض بين وعد ووعيد ، أو قصص وتشريع ، الخ . وهذا مطابق لتعريف البلاغة .

(٢) فى الأصل متصوف .

(٣) لا يوصف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر ، لقوله تعالى : وما علمناه الشعر وما ينبغى له . ولكن عبقرية الشعر كانت موجودة فى رسول الله ، وان كان رسول الله لم يلجأ الى نظم الشعر ، لأنه كان مشغولا عنه بما هو أعظم منه ، بالرسالة . هذا التعليل هو للجاحظ ، وقد ورد فى البيـــان والتبيين ، تحقيـــق حسن السـندوبى ، القاهـرة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م . الجزء الثالث ، ص ١٤١ — ١٤٢) . وقد سبق لى أن نشرته كاملا فى مجلة الاولى ، بيروت ، السنة الثالثة ، العدد الاول — ٨ شعبان ١٣٥٩ و ١٠ ايلول ١٩٤٠ ، الصفحة العاشرة (ع . ف) .

(٤) الاسرائيليات حكايات وأخبار خرافية ، ومبالغات فى وصف المغيبات دسها نفر منافقون من اليهود (بنى اسرائيل) الذى أسلموا ، أو تظاهروا بالاسلام على الأصح ، فى التاريخ والفقه . غير ان علماء المسلمين عرفوا ذلك منذ الزمن القديم ، ولكن بما أن هذه الاسرائيليات تتفق مع عقلية العـوام ، فقد ذاعت بينهم ، ثم خدع بها ايضا نفر من المسلمين . (ع . ف) .

٢ — اقام الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة .

٣ — الزكاة ، وهى الصدقة المقنعة التى يجب أداؤها على المسلم الميسور لمختلف المحتاجين من المسلمين .

٤ — صوم رمضان .

٥ — الحج الى مكة مرة واحدة فى العمر على المستطيع .

وليس فى أركان الاسلام هذه شيء ينفر منه غير المسلم ، ونظرا الى بساطة هذه الفرائض وقلة عددها ، لم يكن ثمة حاجة الى ادخال اصلاح ما عليها حتى تثبت العقيدة الاسلامية فى نفس كل مسلم أو تزيد قوة بعد ثبوتها ، ليسهل انتشارها فوق ما ثبتت وقويت وانتشرت فعلا . ان القيمة العملية للعقيدة الاسلامية لها دليل ذاتى من قوتها ورسوخها وانتشارها ، ليسهل فى أفريقية ، وفى جزائر الهند الشرقية — جاوة وسومطرة — ، وسواها من الأماكن .

وكان الرسول رجلا نزر العلم بالكتابة ، ان لم يكن أميا تماما [1] ، ولنكه كان ذا عبقرية عظيمة . ولقى الرسول أثناء رحلاته بالقوافل للتجارة فى شبه جزيرة العرب ، جماعة من اللاجئين اليهود والنصارى كان لهم من الثقافة الروحية ما لم يكن للبدو . وبما أن الرسول كان شديد الاهتمام بالدين ، فقد كان يتحدث الى هؤلاء . وهكذا نجد أن الرسول كان على علم بأمور كثيرة من التوراة والانجيل ، وبأشياء كثيرة من العقيدتين اليهودية والنصرانية ؛ وفى القرآن الكريم اشارات عديدة الى ذلك : وكذلك نجد فى القرآن عددا من قصص التوراة أيضا ، مع الفارق المنتظر لاختلاف الأحوال بين العصرين [2] . والاسلام يمكن أن يعد اقتباسا من اليهودية

---

(١) ورد فى كتب الحديث والسير ما يفيد بأن الرسول لم يكن يجهل أشكال الحروف ، ولكنه كان لا يعرف الكتابة ولا القراءة (ع . ف) .

(٢) كان كفار مكة يقولون للرسول ان أمورا كثيرة مما يرد فى القرآن يعرفها أحبار اليهود ويخبرون بمثلها ، فانزل الله فى الرد عليهم قوله (سورة الشعراء — ٢٦ : ١٩٢ — ١٩٧) : « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين . وانه لفى زبر (كتب) الأولين ، او لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ؟ هذا مع العلم بأن ما ورد فى القرآن من العقائد اليهودية والمسيحية لا يشبه ما عند النصارى واليهود اليوم ، ولا ما فى التوراة والانجيل . (ع . ف) .

أو النصرانية ، ولقد عده بعضهم كذلك [١] . ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) عـرف أنبياء بنى اسرائيل واحترامهم ، وعرف مـريم البتول والمسيح ، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين [٢] .

تاخر المسلمين حجب الاسلام

فالاسلام ، حسب هذا الرأى ، مكمل لليهودية وللنصرانية . الا أن الدارسين العدول يقولون ان الاسلام ثالث الأديان الكبرى التى يتمم بعضها بعضا ، والتى ترجع الى مجموع واحد . والاسلام على أحسنه — كما يبـدوا فى آثار السلفيين [٣] أى الفقهاء الذين يريدون أن يرجعوا بالاسلام الى ما كان عليه فى أيام « السلف الصالح » من الصفاء ، أمثال ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده ، يذكّر الباحث المسيحى بالمذهب الوحدانى الحديث [٤] . أما فى أسوأ مظاهره فقد علق به من

---

(١) ان القرآن نفسه يثبت صلة الاسلام بالشكل الأول الصـافى من اليهودية والمسـيحية حينما يقول : « ملة أبيكم ابراهيم ، هو سـماكم المسلمين » (سورة الحج — ٢٢ : ٧٨) . فلما بدل اليهود دينهم جاءت النصرانية ، ولما بدل النصارى دينهم جاء الاسلام ، لاتمام ما لم يكن تاما فى اليهودية والمسيحية . (ع . ف) .

(٢) « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٠) . هذه الآية هى فى رأى اليهود والنصارى مبرر للزعم بأن الاسـلام بدعة يهودية أو مسيحية ، لأن ما يقال عن الاسلام أنه تكميل لليهودية والنصرانية هو فى رأى اليهود والنصارى انحراف . وكذلك نحن واجدون فى كتـاب الحديث المشهور (مشكاة المصابيح) قولا للرسول يدل على أن مريم حملت بالمسيح من غير اتصال ببشر(*Introd.* 3 : 1066) . انتهت حاشية المؤلف .

ليس ثمت ضرورة الاسـتشهاد على هـذا بغير القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يثبت أن مريم حملت بالمسيح من روح الله ، وهو يوجب على المسلمين هذا الاعتقاد . أما الكنيسة الكاثوليـكية فانهـا لم تجعل هـذا الأمر من قضايا الايمان عندها الا بعد سنة ١٨٥٤ م ، اى بعد نزول سورة مريم بنحو ألف ومائتين وخمس وثلاثين سنة . (ع . ف) .

(٣) فى الأصل Puritans

(٤) المذهب الوحـدانى Unitarian مذهب مسيحى ينكر اتبـاعه التثليث .

الخرافات أكثر مما علق ببعض أشكال العبادة فى المذاهب الكاثوليكية والبيزنطية . على أن هذا لا صلة له بالاسلام نفسه ، ولكنه راجع الى أن أفراد الطبقات الجاهلة من عوام المسلمين هم نسبيا أكثر عددا وأشد تأخرا وأقل تثقيفا من جماهير العامة فى ايطاليا وأسبانيا مثلا .

سوف ارجع الى الكلام على الاسلام وعلى ما أحدثه من النتائج العجيبة بعد قليل ، ولكن يجب على أولا أن أدل بأمثلة على عظمة الرسول من طرق مختلفة حتى أثبت صحة رأيى .

عبقرية اللغة العربية

ففى المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته ؛ فكان من الطبيعى أن يعلق عليها أهمية كبرى . أن الذين لا يعرفون سوى لغتهم — وخصوصا اذا كان التعليم يقل بينهم — يميلون عموما الى أن يعدوا لغتهم هى الأساسية أو الوحيدة . ثم أن الوحى نزل على الرسول باللغة العربية [1] ، (ونحن لا ندهش اذا سمعنا ذلك) . وهكذا كانت العربية لغة الله ، ولغة الوحى ، ولغة أهل الجنة . ولقد أكد الرسول وجوب قراءة القرآن باللغة العربية ، فكان من نتائج ذلك الخيال، ثم من نتائج هذا الاتجاه العقلى الواحد ، فى التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية ، ان أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة فى العالم ، واحدى الوسائل الأساسية للثقافة فى العصور الوسطى ، وهى الى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة فى جميع بقاع الأرض .

وليس بين هذه الفكرة — أى فكرة أن القرآن نزل بلسان عربى مبين — وبين الكلمات التى ترجع الى أصل أجنبى فى القرآن تناقض ، كما ذكر العلماء المسلمون منذ القرن الخامس عشر للميلاد [2] ، كالسيوطى

---

(١) راجع سورة الشورى — ٤٢ : ٧ « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » ٠ والآيات التى تؤكد صلة الوحى باللغة العربية كثيرة ٠ (ع ٠ ف) ٠

(٢) ورد ذكر ذلك قبل القرن الخامس عشر للميلاد ، ألف فيه الثعالبى والقرطبى ، وذكره المفسرون ٠ (ع ٠ ف) ٠

(١٤٤٥ — ١٥٠٥ م) ، أو كما ذكر آرثر جفرى فى كتابه : « مفردات القرآن الداخلية » [١]. لقد قسم السيوطى الكلمات الدخيلة فى القرآن أحد عشر قسما : الكلمات الحبشية ، والفارسية ، واليونانية والهندية ، والسريانية ، والعبرية ، والنبطية ، والقبطية ، والتركية ، والزنجية ، والبربرية . أما جفرى ، فيشير الى ما لا يقل عن خمس وخمسين لغة ولهجة دخل شيء من كلماتها فى القرآن الكريم ، وانه لمما يلفت النظر أن تكون لغة معزولة عن الاتصال بالعالم الخارجى كاللغة العربية اشتملت منذ القرن السابع للميلاد على كلمات أجنبية بهذه الكثرة ؛ لكن لغة قوم رجل وقوم تجار فى الوقت نفسه — كما كانت اللغة العربية — لا يمكن أن تكون معزولة تماما . ان العرب كانوا يتجرون مع السريان ، والفرس ، والأحباش . ثم ان الذين كانوا منهم ذوى اتجاه دينى خاص ، كالرسول مثلا ، كثيرا ما كانوا يجدون فرصا مؤاتية للتحدث مع اليهود والنصارى . كل هذه الاتصالات تبدو الاشارة اليها فى القرآن ، وعلينا نحن أن نقر طبعا بأن الرسول كان يعلم بوجود لغات دينية كالعبرية ، والسريانية ، واليونانية [٢] .

وهنا اسمحوا لى أن أستطرد قليلا ، وأن أبدى ملحوظة هى أن نشوء اللغات وتطورها — وهنالك آلوف منها — انما هو أحد الأسرار الغامضة فى الحياة . ان بعض هذه اللغات روائع من العبقرية ، ومن المنطق المتسق ، ومن التشابك فى الوقت نفسه . وانه لمن المستحيل أن نفهم كيف نما هذا البناء المتشابك الجميل لهـذه اللغات . ذلك لأن نمو اللغات خارج عن نطاق الشعور الى حد بعيد . ان اللغات الطبيعية كانت موجودة قبل أن يفكر الانسان بالنحو أو باللغة أيضا ، وبزمن طويل . ولا ريب أبدا فى أن روائع الأدب اليونانى كانت قـد دونت حينما وضع كتاب النحو

---

(١) Arther Jeffery : *The Foreign Vocabulary of the Qur'an*. (Gaekwad's Oriental series, vol. 79, Baroda 1938).

(٢) لاريب فى أن العـرب فى الجاهلية عرفوا بوجود لغات كثيرة ، وعرفوا شيئا منها ورد في الشـعر الجاهلى . ولما زعم مشركو مكة أن بشرا يعلم الرسول وينقل اليه أخبار الماضى ، نزل قوله تعالى (النحل ١٦ : ١٠٣) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين . (ع . ف) .

الأول . ان جمال كل لغة يمكن أن يحلل وأن يوصف ، ولكن لا يمكن أن يعلل أكثر مما يمكن أن نعلل جمال عصفور ما أو زهرة ما . اننا فى مثل هذه الأحوال يمكن أن نعجب مما نرى وأن نقول : « ما شاء الله »[1].
ولقد اتفق (ولم يكن الرسول ليستطيع ذلك لو لم يكن مؤيدا بقبس من الوحى) أن اللغة الوحيدة التى عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات فى الوجود . ان خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جدا ، ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق يسهل ايجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج اليه كل انسان ، على نظام معين . لنأخذ مثالا على ذلك الجذر س ل م : سلم معناها : نجا ؛ حيا ، ألقى السلام أو التحية ؛ سالم : دخل فى السلم ؛ أسلم : انقاد وخضع ، ومنها الاسلام والخضوع لله ؛ تسلم : أخذ شيئا من يد غيره ؛ السلام : التحية ، والسلم خلاف الحرب ؛ والسليم الصحيح غير المريض ؛ التسليم : الرضا والقبول ؛ الاستلام لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد ، التقبيل . وهنالك مسلم ، ومتسلم مسالم وغيرها مما يعيا أحيانا على الحصر . ثم أن الاشتقاق يجرى على نظام معين ، حتى أن القارىء اذا مرت به صيغة جديدة ، فانه يفهم معناها من القرينة . وأن دارسى اللغة العبرية ليستطيعون أن يفهموا هذه الخاصة فى اللغة العربية كدارسى اللغة العربية نفسها ، ولكن الكلمات العبرية أقل طواعية للتصريف من الكلمات العربية . وهكذا يبدو لنا كأنما هذه اللغة التى كان يتكلمها البدو ، قبل القرن السابع للميلاد ، قد كان مكتوبا لها أن تصبح أداة لتبليغ الدين ونشر العلم فى العالم .

لغة القرآن

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت ، بهذا التحديد ، كاملة .

وها نحن هنا أيضا أمام اتفاق عجيب ، فان الرسول ، مع أنه أمى ، كان

---

(١) استعمل الدكتور سارتون ، فى النص الانجليزى ، التعبير العربى : « ما شاء الله » (ع . ف .) .

يملك ناصية اللغة [1] ، اذ آتاه الله بيانا ، ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحى الالهى أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفتاته ، وأن تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة ، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد. غير أن هذا كله لم يمنع من نشوء لهجات متعـددة للتخاطب العادى ، وخصوصا حينما أصبح أبناء الأمم المختلفة يتكلمون العربية . ولكن القرآن الكريم جعل من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة .

الحج عامل موحد ورحلة علمية

أما فى المقـام الثانى فقد جعل الحج واجبا على كل مسلم مستطيع مرة واحدة على الأقل فى العمر ، وقد كان الحج أمرا سهلا نسبيا لأولئك الذين يعيشون ، كالرسول ، فى شبه جزيرة العرب (ولم يكن أحد يومذاك يفكر بغير هؤلاء) . [2] : كان الحج سفرا غير بعيد الشقة ، وفى جو كان أولئك المسلمون الأولون قد ألفوه . ولكن لما انتشر المسلمون فى بقعة واسعة من الأرض ، أصبح الحج آمـرا فيه شىء كبير من المشقة ، ثم أصبح القيام به عاما واحـدا أو أكثر من عام ، ينطوى على مصاعب لا تصدق ، وعلى أنواع من الحرمان من أسباب الرفه . ومع ذلك فان عددا كبيرا من الناس — وهذا يبعث حقا على الدهشة — كانوا يقومون بالحج على الرغم من كل عائق . أما الرؤساء فان أكثرهم كان يحج فى أغلب الأحيان أكثر من مرة ، مثال ذلك أن أبا الفداء الملك المؤيد صاحب حماة

---

(١) جاء فى الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسـلم قال : « أوتيت جوامع الكلم » ، وقال : « أنا أفصح العرب ، بيد انى من قريش » . ولا غرو فان الله اختاره لرسالة عظيمة و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (القرآن الكريم ، سورة الأنعام ــ ٦ : ١٢٤ . (ع . ف) .

(٢) الحق أن الاسلام أراد عند فرض هذا الركن من أركان الاسلام فى الناس كلهم فى بقاع العالم أجمع . وهذا ظاهر فى آيات كثار من القرآن الكريم ومشهور لا فائدة من الاستشهاد عليه هنا . (ع . ف) .

حج ثلاث مرات على الأقل . وأما الرحالة العظيم ابن بطوطة [1] فقد حج ست مرات . وفى أثناء الموسم الذى خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تبدوان وكأنهما مكان انعقاد مؤتمر دولى ، وهنالك كان المهتمون بالقضايا المتشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء . ولم يكن المثقف يجتمع فقط الى الحجاج من كل جنس ، ويزيد معلوماتـه بدار الاسلام (بالعالم الاسلامى) ، ولكن الاحتفالات والحماسة البالغة التى كانت تنتج من ذلك كانت كلها تثبت ايمانه بدينه وبوحدة أمته .

ولم يكن بوسع أحد أن يتخيل وسيلة أبسط ولا أشد أثرا من الحج ، لضمان الوحدة الروحية بين المسلمين . ولقد سبق الاسلام الى فهم تلك الوسيلة وتحقيقها قبـل أن يدعو انتشار المسلمـين فى بـلاد أجنبية وأجـواء غـريبة الى ازدياد الحـاجة الى هـذه الوحـدة زيـادة بالغة ، وأن الدارس للثقافة العربية ليدهش من السرعة التى كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الاسلامى . من ذلك مثـلا أن وجوه الفلسفة والعلوم المتضمنة فى رسائل اخوان الصفا — وهم جماعة اشتهروا فى البصرة منذ النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد — قد عرفت فى الأندلس بعد زمن قصير جدا . وكذلك عرفت آراء محيى الدين بن عربى الأشبيلى الأندلسى فى الشام بسرعة ، لأن محي الدين بن عـربى استقر — بعد أن حج — فى دمشق حيث توفى فى عام ١٢٤٠ للميلاد. أما فيما يتعلق بالعلماء فان الحج كان مساويا للرحلة فى طلب العلم فى العصور الوسطى ، ولتبادل الأساتذة بين الجامعات ، وما يشبه ذلك ، فى أيامنا هذه . ولكنه كان أهم من هـذه كلهـا ، لأن وسائـل الاتصال العلمى الأخـرى (كالصحف والمجلات) لم تكن قد عرفت بعد . ولقد كان بامكان طالب العلم أن يجمع فى سهولة بين الدراسة والحـج ، واذا كان يتاح له أثنـاء ذهابه وايابه أن يتوقف فى أماكن مختلفة مرات كثارا وطوالا بقدر حاجته ،

---

(١) عاش أبو الفداء فى النصف الاول من القرن الرابع عشر ، وابن بطوطة فى النصف الثانى منه . *Introd.* 3 : 794, 1616 .

وأن يجتمع الى أئمة العلم فى كل مـــدينة ، أو يجلس بين يدى الأساتذة المشهورين فى الجامعات المختلفة ، حتى انه كان بامكان الحاج أثنـاء حجه الطويل أن يتزوج مرة بعد مرة (كما فعل ابن بطوطة) ، وهكذا يتاح له أن يتصل بمصادر جديدة للمعلومات ، نتيجة اتصاله بأهل البلاد التى يتزوج فيها .

الصيام امتحان للايمان ووسيلة للتنظيم

وأما فى المقام الثالث فان فرض الصيام فى كل نهار من مطلع الفجر الى غياب الشمس شهرا كاملا كان امتحانا قاسيا لكل مسلم ، وخصوصا من البدو. ولكنه كان وسيلة بارعة لسبر غور الايمان فى صدر كل مسلم، ولتثبيت ذلك الايمان أيضا . أن التقويم الاسلامى قمرى خالص ، ولذلك لم تكن شهوره تعود فى كل فصل بعينه ، بل تدور مع العام من فصل الى فصل . وهكذا يأتى رمضان فى كل فصل من فصول السنة ، فاذا اتفق أن جاء فى فصل الحر كان الامتناع عن الشراب خاصة وعن الطعام شديدا على الصائم وقاسيا مؤلما ، وهـــذا يصدق خصوصا على أولئك الذين يقومون بأعمال يدويـــة جسمانية . على أنه يحسن هنا أن نزيد الى ما تقدم أن الأعمال التى تبطىء عادة فى فصل الصيف تزداد بالصوم بطئا حتى تبلغ حدها الأدنى ، اذا اجتمع الصوم مع قساوة الجو فى آن واحد . وهذه الملحوظة تصدق أيضا على الحج الذى يجب أن يتم فى شهر معين من شهور السنة القمرية ، فى ذى الحجة . أن هـــذه الفريضة تصبح أكثر مشقة اذا جاء ذو الحجة فى أشد فصول العام حرا . على أن هذا لم يؤثر قط على الحجاج الذين يسكنون البلاد البعيدة من أولئك الذين يجب عليهم أن يقضوا عاما كاملا فى السفر حتى يصلوا الى مكة المكرمة . أجل ، ان هذا قد جعل جهدهم السامى أكثر مشقة ، ولكن أكثر فضيلة أيضا ، وأجزل أجرا عند الله . ولا ريب أبـــدا فى أن الحاج يستطيع أن يعرف الفصل الذى يقع فيـــه شهر ذى الحجة من سنوات تتلو ، ثم يعين تاريخ حجه حسب ذلك . وهكذا يستطيع أن يختار موسم حجه فى أكثر الفصول

اعتدالا أو فى أكثرها شدة . ولقد كان فى كل حين نوعان من الحجاج : الناعمون الذين يفضلون أن يؤدوا فريضتهم هذه بأقل جهد ممكن ، ثم الصابرون الذين يؤثرون أن تزداد المصاعب والآلام أمامهم كيما يزدادون فضلا وأجرا .

وأدرك الاسلام الحاجة الى تنظيم شديد كيما يقوى ايمان المسلمين وتتطهر قلوبهم ، ومن أجل ذلك كان الصيام والحج من التمارين التى تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام . ان كثيرا من الكنائس المسيحية ضعفت الى درجة التفه ، لتساهلها ولفقدان التنظيم فيها ، ولقلة ما تفرضه على أتباعها . ان اتباع هذه الكنائس اذا دفعوا اشتراكاتهم (بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة) صاروا من المؤمنين حقا . ان مثل هذه الكنائس قد تكون غنية ، ومع ذلك فانها ، من حيث التأثير ، فى حكم المفقودة . فاذا كنتم تريدون اتباع كنائس ذوى ايمان ، فعليكم أن تفرضوا عليهم نظاما شديدا ، وأن تتطلبوا منهم تضحيات حقيقية . ولقد عرف محمد ذلك جيدا ، وهذه علامة ثانية من علامات عبقرية النبوة فيه .

شرور الخمر

وفى المقام الرابع ، حرمت الخمر فى الاسلام (فى القرآن وفى الحديث معا) ، قبل أن يكتشف العلم أن التقطير ينتج أشكالا مركزة من ذلك السم بسهولة ، أو قبل أن يستخدم الناس التقطير فى سبيل ذلك على الأقل . جاء فى القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (سورة المائدة — ٥ : ٩٠) . أما لفظ المسكر فى الاسلام فلا يطلق على الخمر وحدها بل على كل ما يخمل العقل ، لذلك قال الرسول: « كل ما أسكر فهو حرام » (البخارى ٧٤ : ٣) وقال أيضا (أبو داوود

---

(١) الميسر هو القمار ، الانصاب هى الأصنام ، والازلام قداح الاستقسام أى سهاما مكتوبا ، عليها نصائح مختلفة ، فاذا اراد أحد أن يفعل شيئا هاما سحب سهما ، ثم عمل بما هو مكتوب عليه ، والرجس هو الخبث والنجاسة .

٢٥ : ٥) : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . وهكذا كان الاسلام بعيد النظر ، فمنع شرورا لم تكن وجدت بعد ، أو لم تكن قد انتشرت هذا الانتشار الواسع ، أو لم تكن أصبحت خطرة بمقدار ما هى الآن . وهكذا لم يكن بامكان المسلم أن يتناول مسكرا وضميره مطمئن ، فاذا تعاطى مسكرا فانه يكون مرتدا أو منافقا .

وخلاصة القول ان الرسول (عليه السلام) جاء بدين توحيدى قبل أن يقوم فى النصرانية من يقول بشرعة التوحيد بتسعة قرون . ثم انه شعر بتفوق اللغة العربية ، من غير أن يكون عارفا بلغة غيرها . وكذلك نجح فى الدعوة الى ايجاد مركز ثقافى للاسلام فى الحج ، قبل أن وضح للعالم الى أى حد سيكون مثل هذا المركز هاما لنشر الاسلام بين أجناس كثيرة وفى أمم متعددة . ثم كان منع السكر فى الاسلام قبل أن أصبح السكر مصيبة عامة ، كما هى فى أيامنا هذه ، بزمن طويل .

أثر اللغة فى حفظ الدين

واسمحوا لى الآن أن أؤكد انه لم يتح لنبى من قبل ، ولا من بعد ، أن ينتصر انتصارا تاما كانتصار الرسول محمد . ان الاصرار على تفوق اللغة العربية — خاصة — أو على حاجة الدين اليها هو الذى جعل لها انتشارها الحاضر ، ثم حفظ لها هذا التفوق قرونا عديدة . ولولا هذا الدفاع الضمنى لبقيت اللغة العربية لغة قليلة بلا قيمة عامة ، أو لاضمحلت تماما ، ولكان شأن العرب فى ذلك شأن نصارى الشرق الأوسط الذين تركوا لغتيهم المقدستين — السريانية والقبطية — حتى زالتا . من أجل ذلك لم يكن محمد نبى الاسلام فحسب ، بل نبى اللغة العربية والثقافة العربية ، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم .

سرعة انتشار الاسلام

ولقد قبلت القبائل العربية الدين الجديد بسرعة مدهشة . وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى فى تاريخ وجودها موحدة على

أساس متين ، على أساس الدين . ومن الأدلة الصحيحة على القبول السريع للاسلام وضع التقويم الهجرى والتاريخ الجديد (١٥ يونيه ٦٢٢) ، ولكن غير المسلمين لا يستطيعون أن يقدروا ذلك حق قدره ! لقد بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الاسلامية بعد سبع عشرة سنة فقط من الهجرة ، على حين احتاج النصارى الى ألف عام لوضع التقويم المسيحى . ولا ريب أنه مما سهل وضع التقويم الاسلامى ورود الحث عليه فى القرآن الكريم [١] ، ولذلك كان جزءا أساسيا من الاسلام [٢] .

وفى هذه الأثناء اتسعت رقعة الاسلام بالسيف [٣] . ولقد كان

---

(١) كانت الأشهر العربية فى الجاهلية قمرية ، وكانت السنة مؤلفة من اثنى عشر شهرا . ولكن بما ان دورة القمر حول الارض تتم فى نحو تسعة وعشرين يوما ونصف يوم ، فان السنة القمرية تقصر نحو أحد عشر يوما عن السنة الشمسية ، فتختلف مواقع الأشهر القمرية فى الفصول بين عام وعام . من أجل ذلك كان العرب يجعلون كل سنة ثالثة ثلاثة عشر شهرا حتى يظل التوافق بين السنتين القمرية والشمسية قريبا — فيما يتعلق بالفصول . وهذا الشهر الثالث عشر فى كل سنة ثالثة كان يسمى النسىء (أى المتأخر) . ولقد حرم الاسلام النسىء ، وردالسنةالهجرية قمرية بحتا . جاء فى سورة التوبة (٩ : ٣٦ وما بعدها) « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ...... انما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليوطئوا عدة ماحرم الله ، فيحلواماحرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين » (ع . ف) .

(٢) الفرق بين القرآن والانجيل عظيم جدا ، وهو يرجع الى أن القرآن الكريم قد صدع به النبى نفسه .... والى أن القرآن يشتمل على جميع الأسس الضرورية للحياة الاسلامية : الدين والفقه والتشريع والتقويم واللغة . اما الانجيل فلم يتعرض للغة . ونحن اذا صرفنا النظر عن نحو الف لهجة نقل اليها الانجيل وجدنا ان الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت تقريبا فى استبدال لغة الانجيل الاصلية بلغة ثانيه (مقدسة) هى اللغه اللاتينيه . ثم ان الانجيل لم يوجد تقويما ، والتاريخ المسيحى (الميلادى) وضعه راهب سيثى اسمه (يونيسيوس اكسيغوس) نحو عام ٥٢٥ م . ولقد كان قبول هذا التاريخ بطيئا وتدريجيا حتى ان البلاط البابوى نفسه لم يستعمله استعمالا دارجا الا فى القرن العاشر الميلادى .

(٣) معظم المؤرخين الغربيين يجهلون موضع السيف فى الفتوح الاسلامية ، والنص ان العرب لم يكن يقبل منهم الا الاسلام ، فان لم يدخلوا فى الاسلام قوتلوا ، وعلى هذا ، الحديث : امرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله

الفاتحون فى ذلك محظوظين ، بقدر ما كانوا شجعانا . ان انتصارات العرب لم تكن نتيجة لقوتهم الذاتية ، ولا لحميتهم التى كانت بلا ريب عظيمة ، بقدر ما كانت نتيجة لضعف خصومهم واختلاف كلمتهم . ولقد كانت الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية متزعزعتين تريدان أن تنقضا منذ قرون سبقت ، كما أن كل واحدة منهما أضعفت أختها بالحروب التى لم تتوقف بينهما قط . ثم ان ادارة البيزنطيين الدينية والسياسية كانت أزهقت نصارى آسيا ،وبلغت فى معاملتهم من الاحتقار والظلم حدا جعل أولئك النصارى متأهبين لأن يخونوا سادتهم من أبناء ملتهم ، حينما يجرؤ على أرضهم عدو ما . انه لم يكن بامكان احدى تينك الامبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) ان تثبت فى وجه العاصفة .

وهكذا نجد أن قصة الفتوح الاسلامية الأولى قد سارت فى الشرق القديم كما سارت فتوح هتلر خلال وأوربا فى عصرنا الحاضر : سقطت دمشق فى عام ٦٣٥ ؛ ثم كانت معركة القادسية ، فى العراق فى العام نفسه ، كما أن القدس استسلمت ، ثم اجتيحت بلاد ما بين النهرين فى عام ٦٣٧ للميلاد . وكذلك فتحت مصر ما بين عام ٦٤٠ وعام ٦٤١ ، ثم انتهى فتح فارس فى عام ٦٤٢ م . أما فتح الأندلس فتأخر عن ذلك قليلا ، اذ تم فى عامين اثنين بين ٧١٠ و ٧١٢ للميلاد ، أى بين سنة ٩١ و ٩٣ للهجرة . وهكذا تمت جميع هذه الفتوح فى أثناء القرن الأول للهجرة [١] .

= الا الله، وعليه الآيات الواردة من السورة التاسعة من القرآن الكريم ، (النصارى واليهود) من غير العرب فكان سورة التوبة أو براءة · اما أهل الكتاب من حقهم أن يظلوا على اليهودية أو النصرانية ، اذا دفعوا جزية ـ ضريبة مقطوعة لبيت مال المسلمين ـ مقابل الدفاع عنهم وعن أموالهم ، ومقابل اعفائهم من فريضة الجهاد ، أى الذهاب مع الجيوش الاسلامية الى الحرب . (ع · ف) ·

(١) راجع تفاصيل ذلك فى Philip Hitti : *History of the Arabs* (London 1937, *Isis* 28 : 503-04), fourth edition (1949).

نقلت الطبعة الرابعة من كتاب الدكتور فيليب حتى الى العربية بعنوان: تاريخ العرب (مطول) فى ثلاثة اجزاء بيروت ، دار الكشاف للنشر ١٩٤٩– ١٩٥١ (ع · ف) ·

ولكى نستطيع أن نقدر هذه الحوادث حق قدرها يجب أن نذكر أن العرب لم يكونوا الى ذلك الحين هجروا حياتهم البدوية تماما ، ولذا شبه بعض المؤرخين الفتوح العربية فى آسيا وأفريقيا وأوربا بهجرات البرابرة (الهون والقوط والوندال وسواهم) ، وهى الهجرات التى قوضت أركان الامبراطورية الرومانية الغربية (٤٧٦ م) ، ثم استمرت فى تدمير معالم المدنية فى أوربا قرونا كثيرة بعد ذلك . ان البدو لم يكونوا مختلفين عن الهنود الحمر — فى محاسنهم ومساوئهم . ولقد يبدو لبعضنا مع النظرة الأولى أن فتح العرب للبلاد التى بلغت الذروة من المدنية (فارس واليونان) كان أمرا يحمل فى نفسه تناقضا شديدا ، أمة متأخرة فى ركاب المدنية تحمل مشعل الحضارة والرقى الروحى الى بلاد بلغ أهلها الذروة من الحضارة والرقى . لنتخيل مثلا أن الهنود الحمر قد نجحوا فى اخضاع الأوربيين الذين طرأوا على أمريكا ، ثم ذللوهم فى خدمتهم . (فهل فى ذلك شىء معقول ؟) . على ان هذه الموازنة (بين العرب وبين الهنود الحمر) قد تفيد فى تبيان الفارق بين الفاتحين وبين ضحاياهم [١] ، ولكنها غير صحيحة فى أساسها . ان الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين ، ولكنهم كانوا موحدين تماما ؛ وكان يعمر قلوبهم ايمان وطيد ، وفى هذه أيضا انتصر النبى انتصارا بينا . ان الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع ، وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون فى سلم المدنية ، بل كان فى الأكثر صراعا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة فى المحل الأول ، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة فى المحل الثانى . هذه الفتوح كانت الى حد بعيد تتخذ طبيعة حرب ضد الصليبيين ، ولذا كانت انتصارا للهلال على الصليب .

هذه التفاصيل لتلك الجهود المدهشة فى الفتح الاسلامى تهم المؤرخين

---

(١) يقصد المؤلف أهل البلاد المفتوحة ، مع ان جميع المؤرخين وفيهم الدكتور سارتون نفسه يعدون فتح العرب للشرق الأوسط انقاذ لأهله راجع ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ (ع ٠ ف) ٠

السياسيين ، ولكن الحالة النفسية للأسس التى تقوم عليها تلك الفتوح فيما يتعلق بالجانبين (بالعرب ثم بالروم والفرس) هى ذات أهمية كبرى لمؤرخى العلم . لقد سبق للايمان المسيحى أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التى امتدت قرونا عديدة ، وبالحرمات [١] المتـبادلة ، وأدى ذلك الى استقبال النصارى فى الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية . ثم ان الاسلام — من ناحية أخرى — كان لا يزال غضا موحدا ، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبهم آمال عظيمة بالثروة والسلطة فى هـذا العالم ، وبالثواب الخالد فى العالم الآخـر . وكان الايمان فى الاسلام بسيطا ، كريما ومعتدلا ، ومع ذلك فقد كان بالامكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس الى حد بعيد ، فينقلب المجاهدون حينئذ ذوى حمية اما أن يبلغوا بها الظفر ، أو أن يسقطوا دونه شهداء ؛ لقد كان الظفر والاستشهاد عندهم سيان . ومع أن الشعوب الاسلامية لم تكن عاجزة عن التسامح ، فان قوتها كانت فى الدرجة الأولى نتاج الشعور بالتفـوق الذى خلقه فى نفوسهم النصر السهل الذى فتحوا به البـلاد ، كما أنه كان أيضا نتيجة احتقار أصيل فيهم للدخلاء [٢] .

---

(١) الحرمان تعبير كنسى مسيحى مؤداه ان تصدر سلطة دينية على أحد الأفراد التابعين لها — عمليا او نظريا — حكما تعد به هذا الفرد خارجا عن نعمة الكنيسة وعن حمايتها ، فتحظر معاملته ودفنه . حتى يتوب . (ع . ف) .

(٢) أطنب السير توماس ارنولد (٦٤ — ١٩٣٠ م) فى وصف التسامح عند الشعوب الاسلامية نحو غيرهم من الشـعوب ، وذلك فى كتـابه : *The Preaching of Islam, A History of the Propagation of the Muslim Faith* (London 1896; reprinted 1913 رغبة منه فى أن يظهر بمظهر الصديق لهم . اما المجادلون عن الاسلام فيستشهدون عادة بالآية ٢ : ٢٥٧ : « لا اكراه فى الدين » . ولكن ثمة اشارات كثيرة فى القرآن والحديث تشرح فريضة الجهاد ومقاتلة المشركين (*Introd.* 3 : 1274, 1722, 1862) وهكذا يستطيع الانسان — فيما يتعلق بالتسامح — ان يظهر المسلمين فى صورة وضاءة (كما فعل ارنولد) ، أو فى صور حالكة شديدة الظلمة ؛ وهذا يصدق أيضا على النصارى .

ولم يستطع الغزاة المسلمون فى بدء فتوحهم أن يمعنوا فى التضييق على أهل البلاد المفتوحة ، لأنهم كانوا بحاجة الى التعاون معهم [١] . لقد كان أبناء البادية [٢] شديدى الجهل الا بدينهم وبأشعارهم ، ولو لم يتصفوا بالتسامح لما قدروا على ادارة البلاد التى فتحوها . ولقد كان من حسن حظ المسلمين أن وجدوا — فى البلاد التى فتحوها — نفرا من اليونان ، والسريان ، واليهود ، والأقباط ، وأهل العراق ، وأهل الأندلس ، وسواهم يريدون أن يخدموهم. على أننا اذا قلنا ان العرب قد احتاجوا الى المعونة العادية من هؤلاء الأجانب ، فان قولنا لا يعبر عن الحقيقة القائلة بأن الامبراطورية الاسلامية شيدت على التعاون مع اليونان والفرس والأقباط وغيرهم، نصارى ومجوسا وصابئة ويهودا . والعرب لم يحتاجوا الى معونة هؤلاء فى الدين والآداب — أو هكذا خيل اليهم — ، ولكنهم أدركوا بسرعة مدهشة أن التفوق الثقافى الذى امتاز به الأجانب انما كان راجعا فى الأكثر الى جهازهم الفنى والعلمى .

هذا الادراك هو الذى فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربى ، وأوردت كلمة معجزة لترمز الى تفسير ما بلغ اليه العرب فى الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريبا عن نطاق التصديق . وليس لذلك شبه فى تاريخ العالم كله ، ما عدا حسن اكتساب اليابانيين للعلم الحديث ، وللبراعة الفنية

---

(١) ان سبب تسامح المسلمين كان حثا من دينهم على ذلك ، ولم يكن لسبب مادى كالتعاون مثلا مع أهل البلاد المفتوحة . (راجع الحاشية السابقة) (ع . ف) .

(٢) يخطىء معظم المؤرخين الغربيين حين يظنون أن العرب كلهم كانوا أهل بادية ، اذ كان فيهم أهل مدن أيضا ، ولقد أنجبت البادية كما أنجب الحضر ! (ع . ف) .

فى أثناء العصر الميجى [1] . ان هذه الموازنة مفيدة ، لأن الموقف كان فى الحالين واحدا . ان قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الماسة الى العلم اليونانى ، بقدر ما أدرك اليابانيون فى الجيلين السابقين حاجتهم الى العلم الأوربى الحديث . ولقد كان خير المعلمين لكلتا الأمتين الحاجة ، الحاجة الملحة . على أن تينك الأمتين قد اتصفتا بالارادة ، وبنوع من النشاط الروحى الذى يتغلب على المصاعب الشاقة ، وانه لم يكن لأبناء تينك الأمتين اختبار كاف ولا اصطبار على التوقف للتأمل فى المصاعب فيخافوا منها ، بل انهم هجموا عليها هجوما . وكل شىء يصبح أهون فى أعيننا اذا لم نتوقف لنتخيل ما فيه من صعوبة .

نهضة العرب العلمية

ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذى لا يكاد يصدق فى العلم العربى لم يبدأ الا منذ القرن الثانى للهجرة . ان الرسول كان عظيم الاهتمام بالآخرة ، وبقضايا الأخلاق والدين مما يتعلق بهذه الحياة الدنيا ، حتى انه لم يستطع أن يصرف اهتمامه الى العلوم [2] . على أن نفرا من المعتذرين عن الاسلام فى العصر الحديث حاولوا أن يقرأوا عددا من الآراء

---

(١) يشير المؤلف هنا الى زمن الامبراطور مو – تسو – هى – تو (١٨٦٨ – ١٩١٢) ، قريب من نصف قرن . هذه المدة كانت أقصر من المدة التى قضاها العرب فى اكتساب الثقافة اليونانية ، غير أن هذا كان طبيعيا جدا ، فان كل شىء كان فى العصور الوسطى ابطأ سيرا ، ولم يكن عند العرب أيام نهضتهم الثقافية تلك الادوات العجيبة التى تستعجل الخطوات التربوية (الطباعة ، والمحركات البخارية ، والتلغراف وسواها) . ان اكتساب اليابانيين للثقافة الصينية كان موازيا فى طول المدة لاكتساب العرب للثقافة اليونانية ، ولكنه (أى الاكتساب اليابانى) وقف عند ذلك الحد ، بينما الاكتساب العربى كان حلقة فى تطور ثقافتنا (الغربية) . من أجل ذلك يمكننا هنا فى الغرب أن ندع دراسة الثقافة اليابانية جانبا ، ولكننا لانستطيع فعل ذلك بالثقافة العربية الا اذا أردنا أن نتحمل شيئا من الخسارة .

(٢) سبق ان ذكرنا راى الجاحظ فى هذا الموضوع . راجع أيضا مقدمة ابن خلدون (المطبعة الأدبية ، الطبعة الثالثة ١٩٠٣ ، ص ٤٩٤) : « فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات . . . » . (ع . ف) .

العلمية فى القرآن . ولكن هؤلاء لا يستطيعون ذلك الا اذا خلعوا على بعض الكلمات معانى لم يكن بالامكان ان تخطر لأحد فى عهد الرسول ، ولا لمن جاء بعد ذلك بقرون كثيرة [١] . وكذلك الخلفاء الراشدون ، فانهم لم يكونوا أكثر اتجاها نحو العلوم من الرسول ، لاشتغالهم مثله بما كان أعظم شأنا : بنشر الدعوة وبالفتوح . وهكذا يبدو لنا أن اليونانيين الذين كانوا فى خدمة العرب كانت معرفتهم بالأعمال والادارة أكثر من معرفتهم بالعلوم ، كما يبدو لنا أيضا أن هؤلاء كانوا قد فقدوا تذوقهم للرقى الفكرى الذى حققه أسلافهم .

عبقرية العرب العلمية

وخلاصة القول أنه لم يكن ثمة علم في المدينة ، أو فى مكة ، أو فى دمشق ؛ ومعجزة النهضة العربية لم تكشف عن نفسها قبل تأسيس الخلافة العباسية فى بغداد . ولكن ماذا حدث هنالك ؟ لقد نشطت العبقرية العربية بفعل الخميرة الايرانية . ان محاسن الأمتين العربية والفارسية (ومساوئهما) كان بعضها يتمم بعضا . وهكذا نرى أن معجزة العلم العربى كانت ترجع فى الأكثر الى الأثر [٢] الذى حدث بفعل النشاط والجد العربيين ، وبفعل الايمان الاسلامى فى الفضول والجدل الفارسيين . أو بكلمة أعم ، أن العلم العربى كان ثمرة للعبقرية السامية

---

(١) أوضح الأمثلة على مفارقة حسن التعليل فى ذلك ما وقع فيه الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره الكبير « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » (٢٦ جزءا ، طبع عام ١٩٢٢ م وما بعدها) ، وفى غيره من الكتب مثل التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم (١٩٠٦ م) وهو - فيما يظهر - اختصار لكتاب آخر أكبر حجما ، وقد نقل الى الفارسية والتركية. راجع Charles Clarence Adam : *Islam and Modernism in Egypt* (1933) P. 245. وقد تفضل بنقل هذه المعلومات الى زميلى فى جامعة كولومبيا (Arthur Jeffery) فى رسالة مؤرخة نيويورك ١٥ مارس ١٩٥٠ .

(٢) استعمل المؤلف لفظة Catalization ، وهى لفظة مستعارة من مختبر الكيمياء ، فان التعبير Catalytic agent يقابله فى العربية التعبير « عامل مساعد » ، أى « الخاصة التى تكون فى مادة فتؤثر فى مادة أخرى (تحللها) من غير ان تتأثر هى » . (ع . ف) .

التى خمرت بالعبقرية الفارسية . ومع أن هـذا التعبير عام جدا ، فانه يساعدنا على تفهم ما حدث فى بغداد على وجه التقريب ، حيث استطاع الحكام المسلمون فى مدى قرنين (٧٥٠ — ٩٥٠ م) أن يدفعوا رعاياهم من أولئـك الذين يلمون بلغات متعـددة — وأكثر هؤلاء نصارى أو يهودا — لنقل المعارف اليونانية الى اللغة العربية .

يحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الانتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما ، وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين . ان هذا الحكم ينكشف عن خطأ فادح ، فمن بعض الوجـوه ليس ثمة شىء يمكن أن يعد ابتكارا صحيحا أكثر من ذلك الظمأ الذى تملك على القادة العرب حواسهم ، فى سبيل المعرفة . على أننا لا نشك فى أن قسما من هذه المعرفة احتاج اليه العرب حاجة مباشرة للادارة وللحكم ، غير أنهم مروا مرا سريعا من هذا الطور النفعى الى طور أسمى منه . فالطب ، كما يقال ، كان فنا عمليا ، وكذلك الفلك ، اذا أريد به التنجيم فقط . ولكن العرب نقلوا الى لغتهم شيئا كثيرا من الرياضيات والفلسفة ، مما يعد فى أسمى المعانى الأفلاطونية[1]. ولقد يعترض معترض فيقول ان النقلة كانوا فى الأكثر أجانب غير مسلمين ، وغير عرب فى الأغلب أيضا . وهكذا وجب أن يكون كل فضل لهؤلاء النقلة وليس لهؤلاء الذين استأجروهم . لا ، أن الفضل يجب أن يكون للفريقين . لقد كان النقلة أجانب لسبب بسيط ، هو أن عملية النقل تحتاج الى شىء من المعرفة بلغات متعددة ، مما لم يتوفر للفاتحين . ان الناقل من لغة الى لغة يجب أن يكون قديرا جدا فى اللغتين معا ، وتلك الميزات اللغوية التى توفرت فى الأجانب كانت ضرورية ، ولكن لم تكن كافية . ان كل عمل — وخصوصا اذا كان طويلا ومرهقا — لا يمكن أن ينهض به ما لم يكن ثمة أحد يحتاج اليه حاجة ملحة ، وما لم يكن فوق

---

(١) الافلاطونى هنا (نسبة الى أفلاطون) هو الروح الخـالص من العلائق المادية أو الأسباب النفعية ، ويمكن أن يقابله فى العربية الحب العذرى ، الميل العذرى ، الاتجاه العذرى ، المعنى العذرى ، الخ . نسبة الى بنى عذرة — اذ أشتهر بنو عذرة بالحب الروحى البعيد عن الصلات المادية . (ع . ف) .

ذلك مستعدا لأن يرزق الشخص الذى يريـد أن ينهض به . والحكام العرب كانوا راغبين فى عمل النقلة ، وكانوا كثيرا ما يتنـافسون فى ذلك منافسة شديدة ، أى كانوا هم البادئين والبادىء أفضل .

الابتداع والتقليد

ويحسن بنا أن نقف هنا قليـلا لنسأل أنفسنا : ما التقليـد ؟ كلنا طبعا نقلد أبوينا وأساتذتنا وأبطالنا ، غير أن الأدعياء منا يقلدون تقليدا رديئا ، فيحكمون ما ظهـر من الأشياء . أما الرجال العبـاقرة ، فانهم يقلدون تقليدا خيرا ، ثم يبدعون منه أشياء جديدة . ان غاية التهذيب على الحصر هى التقليد الحكيم لأحسن الأمثلة ، انه تقليد المناهج لا تقليد النتائج . والتقليد العربى كان على مراتب متعددة ، وكان أنواعا منوعة منها الجيد ومنها الردىء .

أما مهمة نقل الآثار الفلسفية العلمية من اللغة اليونانية ، أو من اللغة السريانية ، الى العربية ، فهـذه انطوت على صعوبات عظيمة . فالنقلة الأولون — حتى المتأخرون منهم أمثال حنين بن اسحق الذى شهد النصف الثانى من القرن التاسع للميلاد — اضطروا الى خلق كلمات جديدة لم يسبق أن اتفق التعبير عنها فى اللغة العربية . وكان هؤلاء النقلة اذا أتوا مثلا الى نقل شىء من آثار افلاطون ، أو أرسطو ، أو أقليدس ، أو أرخميدس ، أو ابقراط ، أوجالينوس ، ثم اصطدموا بمعنى جديد عليهم عمدوا فى التعبير عن ذلك المعنى اما الى ايجاد مصطلح جديدا ، أو التجأوا الى تعبير تفسيرى أعسر للمصطلح الأصلى [1] . وكذلك كانوا ، اذا استحال عليهم هذان الأمران معا ، يثبتون الكلمة اليونانية بلفظها الأصلى ولكن بالحروف العربية [2] . غير ان هذا العمل لايجـاد الألفاظ والمصطلحات الجديدة ،

---

(١) التعبير التفسيرى هو ان نعبر عن معنى كلمة واحدة بألفاظ متعددة (ع ٠ ف) ٠

(٢) نجد فى النقول القديمة وفى الكتب الفلسفية المتقـدمة تعـابير أجنبية كثيرة ، أمثال جيومتـريا ، اسطرونوميا ، وابيذيميا (الهندسـة ، ثم نحن لانزال اليوم نقول جغرافيا ٠ (ع ٠ ف) ٠

كان لحسن الحظ ميسورا الى حد ما ، لمطاوعة اللغة العربية مطاوعة شديدة لاشتقاق الكلمات (كما رأينا من قبل) ، فان عددا كبيرا من الكلمات الجديدة يمكن الاتيان به من جذر قديم . ومع أن هذه الكلمات لم ترد فى القرآن أو فى الحديث ، فانها تنطبق على قواعد اللغة العربية انطباقا يصعب علينا معه أحيانا أن ندرك أنها جديدة ، حتى ان أحدنا ليكاد أن يحكم بأن هذه الكلمات قديمة قدم اللغة العربية نفسها ، وانها — ولو لم تكن استعملت من قبل — موجودة بالقوة ، ويمكن اللجوء الى استعمالها عند الحاجة (١) .

رسالة العرب فى العلم

معظم النقول العــربية نقلت من اللغة اليونانية ، اما مبــاشرة أو بتوسط النقول السريانية . وبعض هذه نقلت من السنسكريتية ، وربما من لغات شرقية أخرى . غير أن معــرفتنا بما استعاره العرب من اللغة

(١) للاطلاع على عدد من هذه الصعوبات فى ايجاد المصطلحات العلمية انظر :
Amélia Marie Goichon : *Lexique de la Lanque Philosophique d'Ibn Sina*, 510 Paris, 1938; *Isis* 33 : 326-29). ومشكلة ايجاد المصطلحات فى اللغة العربية تعود اليوم الى الظهور بشكل واضح جدا ، وعلى الرغم من القوى الكامنة فى اللغة العربية لاشــتقاق الكلمات الجــديدة ونحتها ، فان الحــلول الصالحة غير متيسرة دائما . وهــكذا نجد اللغة العربية الحديثة مملوءة بالــكلمات الهجينــة ، كما هو الحـــال فى اللغة الانجليزية تقريبا . أما فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية فانظــر القــاموس المستفيض الذى نشرته وزارة المعارف المصرية : Mohammad Sharaf : *English Arabic Dictionary of Medicine, Biology and Sciences.*) quarto, 1048 pp. Cairo 1929; *Isis* 14 : 537).

ومن المؤكد أن عددا من هذه الصعوبات ينجم من جديد ، كلما أريد نقل مجموع من المعلومات الى لغة ليست معدة لمثل هذا النقل · فالعلماء الذين باشروا النقل من العربية الى اللاتينية فى العصور الوسطى واجهوا تلك الصــعوبات ، وكذلك علماء العصر الميجى (راجع الحاشية ١ ، الصفحة ٣٧) الذين نقلوا من اللغة الانجليزية (ومن غــيرها من اللغــات الأوربيــة) الى اليابانية وجدوا أنفسهم أمام المشكلة ذاتها · وهكذا نجد أن كل حال تساعد تبيان الأحوال التى سبقت . أما فى ما يتعلق باليابان خاصة فارجع الى :
Sir George Baily Sansom : *The Western World and Japan* (pp. 399-404, New York 1950, *Isis* 41).

السنسكريتية وغيرها من اللغات الشرقيـة لا تزال ناقصة ، لأن العلماء الذين عرفوا العربية والسنسكريتية (والفارسية والصينية وسواهما) كانوا قليلين . وهذا يدل على مظهر آخر من مظاهر الابتكار والمبادهة [١] عند العرب . ان العرب لم يستغلوا الآثار اليونانية فحسب ، بل أغلب الظن أنهم لم يدركوا أول الأمر ما فى تلك الآثار من القيمة العالية .

لقد كانوا يتشوقون الى أن ينهلوا من كل مورد ؛ ثم انهم لم يتأخروا كثيرا قبل أن يتفهموا تلك المعرفة ويستنبطوا منها أشياء جديدة .

وأعظم الابتكارات العـربية فى الرياضيات والفلك شيئان : علم الحساب الجديد ، وعلم المثلثات الجديد . ومما تحسن الاشارة اليه هنا أن هذين العلمين قاما على أساس مـزدوج من الآثار السنسكريتيـة واليونانية . ومثل ذلك كان شأن الطب ، اذ عرف الطب من طريق الهند ومن طريق اليونان معا . وشاهد ذلك فى كتاب فردوس الحكمة لعلى بن ربن الطبرى الذى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع [٢] . وبعد بضعة قرون رأينا رشيد الدين الصورى الذى شهد النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وكتب فى الفارسية أكثر مما كتب فى العربية — وهذا صحيح — يوحى الينا أنـه استعار أيضا من العلوم الصينية . غير أن أولئك الذين ينكرون محاسن العرب ، ويبخسونها قيمتها ، ليحتجون مرة ثانية بقولهم : ان الأخذ من مصادر متعددة ليس ، على كل حال ، خيرا من الأخذ من مصدر واحد . تلك طريقة فى المجادلة مضللة ، وخصوصا اذا كان الكلام يتناول الرياضيات . ثم ان الرياضيين العرب — فى هاتين

---

(١) المقصود بهذا اللفظ الاقـدام Initiative على عمل الأشياء ، والعمل بها قبل الآخرين . (ع . ف) .

(٢) على بن ربن الطبرى هو غير محمد بن جرير الطبرى المشهور الذى عاش فى النصف الاول من القرن العاشر وصاحب التاريخ العام المستفيض « تاريخ الرسل والملوك » والتفسير العظيم . ان تعليقى على كتاب على بن ربن الطبرى (*Introd.* 1 : 574) لم يكن وافيا ، لأننى لم أعـرف فردوس الحكمة الا عام ١٩٢٧ م ، اذ نشر الكتاب فى العـام التـالى بعناية م . ز . صديقى برلين ١٩٤٨ . انظر تحليل ماكس مايرهـوف لهـذا الـكتاب : (*Isis* 16 : 6-54) أما تعليقي على رشيد الدين ، وقد ظهر بعد عشرين عاما ، فقد كان أوفى واكثر دقة . (*Introd.* 3 : 969-76).

الحالتين المــذكورتين آنفــا — لم ينسخوا من المصادر اليــونانية والسنسكريتية نسخا ، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة ؛ ولكنهم جمعوا بين المصدرين ، ثم ألقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . واذا لم يكن هذا الذى فعله العــرب ابتكارا ، فليس فى العلم اذن ابتكارا على الاطلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحد ، وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم .

ولعل معترضا آخر يقــول : ان العلماء العرب لم يفهموا مــدى اكتشافاتهم تمام الفهم. ولقد بيَّنتُ أنا مثلا [1] أنهم لم يستخدموا الأرقام الهندية (العربية) فى المناسبات التى يمكن أن يكون استخدام هذه الأرقام فيها أحسن نفعا ، فى الألواح الفلكية والجغرافية مثلا . ولكن ماذا فى ذلك من الغرابة ؟ ان ما تنطوى عليه الاكتشافات — وخصوصا اذا كانت تلك الاكتشافات هامة فعلا — يكون عادة مختلف المظاهــر متسع المدى الى درجة انه ما من عالم ، مهما كانت عبقريته عظيمة ، يستطيع أن يفهم تمــام الفهم كل ما يفعله . ان استثمار الآراء العلمية يقوم به عادة رجال أقل قدرا من الذين اكتشفوا الآراء ، ولكن يكونون أحسن استفادة عملية منها . وعلى أساس هذه الحقيقة استغل زنوبى جرام آراء فارادای ، وطبق ماركونى آراء كلارك ماكسول [2] .

---

(١) *Introd.* 3 : 133; 797-98

(٢) فارادای Faraday (ت ١٨٦٩ م) عالم انجليزى فى الطبيعيات والكيمياء قام بأول تجربة بدائية لانتشار الغازات، ولضغط الغاز وتحويله الى سائل ، واستطاع السيطرة على المجرى الكهربائى واثارة مجار كهربائية بالمجاورة من شريط الى آخر أو بواسطة المغنطة ، مما قاد الى تحقيق المحرك الكهربائى . وله أيضا قانون التحليل الكيماوى .

وزنونى جرام Gramme (ت ١٩٠١ م) عالم بلجيكى اخترع عــام ١٨٦٧ م آلة تسير بالمجرى الكهربائى المتبدل والمتناوب ، ثم قاده ذلك الى تسيير الآلات بالمجرى المستمر . وفى عام ١٨٧٢ م استطاع جرام أن يبنى الدينامو (المحرك الـكهربائى) لتوليدالقوة المحركة ولتوليد الضوء .

وكلارك ماكسول (ت ٢٨٧٩ James Clarc Maxwell (In the *Enc. Br.*: عالم اسكتلندى اشتغل بالطبيعيات ، وبدأ بحثــه فى احتكار الغــار ، وهو صاحب قانون توزع سرعة الذرات. وضـــع مباحث كثيرة فى الـــكهرباء والمغنطيس موضع الانتفاع ، ودون ملاحظات فارادای فى الـكهرباء بعلامات رياضية ، أى انه تمكن من أن يجعل لآراء فارادای النظر قيمـــة عمليـــة صناعية وتجارية .

أما ماركونى Marconi (ت ١٩٣٧) فهو عالم ايطالى سجل اختراعه للتلغراف اللاسلكى فى لندن عام ١٨٩٦ م ، ثم استغل ذلك تجاريا .

لنرجع الى العراق فى العصور الوسطى . ان غرابة العلم العربى وخصبه معا يرجعان فى الحقيقة الى أن ذلك العلم جمع العناصر اليونانية الى العناصر الشرقية ، وخلق منها مركبا جديدا ، أو انه جعل خلق هذا المركب ممكنا فى المستقبل . ولقد كان بالامكان أن ينتقل العلم اليونانى على يد أوربا لولم تكن النصرانية الكاثوليكية مفصولة تماما عن النصرانية الأرثوذكسية بجدار من التعصب وسوء الظن والبغض . وبما أن هذا الجدار كان لسوء الحظ موجودا ، فانه لم يكن من سبيل الى اتصال للعلم اليونانى السابق باللاتينى اللاحق الا من طريق المنحنى العربى . واذا نحن نظرنا الى العلم العربى من وجهة نظر التطور الانسانى عموما وجدنا أن الثقافة العربية الاسلامية كانت ذات أهمية بالغة ، لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسية البوذية.

الشرق مهد الثقافة الأوروبية

ان الأهمية العظمى التى يتمتع بها الشرق الأوسط ، وهى أنه أم للثقافة الغربية قد قام البرهان عليه فيما تقدم هنا . ولكن حب الحقيقة يحملنا على أن نبدى تحفظا ، أو كما يقول المحامون : أن نقدم اعتراضا . ان الثقافة العربية التى كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع الى القرن الحادى عشر ، ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون أخر (ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئا يسيرا) قد درجت من مهدها ، لا شك فى ذلك . ولكن الفتوح الاسلامية حملت هذه الثقافة شرقا الى الهند وأواسط آسيا حتى الصين ، ثم غربا الى اسبانيا ومراكش ، أى الى طرف العالم . فاذا نحن سمينا هذه الثقافة اذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب ، فاننا نكون جئنا شيئا غريبا ، اذ أن تلك الثقافة كانت امتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى الى المغرب الأقصى . ولنذكر أيضا أنه كان لهاتين التسميتين قبل كولومبوس واكتشاف أمريكا قيمة مطلقة ، لأن العالم المعروف يومذاك لم يكن يتجاوز هذين الحدين . ففى القرن العاشر للميلاد أصبح القطر الأندلسى والقطر المغربى مركزين أصليين للثقافة

العربية . بعبارة أخرى كان جزء أساسى مما ندعوه بالشرق الأوسط يومذاك فى المغــرب الأقصى ، فى المغرب الأقصى تماما ، آخر العــالم غربا . وهكذا نجد أن التعبير « الشرق الأوسط » تعبير مضلل [١] ، فنحن دائما شعوب شرقية بالاضافــة الى جيراننا الغربيين ، وغربيون بالمقارنة الى الشعوب التى تعيش الى شرقنا [٢] ؛ ولكننا نقبل هذا التعبير كما نقبل كلمات أخرى كثيرة على أنها بقايا من جاهليتنا الماضية .

ذروة الفلسفة العربية

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية فبلغت مبلغها على يدى رجلين مغربيين . ومن غريب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان فى مدى بضع سنوات وفى مدينة واحدة ، هى قرطبة التى كانت أعظم المدن فى غرب أوربا بهاء وعظمة والتى كانت المنافسة الغربية لبغداد [٣] . ولد ابن رشد فى قرطبة عام ١٢٦ م ، وولد موسى بن ميمون بعده بتسع سنوات فى المدينة نفسها . والواقع أن ابن ميمون اضطر الى الهجرة الى المشرق بعد ثلاثين عاما من مولده (١١٦٥ م) ، وانه دون أكثر آثاره فى القاهرة . ولكن هذا لا يبدل من الحقيقة شيئا ، وهى انه كان مغربيا كابن رشد .

---

(١) اذ أعتبرنا الشرق الأوسط تعبيرا جغرافيا ، فهو يقع شرق البحر الأبيض المتوسط ، ولكن اذا عددناه تعبيرا دالا على جهــــود المسلمين فى العصور الوسطى فى العلم والفلسفة فانه حينئذ يتناول المشرق والمغرب معا ، وهذا ما عناه الدكتور سارتون بقوله ان الشرق الأوســـط (من النــاحية الثقافية) تعبير مضلل . (ع . ف) .

(٢) يصف بعض الأمريكيين سكان ولاية مـــاين Maine فى الولايات المتحدة بانهم يعيشون « هنالك شرقا » . ومن الناحية الثانية نجد الكتب الصينية التى تتكلم عن أواسط آسيا والشرق الأوسط تحمل أمثال هــذا العنوان : هى ــ يو ــ ت أو ــ تشى (أخبار البلاد الغربية) . انظر : *Introd.* 3 : 2113 ثم انظر عناوين كتب أخر تبدأ بكلمة هسى (غرب) *Introd.* 1 : 476

(٣) كان العصر الذهبى لقرطبة أثناء الخلافة الأموية فى الأندلس (٧٥٦ ــ ١٠٣١ م) ، وخاصة فى القرن العاشر . ومن عام ١٠٩١ الى ١١٤٧ م دخلت قرطبة فى حكم المرابطين ، وهم من البربر سكان شمال أفريقية . وكان ثالث ملوك المرابطين على بن تاشفين الذى حكم من ١١٠٦ م الى ١١٤٣ م ، وفى أثناء حكمه ولد ابن رشيد وموسى بن ميمون .

على أن ابن ميمون لم يكن مسلما بل يهوديا ، وفى أثناء العصور الوسطى كانت اللغة العربية فعلا أكثر اللغات انتشارا . ولم يتكلم اللغة العربية ويكتب فيها شعوب من أمم مختلفة (فى الشرق والغرب) فحسب ، بل (وهذا بخلاف اللاتينية) شعوب تدين بأديان متعددة .

لنرجع الى ابن رشد وابن ميمون قليلا حتى نرى ان نتائج الفلسفة فى العصور الوسطى قد عبر عنها هذان الرجلان ، رجل مسلم ورجل يهودى . وبعد قرن كامل من الدهر قام بالتعبير عنها من جديد رجل مسيحى ، هو القديس توماس الأكوينى [1] . هؤلاء الرجال العظماء الثلاث ، وقد ولدوا كلهم فى جنوب غرب أوربا ، يمثلون الثلاثة الأديان البارزة واللغتين البارزتين فى العصور الوسطى . ومن السهل ان نذكر أسماء مغاربة آخرين ليسوا قليلين من أولئك الذين زادوا الثقافة العربية مجدا على مجدها ، ولكن هذين الاسمين هما فى هذا المقام فوق الكفاية .

بلغت جهود ابن رشد وابن ميمون بالثقافة العربية الذروة ، تلك الثقافة التى أخذت بالانحدار تدريجا بعد القرن الثانى عشر الميلادى . ومع أن هذه الثقافة ظلت تترك روعة فى النفوس فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فانها كانت قد بدأت بالانحدار . ولم يكد الشرق الاسلامى يدرك جنوح الثقافة العربية نحو الغروب الا بصعوبة ، لأن غروره كان يزداد بنسبة ما يصيب جلائل أعماله من التناقص (وتلك قاعدة عامة

---

(١) للتوسع فى ابن رشد (١١٢٦– ١١٩٨ م) انظر *Introd.* 2 : 255-61
وللتوسع فى ابن ميمون (١١٣٥ – ١٢٠٤ م) انظر *Introd.* 2 : 369-80
أما القديس توما الأكوينى (١٢٢٥–١٢٧٤ م) فهو من جنوبى ايطاليا . انظر *Introd.* 2 : 914-21، ولقد سبق لنا أن تكلمنا عن قرطبى آخر هو سنكا الفيلسوف الرومانى . ومن المميزات لمدينة واحدة أن تقدم للعالم ثلاثة رجال لهم مثل هذه العظمة ، وأغرب من ذلك كله أنه لم يكن فيهم أحد مسيحى !

وابن ميمون من اليهود الذين كانوا يعيشون فى دار الاسلام تحت حكم المسلمين ، وكان أولئك اليهود يكتبون بالعربية ولكن بحروف عبرية، ذلك لأن اللغة العبرية كانت مخصوصة بالأمور الدينية ، حتى كتب النحو العبرية فانها كانت تكتب بالعربية ، كما أن الغالب فيها اليوم فى الولايات المتحدة أن تكتب بالانكليزية .

تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد) . ثم ان الغرب أيضا لم يفطن لبدء انحدار الثقافة العربية ، لأن الوجاهة العربية ظلت على حالها ، مع أن العـرب يومذاك كانوا يبعدون شيئا فشيئا عن أن يكونـوا خليقين بها [1] .

وهذه أيضا قاعدة أخرى من قواعد الحياة : هنالك أبدا انحراف أو ميل بين أعمال الانسان (أو الأمة) وبين الشهرة الذائعة ، فالشهرة لا تبدأ الا متأخرة، وأحيانا متأخرة جدا ، وفى وقت تكون فيه تلك الأعمال العظيمة التى استحقت هذه الشهرة قد توقفت . وهل يجوز غير ذلك ؟ ان الزمن ضرورى كيما يتسنى فى خلاله للأعمال أن تشتهر وتقدر قدرها .

اسباب تاخر المسلمين

ان المآثر التى قامت بها الشعوب التى تتكلم اللغة العربية — وذلك بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر — كانت عظيمة الى درجة تخمل أفهامنا . على أن التأخر الذى أصاب المسلمين والعرب كان مستغربا جدا فى سرعته ، كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة أيضا .وسيحاول العلماء الدارسين أبدا تعليل ذلك ، ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل ، ذلك لأن أشباه هذه المسائل معقدة جدا ، ولأن الاجابة عليها بالأساليب العادية تقع فى نطاق المستحيل .

ومما قيـل ان التأخر الروحى فى الاسلام قد عجل به أن المسلمين فقدوا قوتهم السياسية ، وفى هذا القول شىء من الحقيقة . ولكن يجب

---

(١) كان أول النقلة المتازين من العربيـــة الى اللاتينية قسطنطين الافريقى الذى شهد النصف الثانى من القرن الحادى عشر • ولد قسطنطين فى قرطاجة قرب تونس الحالية ، واشتهر امره فى دير جبل كاسينو فى ايطاليـا منذ نحو ١٠٦٥ م الى وفاته فى ١٠٨٧ م • ولقد ظلت الكتب العربية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر تنقل تدريجا الى اللاتينية ، وهكذا أتيح للثروة اليونانية العربية (فى الفكر) ان تنتقل الى الغرب المسيحى • وبنسبة ازدياد النقل من العربية الى اللاتينية كانت تزداد الوجاهة العربيـة فى الغرب ، ثم بلغت تلك الوجاهة ذروتها عند بداية القرن الثالث عشر .

ألا نبالغ فى أهميته كثيرا [١] ، لأنه جزء صغير فقط من الجواب على ذلك السؤال المعقد . نحن نجد أن السلطة العثمانية قد ظلت عظيمة طوال قرون كثيرة ، ومع ذلك فان الثقافة لم تبلغ فى تركيا ما بلغت اليه فى عدد كبير من الدول الأوربية التى كانت أضعف من تركيا كثيرا ، والتى كانت ترهب تركيا رهبة الموت . ان ضعف الايمان الاسلامى بين المسلمين ساعد على تدعيم الامبراطورية العثمانية [٢] ، ومع ذلك تقوّضت أركان العلم العثمانى [٣] . أن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط تكون أسبابا داخلية ، لا أسبابا خارجية . فاذا اتفق أن شاهدنا شجرة تسقط بفعل العاصفة ، فيجب ألا نلوم العاصفة على أسقاطها للشجرة ، بقدر ما يجب أن نلوم الشجرة نفسها على تعفن باطنها .

وتلك الهزائم السياسية التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم ، بل هى على العكس زادت فى غرورهم ، غير أنها زادته فى الاتجاه الخاطىء . لقد عبس المسلمون فى وجه البحوث العلمية ونفروا منها ، بسبب اعتقاد الفقهاء بأن ما يعرفونه هم من العلم يكفى لكل شىء ، وهكذا وقف التقدم العلمى بسبب تعنتهم وعدائهم للتفكير فى سبيل

---

(١) المعروف ان الغزو الوحشى الذى قام به تيمورلنك على الشرق الأوسط اواخر القرن الرابع عشر للميلاد (*Introd.* 3 : 1467-74) لم يفعل شيئا أكثر من تهديم عدد من المدن الكبرى فى الشرق الاسلامى (بغداد ودمشق وحلب وسواها) ، وكان تقريبا ضربة قاضية على سورية وحدها . ولكنه لم يمس عددا من البلاد الاسلامية بسوء، ومن هذه شبه جزيرة العرب مثلا ومصر ، ولا ضرورة لذكر المغرب ، لأن تيمورلنك لم يصل اليه . ولم يكن بامكان تيمورلنك أن يصيب الثقافة الاسلامية بمثل ما أصابها به لو أن تلك الثقافة نفسها كانت زاخرة بالحياة عند مجيئه .

(٢) يقصد المؤلف ، بلا ريب ، استغلال بعض سلاطين تركيا لفكرة الخلافة والجهاد عند نشوب الأزمات السياسية بين السلطنة العثمانية والدول الغربية . (ع.ف) .

(٣) لهذا السبب اتخذت تركية الحديثة موقفا غير اسلامى . ان تاريخ الرياضات العثمانية قد كتبه صالح زكى (جزءان بالتركية ، استانبول ، (*Isis* 19 : 506-15) وكذلك كتب تاريخ العلم العثمانى عبد الحق عدنان اديوار (بالفرنسية باريس ١٩٣٩ (*Isis* 32 : 186-89) ولهذا الكتاب طبعة جديدة موسعة بالتركية (استانبول ١٩٤٣ (*Isis* 38 : 21-25)

المعرفة . ونتج عن ذلك أن بعض هؤلاء العلماء ظلوا يقبلون على علاتها قصة خيالية التى كتبها على بن الحزم بن النفيس [1] . وجعل عنوانها فاضل ابن ناطق ، تقليدا لقصة حى بن يقظان لابن طفيل [2] .وكتب ابن طفيل (ت ١١٨٦ م) قصته المعقولة فى وقت كان الاسلام لا يزال سائدا سياسيا ، أما ابن النفيس ، الذى توفى بعد قرن من وفاة ابن طفيل ، فانه كان طليعة من طلائع التقهقر ، حين بدأت مآثر المسلمين بالنقصان وأخذ غرورهم بالنمو . ولقد كانت غاية ابن النفيس من كتابه أن يقول أن توالى الحوادث فى ماضى المسلمين كان أمرا مقدورا الى حد أننا نستطيع أن نعيد حوادثه بخيالنا بداهة ، أى لم يكن بالامكان أن يجرى تاريخ الاسلام على غير ما جرى عليه . وأشبه ابن النفيس فى وهمه ما نجده عند رجل مسيحى مثل يوسيبيوس [3] الذى أعتقد أن سيادة النصرانية أمر راجع الى العناية الالهية ، والى الفضل الذاتى فى النصرانية نفسها . وكذلك ظن ابن النفيس أن الفتوح العسكرية والسياسة المدهشة التى اتفقت للشعوب الاسلامية تحقيق لما سبق لتلك الشعوب فى علم الله [4] .

---

(١) عاش ابن النفيس فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، كان طبيبا مصريا أو سوريا ، وتوفى فى القاهرة (لافى دمشق) عام ١٢٨٨ م . انظر سارتون (*Introd.* 2: 1099-1101) ثم ماكس مايرهوف Max Meyerhot «ابن النفيس ونظريته فى الدورة الدموية الصغرى» (*Isis* 23: 100-20, 1935) ويعمل يوسف شاخت Joseph Schacht فى طبعة لكتاب فاضل ابن ناطق وترجمة جزئية لها الى الانجليزية (*Isis* 37: 194)

(٢) فى ما يتعلق بابن طفيل فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر انظر *Introd.* 2:354 . وأحسن طبعة لقصة حى بن يقظان هى التى أشرف عليها المرحوم ليون غوتيه Léon Gauthier ، وجعل معها ترجمة افرنسية . بيروت ١٩٣٦ (*Isis* 30: 100-03)

(٣) عاش يوسبيوس Eusebius of Caesarea فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ، ولد فى فلسطين وكان اسقفا على قيسارية من عام ٣١٣ الى وفاته عام ٣٤٠ (*Introd.* 1: 357) وهو أحد مشاهير المشارقة فى العصر الرومانى .

(٤) ان مثل هذا الجدل العقيم قد انغمس فيه عدد من الذين ينتمون الى أمم سائدة فى العالم ، اذ يظنون أن سيادة أممهم ليس أمرا عرضا ، بل هو ثمرة تفضيل الله لهم على غيرهم . وهنالك مثال صالح على ذلك فى كتاب : Bossuet : *Discours sur l'Histoire Universelle* (1681).

تاخر المسلمين روحي لاساس

قام البرهان مرارا وتكرارا على أن الانحطاط الروحى مستقل عن الهزائم العسكرية والكوارث السياسية . ان هولندة مثلا — وقوتها المادية ليست سوى ظل للقوة التى تمتعت بها فى القرن السابع عشر — لا تزال أمة من أمم العالم البارزة فى ميدان الآداب والعلوم . وقام البرهان على ذلك فى أمم أخرى ، أمثال بلچيكا وسويسرة والدول السكندينافية التى لا تتمتع الا بقوة يسيرة ، على حين هى مع ذلك تقود العالم فى الأمور الروحية من كل فن،ثم هى مراكز ثقافية من الدرجة الأولى .

لا ، ان التقهقر فى الاسلام لم يكن نتيجة لفقدان القوة المادية والسيادة السياسة ، ولا لنقص فيهما ، بل لأن القــوة الروحية فى نفسها ذهبت ان الشعور بالتفوق ، الذى تشعله فينا ذكرى الأعمال المجيدة التى قام بها أسلافنا أمر خطير جدا ، وخصوصا اذا رافق ذلك الشعور تقاعس فى بذلنا للجهود . والشعوب التى تأتى بجلائل الأعمال لا تتشدق بالفخر بها ، لأن وقتها يضيق عن ذلك ؛ ولأنها تكون منصرفة الى تحقيق غاياتها ، لا الى استجداء آراء الآخرين . ولكن الأمم اذا أقبلت على الهرم ، ثم نسيت أداء رسالتها ، فانها ربما عادت الى الاستغراق فى الذكريات وفى التبجح بها . ولا يكون من ذلك ضرر على الأفراد الذين يقضون على هذه الأرض حياة قصيرة ؛ من أجل ذلك تتجاوز لهم عن مدد يسيرة ينامون فيها فى الشمس قبل أن يودعوا هذه الحياة الدنيا . ولكننا نجد ان هذا أمر خطير جدا فى حياة الأمم ؛ فان الأمم اذا أخذت بالنوم على أكاليلها ، ثم شرعت تتبجح بماضيها من غير أن تعمل لمستقبلها شيئا ، فان شمسها حينئذ تكون آذنت بمغيب — وتكون مقضيا عليها بالانحطاط .

الامم لاتموت ولكن تنحط

على أن هذه الأمم تظل موجودة ، لأن الأمم فى العادة لاتموت ، ولكن يقضى عليها بأن تنحدر الى مستوى الحياة اللينة الهينة . وهذا ما اتفق تماما

للاسلام ، حين توقفت جهوده المبدعة ، ثم أضيفت الى ذلك مبالغة فى الصلاح والتقوى وفى الاحتقار للآخرين . بعدئذ خبا ذلك النور الداخلى فى المسلمين ، حتى خسر ايمانهم قوته وصفاءه . حينئذ حلت الخرافة عندهم محل الدين ، والحمية الجاهلية محل العقيدة ، والحسد والكراهية محل الحب .

ويحسن أن نمد القول قليلا على السبب الأساسى لذلك الانحطاط ليشمل الخرافات ، لأنها أشد أسباب الانحطاط ختلا ، أى على غرة . ونمو الخرافات فى الأمم ليس السبب الأساسى الوحيد للانحطاط ، ولكنه أشد أعراض الانحطاط ظهورا . فاذا نحن شهدنا هذا العرض فى أنفسنا وجب علينا أن نأخذ حذرنا ، وأن نبدأ بوقاية أنفسنا . والجدير بالذكر أن أهل العصور الوسطى لم يكونوا يدركون ذلك كما ندركه نحن اليوم ، ولكن الخرافات تطيب دائما للجهلة الذين يتطلبون أجوبة على أسئلتهم من النوع الذى يجيده العرافون . كذلك كان شأن الناس دائما من قبل فى أدوار الانحطاط ، وكذلك سيبقى أبدا . من أجل ذلك امتزجت الخرافات بالعلم نفسه ، حين ضعفت الجهود العلمية فى الاسلام، ومن هنا كان منشأ الداء القتال . ان الآثار العربية العلمية التى شرفت بعدد من روائع الانتاج العقلى انحطت بسيل من الكتب فى التنجيم والصنعة [1] والسحر [2] . ويبدو تسرب السحر الى كتب الرياضيات فى كتاب لمؤلف روحانى من الجزائر اسمه أحمد بن على البونى ، عاش فى

---

(١) الصنعة هى الكيمياء القديمة ،وهى محاولة تحويل المعادن الخسيسة، كالنحاس والقصدير ، الى معادن شريفة ، كالذهب والفضة . (ع.ف) .

(٢) من المؤسف أن يكون ثمة كلمة تميز الصنعة الرديئة (راجع الحاشية السابقة) من الصنعة الصالحة اى الكيمياء ، كما أن عندنا كلمة تنجيم التى هى كلمة فلك . ومع ذلك فان عددا من كتب العرب فى الصنعة قد احتوت على ابداءات من علم الكيمياء الحديثة ، بينما هنالك عدد آخر مملوء بامور السحر . وربما وجدنا شيئا من المعرفة الايجابية وشيئا من أمور السحر ممتزجين معا فى كتاب واحد .

النصف الأول من القرن الثالث عشر . ولكن أحسن تعليل لهذه القضية ، قضية السحر والخرافات والتنجيم عند المسلمين ، ثم رفضها قد ورد عند مفكر من أبرز المفكرين فى العصور الوسطى كلها شرقا وغربا ، هو العالم التونسى عبد الرحمن بن خلدون الذى شهد النصف الثانى من القرن الرابع عشر [١] . تأمل قوله عند الكلام على الهندسة [٢] .

« واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها اضاءة فى عقله ، واستقامة فى فكره، لأن براهينها كلها بينة الانتظام جليلة الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها، لترتيبها وانتظامها ، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع [٣] . وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن علينا ، وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذى يغسل منه الأقذار ، وينقيه من الأوضار والأدران [٤] ، وانما ذلك لما أشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه » .

فعل الخرافات

ومع كل ما فى هذه العبارة من الأطناب فهى مما يدعو الى الاعجاب به، لأنها اصابة لكبد الحقيقة . أجل ، ان الخرافات تقوم فى العقل الانسانى مقام الأقذار والطفيليات فى الجسم الانسانى ، ثم هى سبب لخجل

---

(١) ابن خلدون (ت ١٤٠٦ م) ، انظر *Introd.* 3: 1766-79 · ولمناقشة آراء ابن خلدون فى الماورائية ، وفى أصناف المدركين من البشر بالفطرة والرياضة ... والوحى والرؤية ــ انظر ــ المقدمة ص ٩١ ، وما بعدها) *Introd.* 3: 1772

(٢) مقدمة ابن خلدون (باريس ١٨٥٨ م) ٣ : ١٠٢ · الترجمة · الفرنسية (باريس ١٨٦٨ م) · راجع : *Introd.* 3: facing 1019, 1777 هذا النص فى طبعة بيروت (المطبعة الادبية ، الطبعة الثالثة ، وكذلك ص ٤٨٦ . (ع . ف) .

(٣) المهيع الطريق الواسع الظاهر . (ع . ف) .

(٤) الوضر الوسخ الناتج من الدسم كالتلوث بالزيت أو السمن ، الدرن الوسخ . (ع . ف) .

فاضح . ولكن النـاس الذين يصابون بالخرافات وبالقمل لا يدركون — لسوء الحظ — ما هم فيـه من البلية ، لأنهم ينساقون أبدا الى أن يزيدوا ما هم فيه ، وأن يصموا أنفسهم بذلك أشـد الوصم . أما نحن فيجب أن نرجع الى أنفسنا ، وأن نغتفر للعرب تلك الخرافات التى ذهبت بثقافتهم ، ذلك لأن ثقافتنا نحن فى أمريكا لا تخلو [١] من الخرافات أبدا . فالمنجمون وقراء الكف والعرافون وسواهم من أصحاب الكهانة ، تزدهر أعمالهم فى مدننا المتخايلة بنفسها . أما أعمدة الجرائد المخصوصة بالتنجيم فتدل على فقدان المبادىء ، وعلى الفساد فى أصحاب تلك الجرائد [٢] . وان مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة بين المسلمين — على الرغم من أنه لم يستطع الا أن يصدق بعدد منها — أمر مفرد فى آثار العصور الوسطى . غير أن الأمر تفاقم بعد عصر ابن خلدون ، فحدث رد فعل متعانق الحلقات ، ينتقل به المسلمون من الأخذ بخرافة الى الأخذ بثانية ، فثالثة فأكثر . بعدئذ فتح الانحطاط الروحى فى الاسلام الباب للخرافات شيـئا فشيئا ، ثم هـدمت الحواجز العقلية التى تحـول عادة دون

---

(١) المؤلفات فى الخرافات العربية كثيرة . انظر دائرة المعارف الاسلامية مقالة كاهن Kahin ، وقيافة Kiyafa وسحر Sihr ، الخ (Isis 33:298-99) . أنظر كذلك (Walker : *Folk Medicine in Modern Egypt*, London 1934) وكذلك (Isis 24: 294)

ولمعرفة خرافات الصـابئة التى تمثل جميع خرافات الشرق الأوسط انظر : Drower (Ethel Stefana Stevens): *The Book of the Modiac*. (Royal Asiatic Society, London 1949).

(٢) فيما يتعلق بالخرافات الاميريكية أنظر :

Gilbert Seldes: *The Stammering Century,* New York, 1928. Charles Wright Ferguson: *The Confusion of Tongues*, New York 1928, Bart J. Bok and Margaret W. Mayall: Scientists Look At Astrology, Scientific Monthly, March 1941 (*Isis* 35: 181-182, 40: 79-81).

الخرافات ، بتأثير بعض الفقهاء الجهلة المتعصبين[1] . ثم ان الخرافات الجديدة زادت فى سذاجة العامة وجهالتهم وغبائهم وتعصبهم ، وهـذه بدورها أدت الى نشوء خرافات جديدة ، وهلم جرا .

وتحرجت الحال تحرجا شديدا ، اذبينما كانت الجهود العربية تتضاءل ، والشعوب العربية تصبح فريسة للخرافات المتزايدة ، حتى فقد الأمل بانقاذها ، اكتشفت الشعوب الغربية (اللاتينية) سرا من أسرار المعرفة والحياة الثرة[2] ؛ ذلك السر الجديد هو العلم التجريبى الذى خلق فى غضون بضعة قرون ثقافة جديدة ، بل أحدث ثورة فى العالم كله — فى العالم الروحى وفى العالم المادى معا[3] . ولم يكن للشعوب التى تتكلم العربية نصيب من هذا التقدم ، اذ تقدمت الأمم الغربية بخطى واسعة جدا ، على حين وقف العرب . وهكذا تأخروا يوما بعد يوم تأخرا لا أمل بوقفه . ان الاسلام ، وهو ينهض نهضته العظيمة رفع العرب الى الذروة ، أصبح محجوبا بالمسلمين فى الهاوية .

---

(١) كان الحكام أحيانا أكثر تسامحا من الفقهاء ، ولكنهم كانوا مضطرين الى الانحناء أمام عدم التفكير الشائع . مثال ذلك . ان أمراء الموحدين فى المغرب — وكان يظن بهم التعصب — حموا الفلاسفة الكبار من عنت المتعصبين . راجع كتاب Leon Gauthier: *Ibn Ruchd.* Paris 1948 (*Isis* 41: 104-06)

(٢) الثرة العين الغزيرة الكثيرة الماء والحياة الثرة ذات النعم العميمة (ع . ف) .

(٣) انتشرت خرافات كثيرة فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ، ولوصف هذه الخرافات انظر :

Lynn Thorndike: *History of Magic and Experimental Science*, 6 vols. New York 1923-41 (*Isis* 6: 74-89, 23: 471-75; 33: 691-712)

غير أن الخرافات المسيحية كان يقابلها على كل حال مجموعة من المعارف ومن الفقه العقلى (وخصوصا عند القديس توما) . أما فلسفة ابن رشيد فانهزمت تماما بين المسلمين ، ثم قضى عليها فى الشرق ، بينما حورها الغرب تحويرا يوافق المسيحية .

على أن هذا الحكم ليس مبرما على كل حال أبدا ، بل يصح يتبدل بسرعة . ان شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى — طوال ألفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ، ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا ، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد .

وفى المرحلة الأولى التى قاد الشرق الأوسط فيها العالم ، وضحت العبقرية المبدعة لتلك الشعوب ، فكان من الشرق الأوسط أول البناة بالصخر ، وأول الكاتبين بالقلم ؛ وذلك لأن تلك الشعوب استيقظت قبل سواها من شعوب العالم . وأما المرحلة الثانية فكانت أقصر مدى ، ولكن كثيرة الخصب . وبذا سبقت شعوب الشرق الأوسط أهل اليونان فى ميدان المآثر العلمية ، أو أنها أمكنتهم من الاتيان بتلك المآثر ، ثم تبدلت الحال . لقد كانت الشعوب التى تتكلم العربية فى الشرق الأوسط نقلة العلم اليونانى الى الغرب ، غير انهم لم يكونوا نقلة فقط ، ولكنهم على عكس ذلك زادوا ذلك التراث اليونانى ، ثم أورثوه الى الشعوب اللاتينية أغنى مما كان . ولم يكن تفوق العرب فى ابتكارهم المبدع بقدر ما كان فى ثباتهم وفى شدة حبهم للعلم ، اذ فهموا يومذاك (وهذا ما نسوه بعد ذلك) ان المعرفة يجب أن تبنى على أساس صحيح ، وأن جذور كل ثقافة اذا لم تكن عميقة عمقا كافيا لا تلبث أن تذوى ثم تموت . ولقد كانت جذور دينهم عميقة عمقا كافيا ، وجذورهم العلمية — لوقت ما على الأقل — الجذور اليونانية . وكذلك أدرك قادة الفكر فيهم بوضوح أن الانسان اذا أراد أن يكتسب المعرفة العلمية ، فانه لا يستفيد من البدء بالقمة ، من طريق استعارة التطبيقات العملية الأخيرة ، بل يجب أن يشرع من الأساس بالمبادىء الأولى . وانه لمن السهل أن نجنى الفواكه اليانعة من أعالى الشجرة — وكل أحمق

يستطيع ذلك — ، ولكن من الصعب أن نستنبت أشجارا صحيحة تعطى فاكهة وافرة فى ابانها . والدرس الذى يجب على شعوب الشرق الأوسط أن تتعلمه من جديد هو أنه ليس الى العلم طريق مختصرة . ان من السهل أن ندرس علم الحيل [١] ، وقد لا يكون من الصعب أن ندرب المهندسين ؛ ولكن تربية الانسان على العلم مهمة شاقة طويلة الأمد . ان الاتيان بالمآثر المبدعة فى العلم وفى التعليم تقتضى تفانيا متصلا طوال سنين عديدة ، بل طوال حياة كاملة . غير ان الحياة قصيرة ، وكل رجل علم يورث أولئك الذين يأتون بعدة مشاكل تنتظر حلولا .

ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تبارى أسلافها ، وأن تستعيد ثانية مكانتها الأولى فى قيادة العالم ، ومع أن ذلك ليس سهلا — ثم هو يصبح أشد صعوبة يوما بعد يوم — فانه ممكن .

بدء التجدد

ان بداءة حميدة قام بها فى الميدان الدينى الشيخ محمد عبده [٢] ، وهكذا أخذ الجو الاسلامى يصفو . وكذلك اليهود والنصارى فى الشرق الأوسط ينالون عناية أكبر من تلك التى نالوها فى الماضى ، بينما المستوى التهذيبى قد ارتفع كثيرا ، فى بلاد عديدة . ومما يدخل السرور على قلبى أن قسما كبيرا من ذلك المنهاج التهذيبى قام به أمريكيون ، وأنا أردد هذا القول مشيرا الى الجامعة الأميركية فى بيروت التى كانت ظئرا لرجال صالحين ، ونبعا دائما لحسن النية [٣] . ان الجامعة الأميركية فى بيروت ، والكليات

---

(١) علم الحيل هو علم استعمال الآلات لرفع الأجسام الثقيلة أو تحريكها ، وهو المعروف فى اللغات الأوربية باسم الميكانيكا Mechanics

(٢) للكلام على محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٥٠ م) انظر دائرة المعارف الاسلامية *Enc. of Islam*) وهنالك أيضا ترجمة لرسالة التوحيد ، باريس ١٩٢٥ (*Isis* 9: 456-57).

(٣) انظر (*Isis* 19: 322-29, 1933) ، وكذلك .

Stephen B. L. Penrose, Jr.: *That they May Have Life, the Story of the AUB* 1866-1941, New York 1941 (*Isis* 34: 40-41; 39: 7).

الأميركية فى القاهرة واستانبول وبغداد لم تقتصر ببـلاد الشرق الأوسط على نشر روح طيـبة فحسب ، بل خلقت فيه أيضا منافسة خيرة ، اذ دفعت المدارس الأخرى الى تحسين طرق التعليم فيها . من أجل ذلك لا يستطيع الانسان أن يفى المشرفين على هذه المعاهد الأمريكية حقهم من الشكران ، وكذلك القائمين بادارتها على ما أولوه من هبات مباشرة وغير مباشرة فى سبيل العلم . ثم ان الاستقلال السياسى ملأ جميع البلاد بروح الطموح ، وليس ثمة ما يمنع طموح تلك البلاد أن يتحقق اذا أتيح له سند من الأعمال والتضحيات المتوالية ، لا من الكلمات فحسب . هنالك مشاكل يجب أن تنتظر حلولا ، ولكنك حيث تجد ارادة فأنت واجد طريقا ؛ وهذه الطريق يمكن أن تكون طويلة ، ولذلك كانت الحاجة الى الصبر كبيرة . أما النقطة الأساسية فى الموضوع فهى أن ندرك أن الأعمال العلمية يصعب القيام بها ، وان على الانسان أن يشمر عن ساقه ليبذل جهودا جبارة فى سبيل ذلك أما الذين يخدعون أنفسهم ، فيفكرون بأن التغلب على المصاعب أو الاحتيال عليها سـهل ، فأولئك كتبت عليهم الخيبة . ان الجهود اليسيرة تضيع دائما .

والمدنية ليست مرضا حتى يمكن الشفاء منه ، بل هى كفاح علينا أن نجالد فيه مرة بعد مرة ، ثم هو كفاح لا يخلو من اخطار . ان حـريتنا ومعارفنا وما فى حياتنا من النعم كلها لنا ولكنها لنا « تحت التجربة » . لذلك يجب علينا دائما أن نبرهن على أننا نستحقها ، أو نخسرها . واذا اتفق أن ضعفت عزائمنا فاننا نبدأ حالا فى الانحدار ، لأن كفاح الظلم والخطأ والقبح والفقر لا يجوز أن يهدأ .

والتقدم أيضا روحى لامادى

أنا لا أزال أؤمن بالتقدم كما آمن سنكا [1] ، لا كما يفعل أنصاف المتعلمين الذين يقيسون التقدم بالشاقول [2] أو بمقدار ما فيه من الرفاهية.

---

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ٨ ، وحاشية ٤ فى الصفحة نفسها .

(٢) الشاقول آلة يقاس بها استواء السطوح القائمة ، والمقصود بذلك قياس التقدم قياسا ماديا لا روحيا . (ع . ف) .

ولكن التقدم المادى الخالص مدمر ، وهو ليس تقدما على الاطلاق ، بل تأخر أساسى . ان التقدم الصحيح — ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة — لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات [1] ، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن ، وفوق ذلك كله على العلم ، أى العلم الخالص ، ومحبة الله ومحبة الحقيقة ، وحب الجمال ، وحب العدل . وهذا يبدوا لنا جليا حينما نلقى نظرة واحدة الى الماضى . من هم أولئك الذين كانوا رجالا عظاما فى التاريخ ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا الينا ؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها ؟ لقد كانوا رجالا أمثال أفلاطون ، وأرسطو ، وأقليدس وأرخميدس ، فى تاريخ اليونان . أما أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالا من أمثال الفارابى ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، والغزالى ، وابن رشد ، وموسى بن ميمون ، وأبى الفداء ، وابن خلدون . هؤلاء الرجال لم يكونوا يعيشون فى فراغ اجتماعى (فى معزل عن الناس)، وفى أيامهم كان الحكام ورجال المال أكثر شهرة منهم . ولكن الحقيقة أخذت تتجلى تدريجا ، وها هم أولاء (وأندادهم) هم وحدهم الذين يذكرهم الناس اليوم ، أما الملوك والسلاطين والوزراء فقد عفى عليهم النسيان . ان الحكام وموظفيهم كانوا يعملون ليومهم ولسنتهم ؛ أما العلماء ورجال العلم فكانوا يعملون للخلود . وها نحن أولاء نشعر شعورا مكينا بالدين الذى لهم فى أعناقنا ، ونجزيهم على ذلك بعرفان الجميل . ان ما نراه واضحا حينما ننظر الى الماضى يجب أن يكون واضحا أيضا حينما نسد نظرنا الى الأمام ، فيهدى خطانا الى المستقبل .

قيمة الشرق بين الشرق والغرب

من الناس من يتكلم عن الفرق بين الشرق والغرب . هذا الفرق موجود ، ولكنه أقل أهمية من الفرق بين المادية والنفعية من جهة وبين المثالية من جهة أخرى . وهذه الموازنة الثانية بين المادية والمثالية مستقبلة

---

(١) العتلة اداة تحرك بها الأشياء الثقيلة ، والمقصود الأساس النفعى المادى . (ع . ف) .

عن المكان والزمان . انها وجدت من قبل ، ويمكن ان توجد فى كل زمان ومكان . غير أن هنالك نفرا من الناس يريدون منا أن نعتقد أن سكان الشرق مثاليون ، وان سكان الغرب ماديون ، وهـذا ما يعلل عنـدهم لماذا كان الأولون أغنياء والآخرون فقراء . ولكن هذا بعيد عن الحقيقة ، فهنالك فقر كثير فى الغرب ، وهنالك غنى كثير فى الشرق . ولعل البون الشاسع بين الغنى والفقر -- اذا اعتبرناه من كل ناحية — أعظم فى الشرق منه فى الغرب . ان الأفراد الأغنياء فى الغرب هم على العموم أكثر كرما ، وأوسع احسانا ، وأرجح حكمة فى توزيع احسانهم ، ومن أولئك الشرقيين الذين يمتزج احسانهم فى أكثر الأحيان بحب الظهور وتطلب الوجاهة .

الشرق مهد الدين والعلم والفن

ومع أن الشرق الأوسط كان مهد ديننا ، ومهد مثلنا العليا فى العلم والفن ، فليس من الحق أن نقول انه اليوم أكثر مثالية من الغرب . ولو أننا قلنا ذلك لكان ذلك منا ملقا لا صدقا ، والملق يضر أكثر مما ينفع . أما اعتقادى الخاص ، فهو أن رجال الشرق لا يختلفون اختلافا أساسيا من رجال الغرب . فنحن نجدد فى كل بلد جميع طبقات الناس ، ما بين صرح القداسة وبين هوة الرذيلة . هنالك طبقة نزرة العـدد من الصالحين ، ثم طبقة نزرة العدد مثلها من الطالحين . أما الجمهور الغالب من الناس فهم ضحايا اختلاف أحـوال العيش ، ولكن يمكن اصلاحهم الى حد بعيد بالعدل واللطف ، كما يمكن افسادهم بسهولة اذا فتحنا عليهم أبواب الشقاء والشر والكذب . ان المشكلة الأساسية فى عالمنا اليوم (وفى كل يوم) هى مشكلة رفع المستوى الروحى لمجموع الناس [1] ، فاذا نحن خبنا فى رفع المستوى الذى ينبغى أن يحيا عليه الناس كلهم فان جميع حسنات مدنيتنا تصبح حينئذ نقمة عليهم. ثم تنحدر بهم وتهلكهم ، ونحن اذا جعلنا القيم الأساسية التى نأخذ بها فى حياتنا العدل والاحسان والصدق ، فاننا

---

(١) مجموع الناس يضم الاغنياء والفقراء . على السواء .

قد نجونا . أما اذا جعلنا تلك القيم الأساسية هى الرفاهية والمال ، فسوف نكون من الهالكين .

رسالة الشرق المقبلة

أقول مرة أخرى هنا ان المدنية ليست مرضا ، ولكن من الممكن أن تنقلب عند أهل الجدل شرا وفسادا . والمدنية ليست شرقية ولا غربية ، وليس مكانها فى واشنجطون أكثر مما هو فى بغداد . انها يمكن أن تكون فى كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات ، يفهمونها ويعرفون كيف يستفيدون منها ، من غير أن يسيئوا استعمالها .

والشرق الأوسط (اذا جاز لنا استعمال هذا الاسم) كان مهد الثقافة ، ومنه جاءت أسباب انقاذ العالم أثناء العصور الوسطى ، حينما بدأ الستار الحديدى فى أوربا يشطر العالم شطرين : العالم المسيحى اليونانى الأرثوذكسى ، والعالم المسيحى اللاتينى الكاثوليكى . وها نحن أولاء اليوم ننظر الى ماضى الشرق الأوسط بعين من عرفان الجميل ، ثم نرنو الى مستقبله بعين من الأمل الحلو .

عمر فروخ

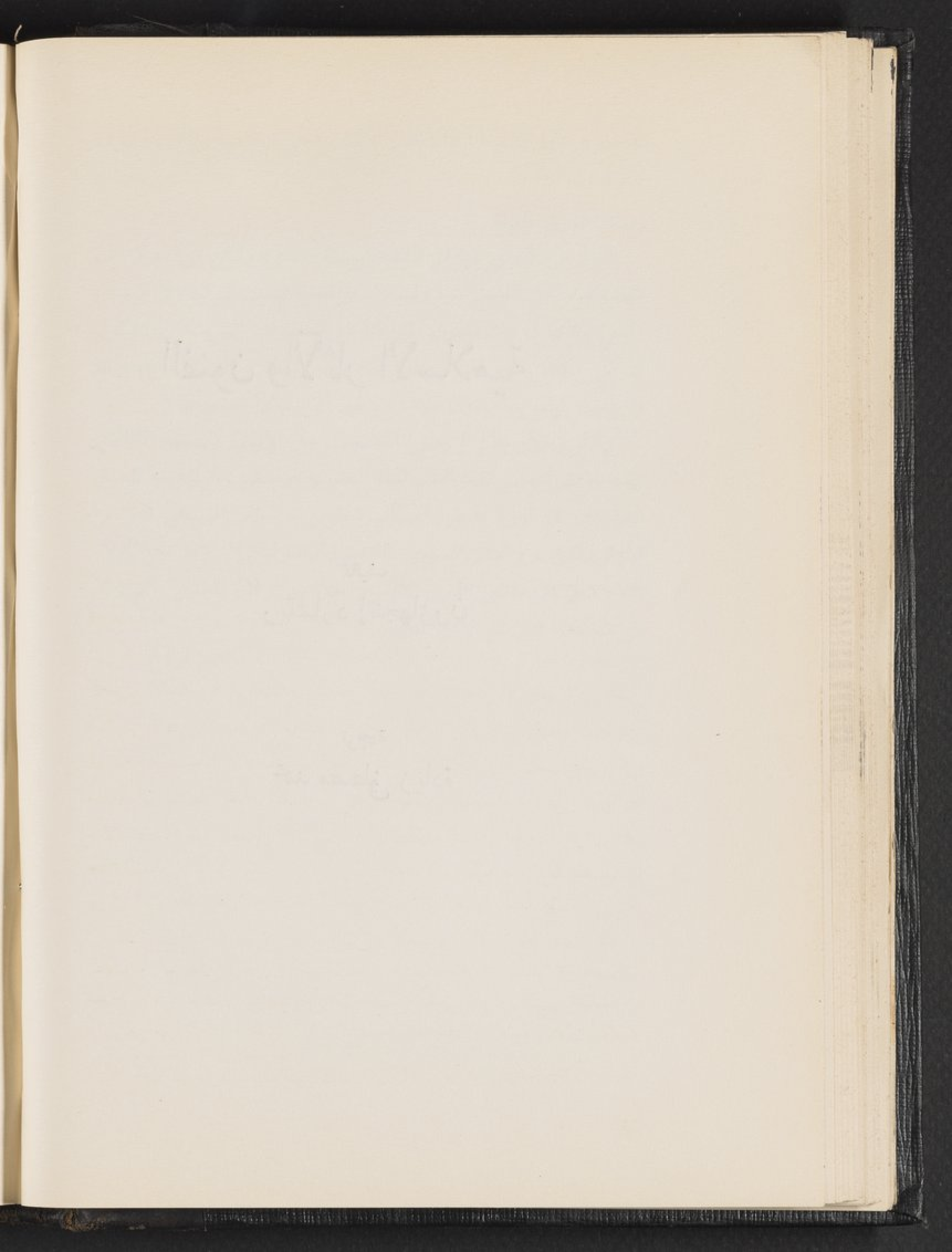
الفنون والآثار الاسلامية

تاليف

ريتشارد إتنجهازون

ترجمة

محمد مصطفى زيادة



يقول العارفون ان لغة الفن « هى اللغة العالمية الوحيدة التى استطاعت البشرية أن تخترعها [١] » . ومن الدليل على صحة هذا القول أن اختلاف الألسنة يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والشعراء فى لغة غير لغتنا ، أو فى بلد غير بلدنا ، الا عن طريق الترجمة ، وأن هذه الأفكار — حتى بعد ترجمتها — لا تستغنى عن التفسير التوضيحى الطويل . أما مبتكرات المعمارى ، والمصور ، والخزاف ، والنساج ، وغيرهم من أرباب الصناعات الفنية ، فهى على اختلاف بلادها سهلة النطق والفهم لاشباع حاسة الجمال فينا ، ولو أن هذه المبتكرات تعوزها بعض شروح الأخصائى ، لادراك ما فيها من فنانة وابداع .

وهـذه الحقيقة تنطبق على فنون جميع الحضارات ، وعلى فنون الحضارة الاسلامية ضمنا ، ولم تكد الفنون الاسلامية تصبح معروفة فى غرب أوربا حتى غدت موضع تقدير ، بل لم تلبث نماذجها التى وصلت الى أوربا ثم أمريكا أن احتلت مكانة ممتازة عند المعنيين بالفنون . غير أن الفنون الاسلامية لم تصبح موضع الدراسة الفاهمة الا بعد اثنى عشر قرنا من ظهور الاسلام ، وهذه الدراسة لا تزال حتى العصر الحاضر فى دور البداية . ومع هذا يحق للباحث الأوربى والأمريكى كل منهما أن يغتبط لقيام الغرب على البحث التمهيدى من الدراسة والاستقصاء من أجل الشرق ، وأن يحمد للغرب اجتهاده الباكر فى هذا الميدان ، لا فى جمع الميسور من المادة التاريخية والأثرية فحسب ، بل فى استنباط القواعد الفنية لتقدير منتجات الفنيين المسلمين .

ظل المام الغرب بفنون الشرق الاسلامى ضيقا محدودا طوال العصور الوسطى ، حين وقف الاسلام والمسيحية كل منهما فى معسكر مضاد لأخيه ، ليس بينهما من الاتصال السلمى سوى النزر المتقطع . وبالرغم من ذلك استقبلت بلاد المسيحية نماذج الفنون الاسلامية

---

(١) انظر : Morey: The Fine Arts in Higher Education, p. 4.

بتقـدير كبير ، وغدت المنتجات الفنيـة التى أبدعتها أيدى المسلمين موضع تشريف فى أوساط مسيحية ، خالتها جـديرة بأن تقرن بأعظم أدوات القـداسة فى الكنائس . من الدليـل على ذلك أن أعظـم كتدرائيـات المسيحية استخـدمت بعض المنسوجات الرفيـعة ، من مختلف دور الطراز الاسـلامية ، غطاء شفافا لحفظ مخلفات القديسين المسيحيين (شكل ٤) أو طراحة أسقفية للصلوات الدينية (شكل ١) ، بل صارت بعض هذه المنسوجات بذاتها موضع قداسة (شكل ٢) . وفى كثير من الأحوال اشتملت هذه المنسوجات على كتابات عربية بعضها تسبيحات باسم الله ، ولكن هذه الدلائل على أصولها الاسلامية لم تمنع من الاعجاب بها ، واستعمالها فى طقوس كنسية مسيحية . وأكثر من هذا أن المصورين المسيحيين أواخـر العصور الوسطى ، وأوائل عصر احياء العلوم فى أوربا ، درجوا على زخرفة أذيال الملابس فى صور العذراء غالبا بأشكال وتزويقات من الكتابة العربية ، وهذا كلما قصدوا أن يصورا العذراء فى ملابس ذات جلال خليق بمقامها [٢] .

ولا يقل عن ذلك أهميـة ومعنى أن بعض الكنائس المسيحية فى العصور الوسطى استأدت — فى طقوسها الدينية — أدوات وأوعية من البللور الصخرى المزوق ، مما يرجع أصل صنعه الى مصر على عهـد الأخشيديين والفاطميين ، فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى ، وذلك بوضع هذه الأشياء الأثرية الاسلامية أو أجزائها فى الأدوات والأوعية الكنيسية وضع الأحجار الكريمة فى المعادن المصوغة ، بدليل بعض الصلبان الكبرى الخاصة بمواكب الأعيـاد والمواسم ، وأحقاق الغفران المتعلقة بالعشاء الربانى ، وتركيبات الاضاءة فى الكنائس . مثال ذلك أن حلقة هلالية الشكل ، منقوشة باسم الخليفة الفاطمى أبو الحسن

---

(٢) ربما ظن أولئك المصورون بعض الأحيان أنهم أخذوا هذه الكتابات من أصول عبرية ، ولكن مما لاشك فيه أنهم كانوا يقلدون الكتابة العربيـة فى تصويرهم .

(٣) من المحتمل كذلك أن هذه الحلقة البللورية استخدمت أولا قمـة لعصاة أسقفية أو لصولجان ، قبل أن توضع فى حق الغفران المصـور هنا .

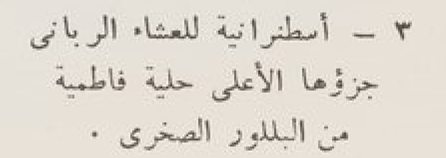


١ ـ طرّاحة أسقفية أصلها طراحة إسلامية من العصر المملوكي ، وهي مطرزة بكلمتي السلطان العالم .



٢ ـ قطعة من القماش تصوّر الخليفة الفاطمي المستعلي ووزيره الأفضل ، وهي الآن رمز قدامة عند المسيحيين .





٣ ـ أسطرانية للعشاء الربانى
جزؤها الأعلى حلية فاطمية
من البللور الصخرى .



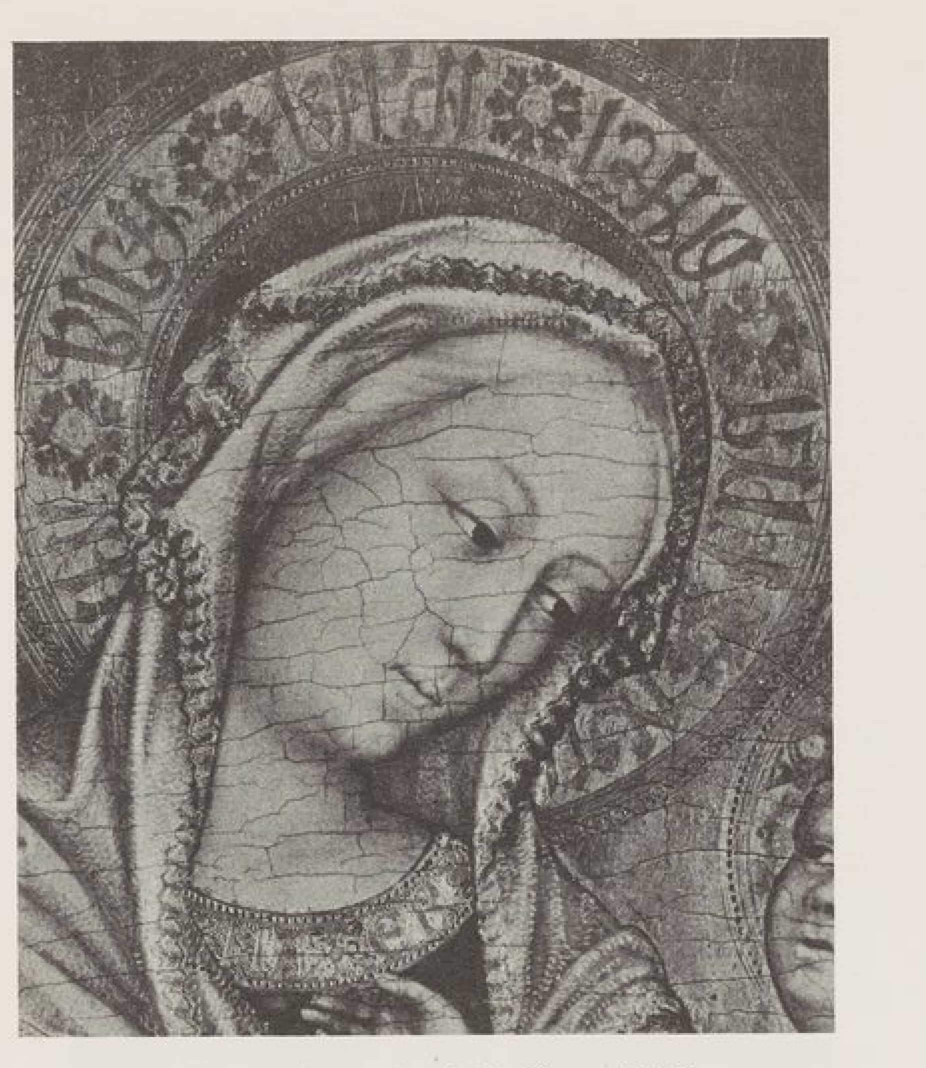
٤ ـ قطعة من قماش إسلامى إيرانى
شفاف ، لحفظ طرحة أثرية من
مخلفات العذراء .



٥ ـ وعاء فاطمى من البللور الصخرى
بكتدرائية القديس مرقص بمدينه
البندقية ، لحفظ الدم المقدس .



٦ — أشكال من الخط الكوفى محفورة فى باب كتدرائية .



٧ — أشكال من الكتابة العربية منقوشة فى هالة العذراء .



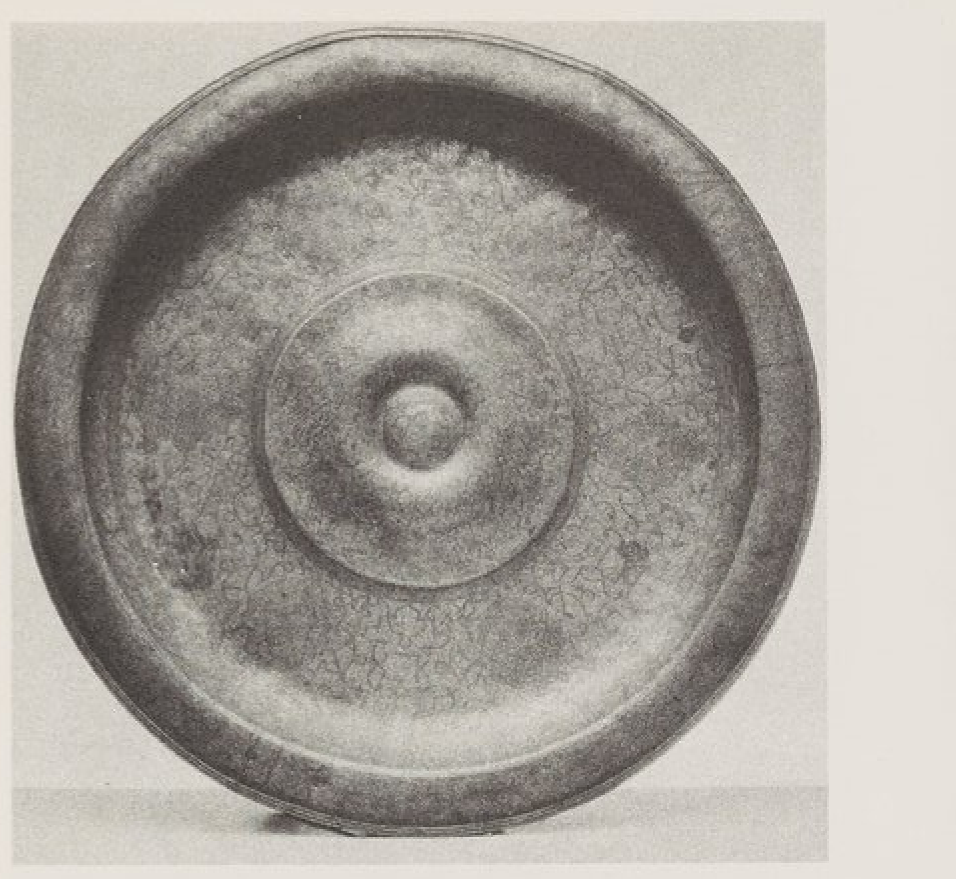
٨ — سجادة إسلامية ذات أشكال هندسية فى تصوير فلمنكى من القرن الخامس عشر الميلادى .



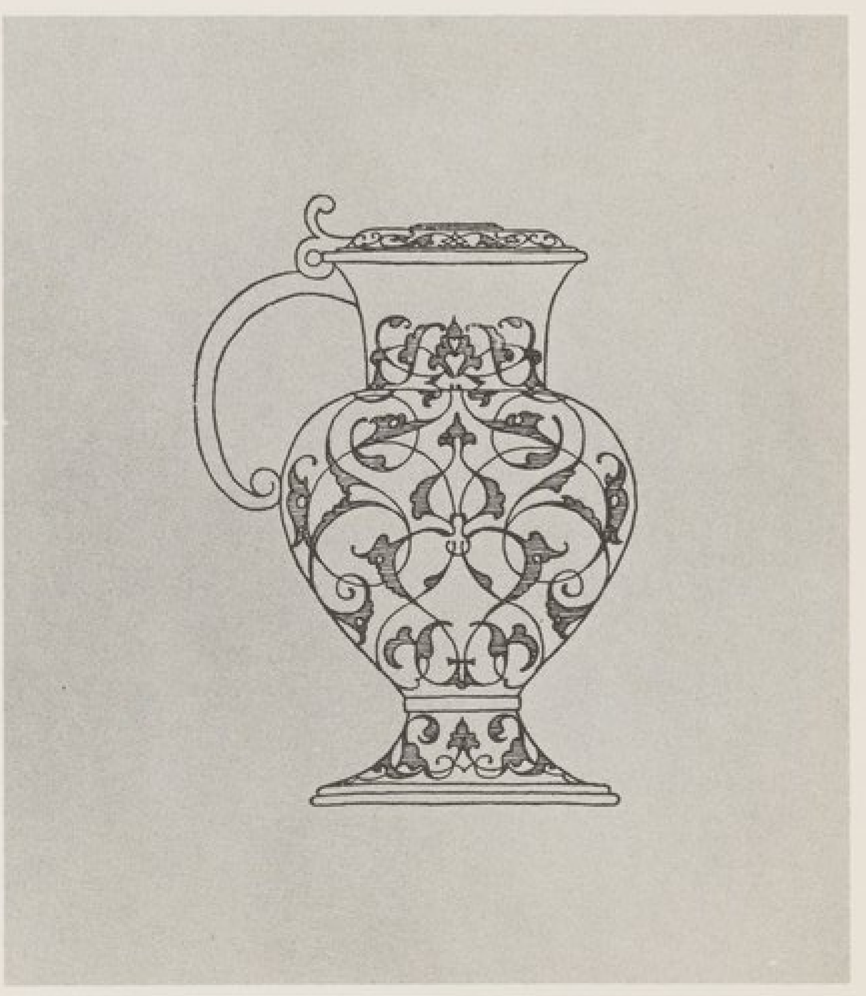
٩ — سجادة إسلامية ذات رسوم حيوانية فى تصوير إيطالى من القرن الخامس عشر الميلادى .



١٠ – نقوش إسلامية فى صينية مصنوعة بمدينة البندقية .



١١ – تقليد أوروبى لصناعة التكفيت .



١٢ ــ زخرفة من أصول إسلامية استعملها هولباين الألمانى فى زخرفة الأوانى والأقداح .

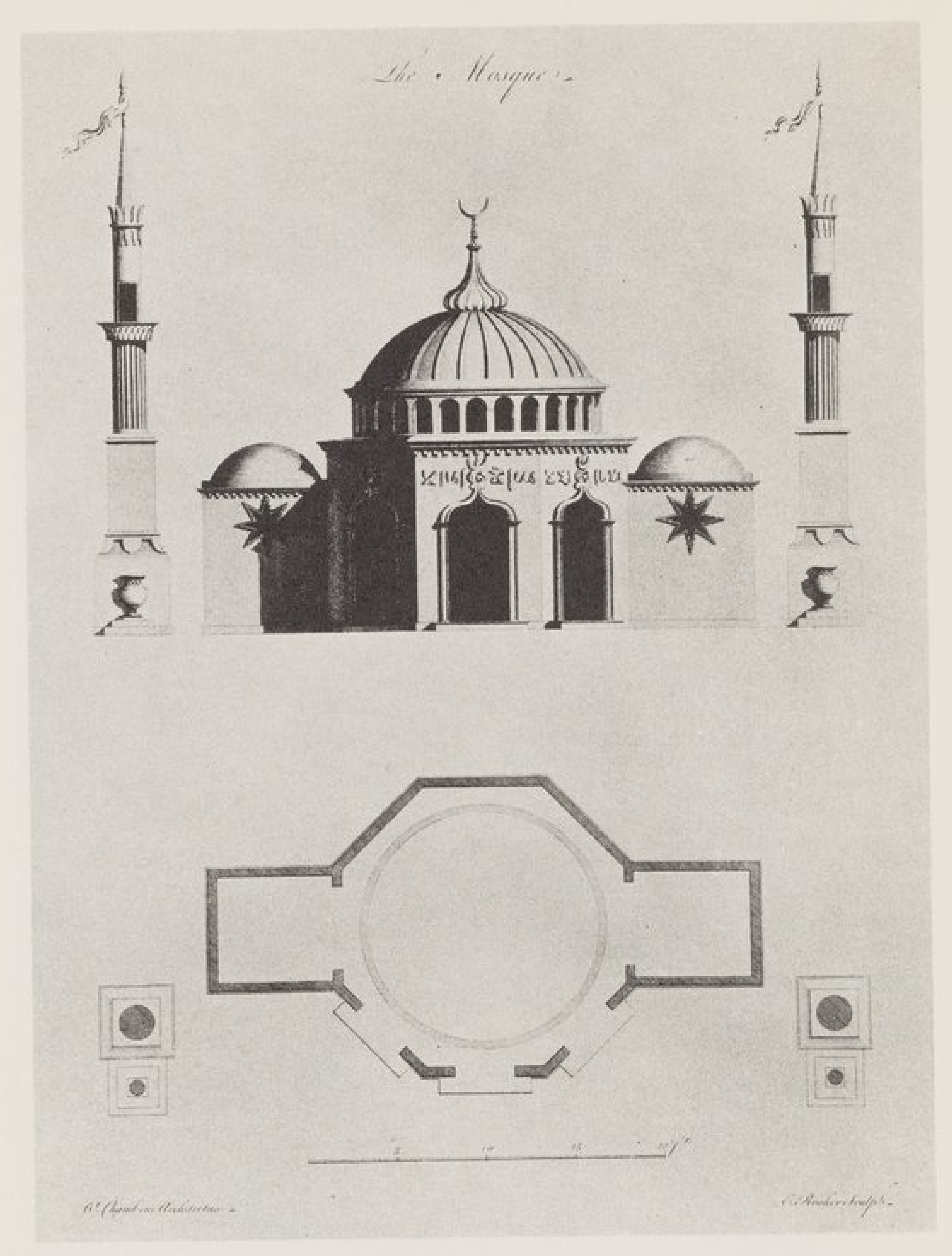




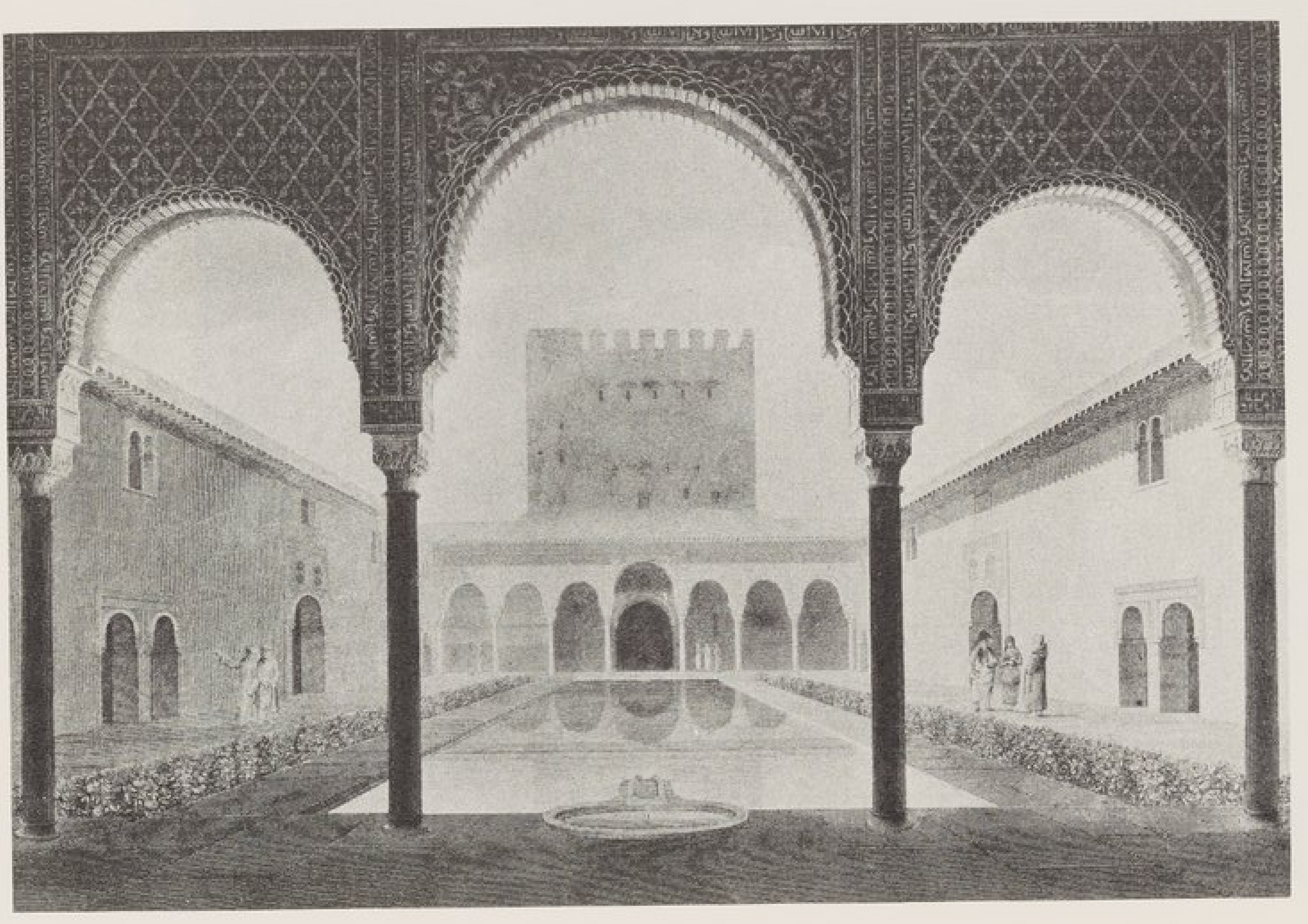
١٣ ــ زخرفة تركية شبيهة بزخرفة هولباين الألمانى .



١٤ — صورة من عمل رمبراندت الهولاندى دالة على معرفته وإعجابه بالتصوير الاسلامى فى البلاط المغولى التيمورى بالهند .



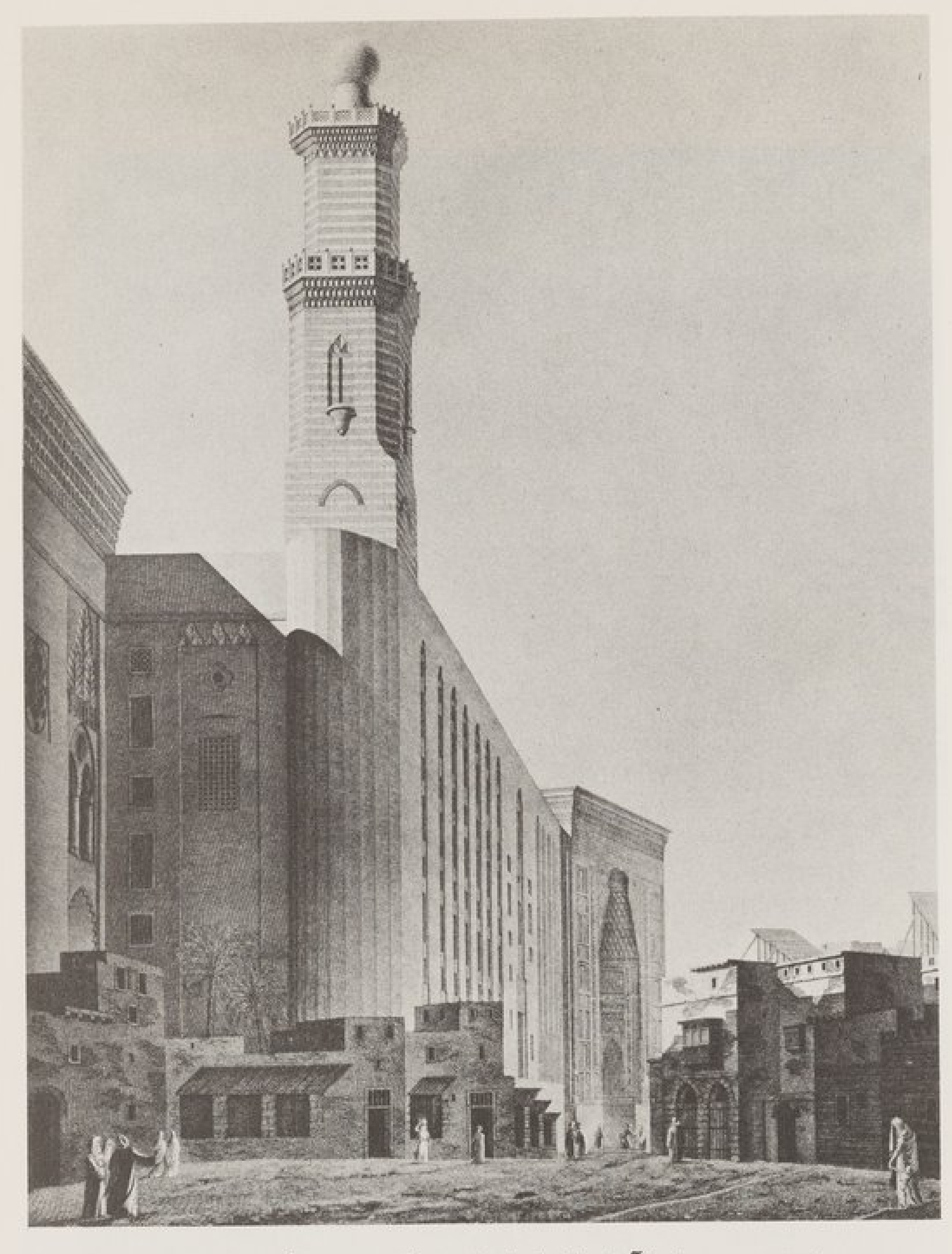
١٥ — الفن المعمارى التركى فى نظر الفن المعمارى الانجليزى فى القرن الثامن عشر الميلادى .



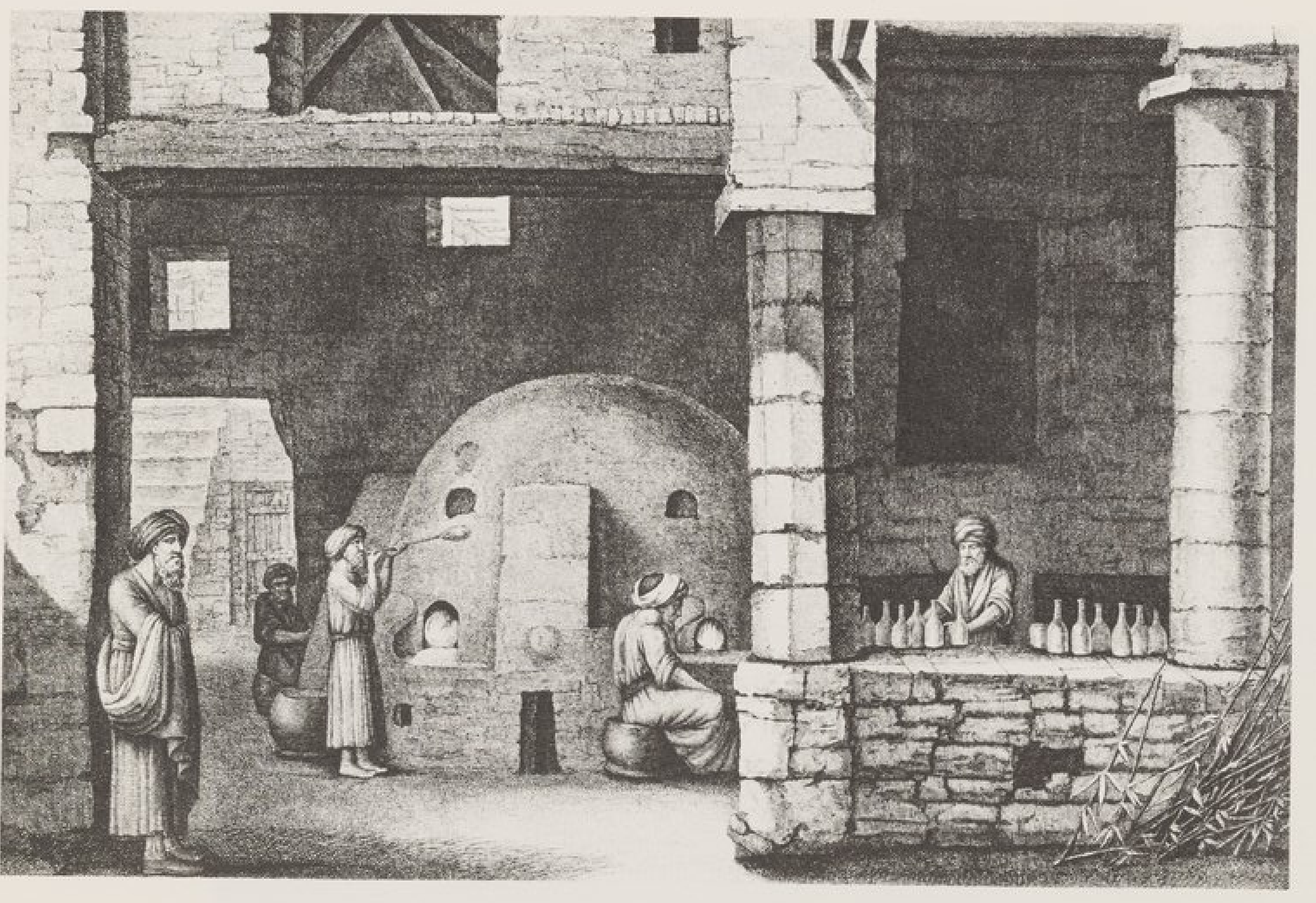
١٦ — يقظة الدوائر الفنيـة الأوروبية لجمال الفن المعمارى الاسلامى فى الصحن الكبير بقصر الحمراء بمدينه غرناطة .



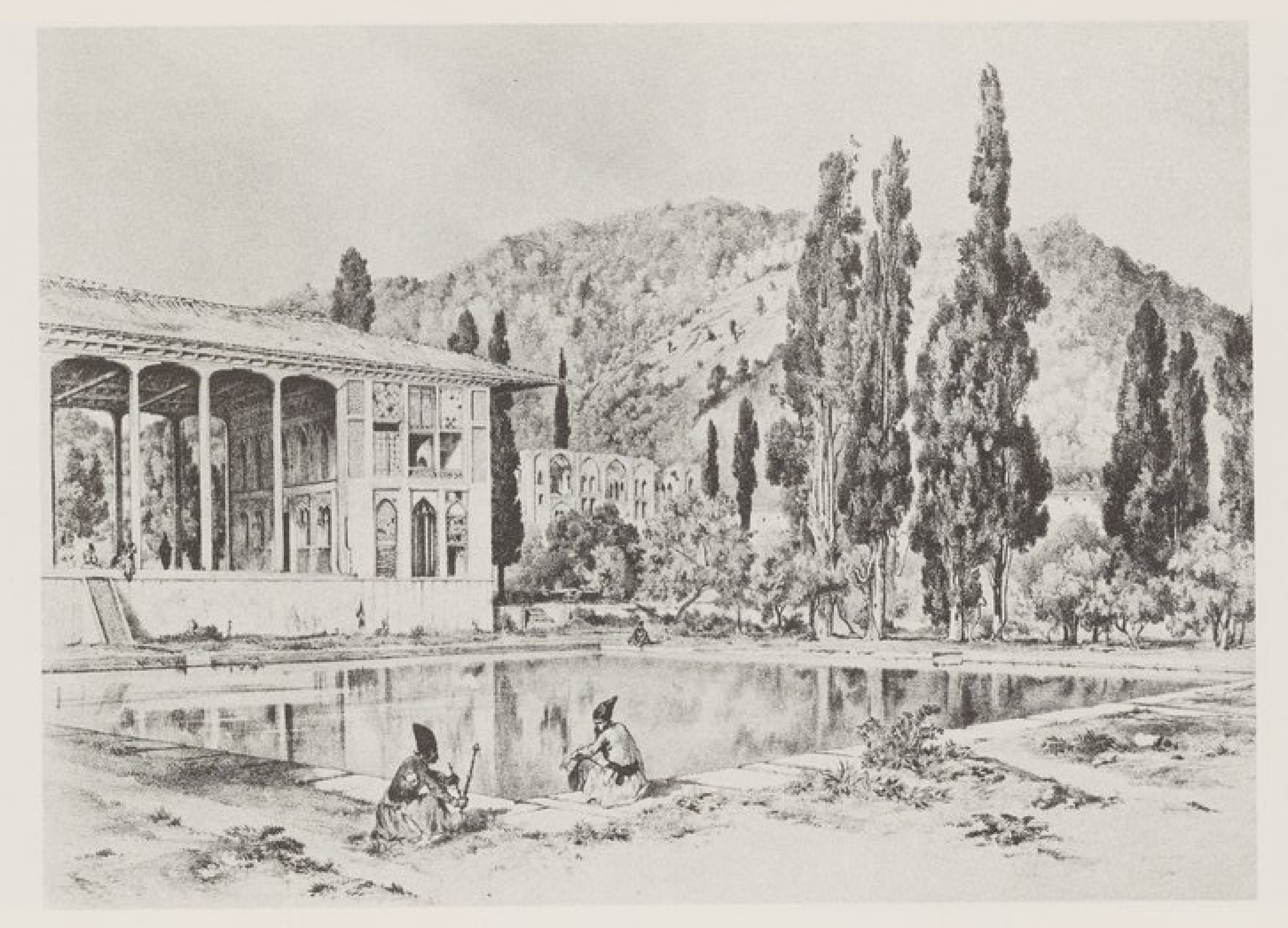
١٧ ـ نظرة رومانتيكية إلى نموذج شهير من نماذج المعمار الاسلامى بمسجد الجمعة بمدينة قرطبة .



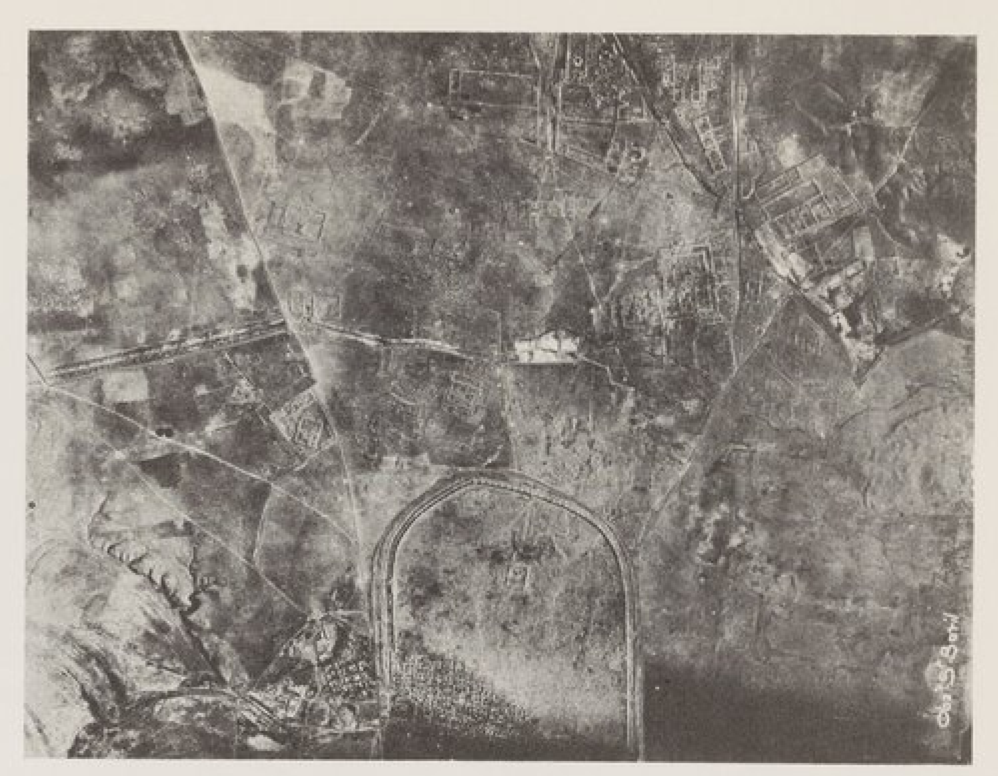
١٨ — تسجيل الآثار المعمارية الاسلامية فى مصر بأمر نابليون .



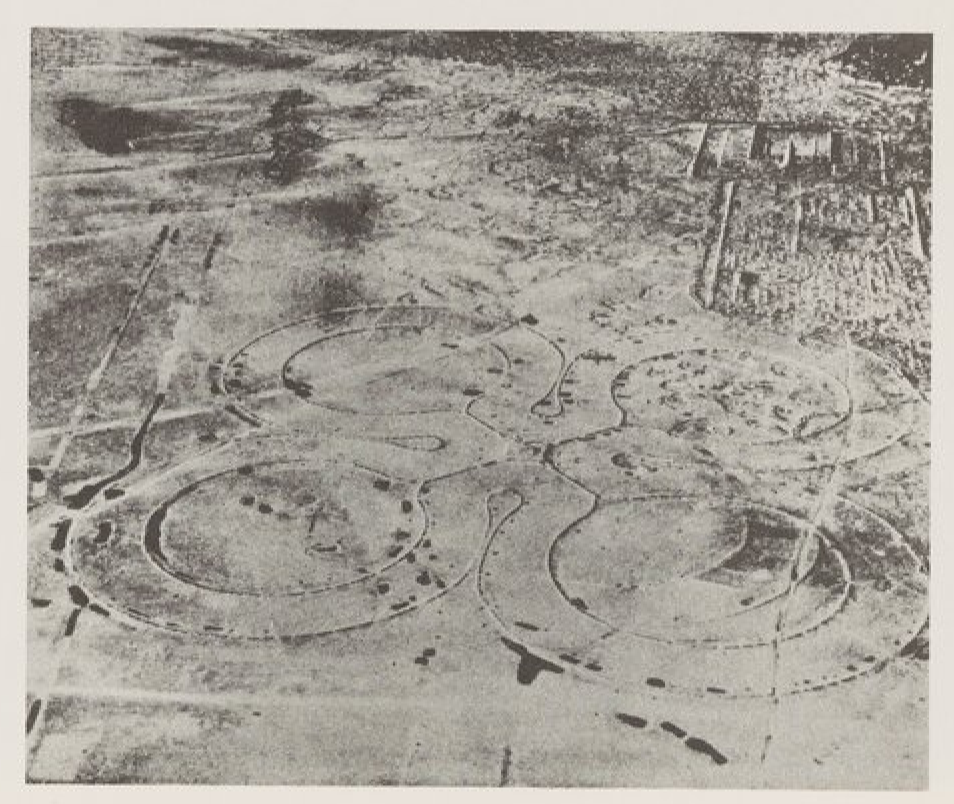
١٩ — تصوير أوروبى لصناعة الزجاج، فى مصر أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .



٢٠ — تصوير أوروبى للقصور والبساتين الايرانية أواسط القرن التاسع عشر الميلادى .



٢١ ـ تصوير جوى لمدينة الرافقة على نهر الفرات من القرن الثامن
الميلادى ، وهى شكل حدأة الفرس .

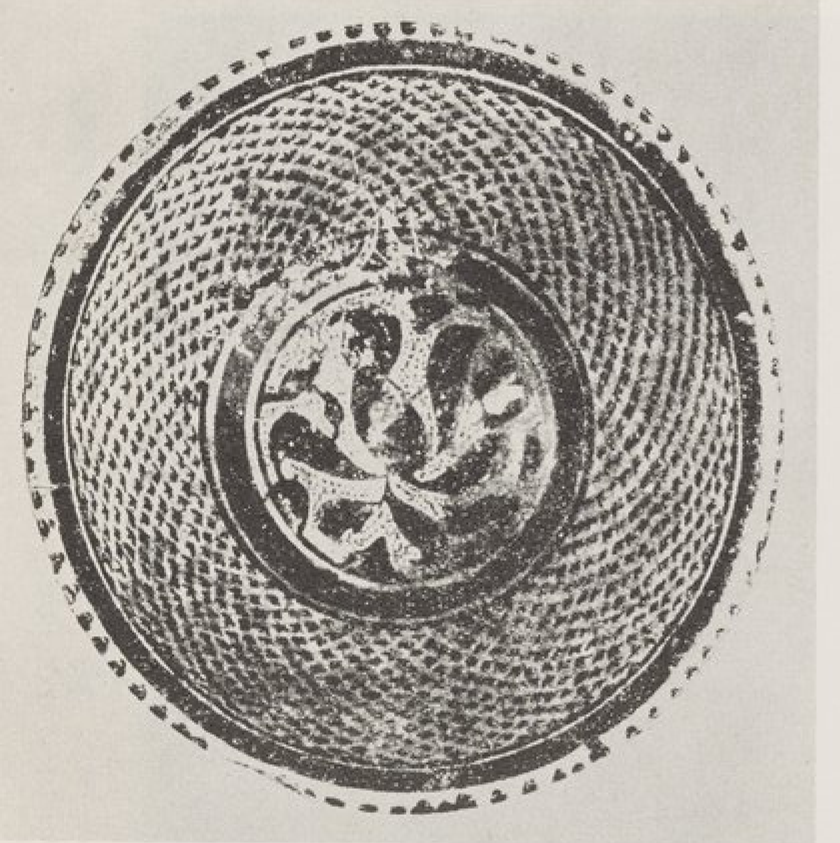


٢٢ ـ تصوير جوى لميدان السباق بمدينة سامرا عاصمة العباسيين فى
القرن التاسع الميلادى ، والميدان شكل ورقة برسيم
وسطه مكان العظماء من المتفرجين .



٢٣ ــ تصوير جوى لمسجد بمدينة إصفهان يشرح البناء الأصلى والزيادة .





٢٤ — ٢٥ — آثار فنية من سراى بركة عاصمة القبيلة الذهبية المغولية ، وهى مدينة أثرية مهملة تقريبا على نهر الفولجا .

على الظاهر لاعزاز دين الله (١٠٢١ — ١٠٣٦ م) تحولت من حلية لرقبة فـرس الخليفة على الراجح الى أعلى جزء من حُقّ للغفـران (Monstrance) من الفن القوطى المحدث (شكل [٣]) .

وأغلب من هذا استعمالا أن أوانى اسلامية من البللور الصخرى صارت أوعية دينية فى الكتدرائيات والكنائس ، وأشهر هذه الأوانى التى غدت من تحف بيوت العبادة المسيحية وعاء الدم المقدس (Reliquiario de Sangue Miraculuso) بكتدرائية القديس مرقص بمدينة البندقية بايطاليا ، اذ يحتوى سطحه الأسطوانى على زخرفـة عربية ، فضلا عن كتابة كوفية فيها اسم الله ، ولم يمنع ذلك من استعماله وعاء لحفظ الدم المقدس . (شكل ٥) . الواقع أن عددا من الكنائس المسيحية يملك كثيرا من هذه الأوعية البلورية الشفافـة ، وهى مستعملة لحفظ مخلفات العذراء ، أوحنا المعمدان ، أو مريم المجدلية ، وغير أولئك من القديسين والقديسات . أما موضع الأهمية فى ذلك كله فهو أن هـذه الأشياء الاسلامية لم تستخدم لأنها أوانى زعيمة بحفظ مخلفات مقدسة ، بل لأنها بسبب شفافتها دلت عقول الناس فى العصور الوسطى على رمز من رموز ميلاد المسيح من العذراء الطاهـرة . أليس من الوارد فى كتب السلف أن المسيح تجلّى فى رؤيا للقديسة بردچت ، وقال : « انى صرت لحما ودما دون خطيئة أو شهوة ، اذ مررت فى رحم العـذراء كما يمر شعاع الشمس فى حجر كريم [٤] » .

ونحن نستطيع أن نذكر أدوات كنسية أخـرى من أصول اسلامية ، وهى مصنوعة من مواد مختلفة ، مثل العاج والمعدن ، لندلل على مدى ما بلغ الاسلام من التأثير فى فنون الغرب المسيحى عن طريق هذه التحف ،

---

(٣) . أنظر :
Lamm : Mittelalterliche Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten, Berlin, 1929-1930, vol. 1, p. 213, no. 21.

(٤) وردت هذه العبارة فى قصة أول رؤيا روحية لهـذه القـديسة الايرلندية ، انظر :
Meiss: Light as Form and Symbol in Some Fifteenth Century Paintings, Art Bulletin XXVII, 1945, p. 177).

ولكنا نمسك عنها خشية الاطالة . وكذلك لسنا بحاجـة الى الاطالة فى شرح أشباه الكتابة العربية فى مختلف المواد والأدوات الفنية فى الكنائس (شكل ٦ — ٧) ، ولا سيما أن هذا النوع من التحلية فى العصور الوسطى ظل موضع الدراسة منذ مائة ونيف من السنين (٥) . على أن واحدة من هذه التحف — وهى السجادة الشرقية — تستحق التخصيص باشارة عابرة ، لأنها خلقت فى الغرب اعجابا متصلا منذ أواخر العصور الوسطى الى العصر الحـاضر ، اذ ازدانت الصور الايطالية من أوائل القرن الرابع عشر الميلاد فصاعدا بأنواع من السجاد الشرقى من مختلف العصور الاسلامية تحت عرش العـذراء ، أو تحت أقدام القديسين ، أو فوق أرضية الغرف والدهاليز ، أو فوق الموائد والمقاعد ، أو غير ذلك من مواضع التشريف فى هذه الصور . (شكل ٨ — ٩) . ثم أضحت صور هذا السجاد الشرقى من الأهمية الفنية بمكان ، لأنها حفظت لنا نماذج سجادية لا وجود لأصولها فى العصر الحاضر .

وفى عصر احياء العلوم فى غرب أوربا لم تكن الفنون الاسلامية ميدانا مغلقا مجهولا ، برغم انصراف العقول فى ذلك العصر الى الفنون اليونانية والرومانية القديمة ، بل أعجب الفنانون الأوربيون بطرق الزخرفة فى

---

(٥) يتضح من شكل ٧ هنا أن تقليد الكتابة العربية مكتوب بطريقـة الحفر والتهشير (hatching)، وهذا الشكل رقم ٧ مأخوذ من كتاب عنـوانه Longpérier: L'Emploi des Caractères Arabes dans l'Ornamentation chez les Peuples Chrétiens de l'Occident. Revue Archéologique, 11, 1845-1846. p. 700. — Reich : « Une Inscription Mamlouk sur un Dessin Italien du quinzième siècle », Bulletin de l'Institut d'Egypte, XXII, 1940. p. 127. حيث توجد قائمة بجميع المصادر فى هذا الموضوع . وتنبغى الاشارة الى أن Reich قصر بحثه فى تلك المقالة (ص ١٢٣ ـ ١٣١) على صورة نقل فيها مصورها الأوربى ـ وهو من أساتذة التصوير فى البندقية فى القرن الخامس عشر الميلادى ـ نص كتابةعربية من مشكاة مطلية بالمينا للسـلطان الملك المؤيد شيخ (١٤١٢ـ١٤٢١ م) ، وهذه الصورة وان لم تكن فريدة فى نوعها فهى نادرة ، وهى محفوظة الآن فى متحف اللوفر بباريس .

الاسلام ، ولا سيما الزخرفة النباتية (arabesque [٦]) . من الدليل على ذلك ما حدث حين قدمت جماعة من أرباب الصناعات المعدنية من الشرق الأدنى الى البندقية فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، اذ أخذت هذه الجماعة تصنع أوانى وصحائف (أطباق) ذات زخارف نباتية بديعة التوزيع والتفريع ، فلم يلبث الفنانون البندقيون أن حكوا هذا النوع من الزخرفة . (شكل ١٠ — ١١) . ثم لم تلبث الزخرفة النباتية برغم تفريعاتها والتواءاتها وتعاريجها أن صارت أسلوبا محبوبا لدى الفنان فى ذلك العصر الاحيائى ، حتى ان المصور الألمانى هولباين الصغير — على أستاذيته وجلالته — لم يتردد فى استنباط نماذج للزخرفة من هذا الأسلوب . (شكل ١٢ — ١٣) [٧] .

ومن المعروف كذلك أن المصور العظيم رامبراندت الهولندى — وهو أستاذ ميدانه وزمانه — كان من أوائل الذين اجتذبهم علوّ المستوى الفنى فى تصوير الأحياء فى بعض الصور التى وصلت الى يده من احدى البلاد الاسلامية ، اذ امتلك منها رامبراندت مجموعة عددها خمس وعشرون منمة مغولية تيمورية ، وبلغ من اعجابه بها أن صور لنفسه نسخا منها ، حين اضطرته ضائقة أحواله المالية الى بيعها سنة ١٦٥٦ [٨] م . ومن هذه المنمنمات المنسوخة واحدة فى متحف اللوفر فى باريس ، ويتضح

---

(٦) لم يصطلح علماء الآثار فى بلاد العربية على ترجمة واحدة لهذه الكلمة المحدثة فى اللغات الأوربية ، فهى عند بعضهم الزخرفة النباتية ، أو التوريقية ، وهى كذلك « الزخرفة الحالمة » ، بل اقترح بعضهم ترجمتها الى « الزخرفة الساكنة » تمييزاً لها من الزخرفة بصور الكائنات الحية ، نظرا لما غلب على الزخرفة الاسلامية من استبعاد أشكال الأحياء ، فى الزخرفة والفنون عامة . زيادة .

(٧) انظر :
Jessen. Der Ornamentstich Geschichte der Vorlagen des Kunsthandwerks seit dem Mittelalter, Berlin, 1 20, pp. 63, 103, 105, 73, and figs. 41, 42, 72
وعن هذا الشكل الأخير نقلنا شكل ١٢ هنا . انظر كذلك شكل ٧٣ ، فى كتاب (Jessen) . وتدل زخرفة غلاف الكتاب المتقدم على مبلغ الاهتمام بالزخرفة النباتية فى أوربا فى عصر احياء العلوم ، اذ نقل المؤلف هذه الزخرفة من كتاب مطبوع فى زيورخ عام ١٥٤٩ ، وهو Floetner: Maureskenbuch وللتعريف بهذا الكتاب انظر كتاب (Jessen) ، ص ١٠٥ .

(٨) انظر :
Sarre: « Rembrandts Zeichnungen nach indisch - islamischen Miniaturen ».

منها ومن اخواتها أن رامبراندت استنسخها كلها فى سرعة ، مع ادراك خارق لكل ما فيها من تفصيلات فنية هامة . وهــذه المنسوخة تصور أشخاصا من السلالة التيمورية اللامعة ، ففى وسط الجزء الأيمن من الصورة تيمورلنك نفسه جالسا تحت الجتر ، أى المظلة السلطانية ، وهى من شارات الملك ، وأمامه السلطانان أكبر وجها نكير راكعان ، ووراءه من ناحية اليسار ثلاثة سلاطين آخرين،لعلهم عمر شيخ ، وبابر ،وهمايون. (شكل ١٤) .

ومما يدل على أن امتلاك رامبراندت لهذه المجموعة من المنمنمات الاسلامية لم يكن من دافع نزوة شخصية ، بل من دافع اعجاب وتقدير ، أن كثيرا من عظماء المصورين الانجليز فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى ، وأوائل القرن التاسع عشر كذلك ، تداولوا امتلاك هذه المنسوخات وأصولها ، وأن سير چوشوا رينولدز ، رئيس المعهد الملكى للفنانين (Royal Academy) فى لندن ،أعجب بمجموعة أخرى من منمنمات فاخرة ، وهى الآن من كنوز المتحف البريطانى فى العاصمة الانجليزية .

لكن الاهتمام الأوربى العلمى بالآثار الاسلامية بدأ منــذ القرن الثامن عشر الميلادى .. ومن أول ما وصل الى أوربا من هذه الآثار مجموعة من نقود ذوات سكة كوفية من القرن الثامن الى القــرن الحادى عشر الميلادى . وكانت هذه النقود وأشباهها مطلوبة أشد طلب فى الشمال الشرقى من أوربا أوائل العصور الوسطى ، ولذا كثر ظهورها فى القرن الثامن عشر الميــلادى فى أعداد كبيرة بكثير من البــلاد الواقعة حول شواطىء البحر البلطى ، وفى بلاد اسكندناوة ، وشمال ألمانيا ، وفى روسيا كذلك . وأدى ظهور هذه المسكوكات الى بحــوث جدية فى النميات (النقود) الاسلامية ، وتألفت حولها مؤلفات غير قليلة . ففى سنة ١٧٢٤م ظهر فى ليبزج بألمانيا بحث من تأليف جورج ياكوب كير [٩] ، وهو بحث أطلق عليه علماء الآثار اسم التأليف الأول فى علم النميات الاسلامية ،

---

(٩) انظر :
Kehr: Monarchiae Asiatice-Saracenicae Status qualis VIII et IX.

لصحة قراءة المؤلف للكتابة فضلا عن جزالة الشروح ؛ وهذا البحث هو الأول كذلك فى علوم الآثار الاسلامية عامة [١٠] .

على أن هذا القرن الثامن عشر الميلادى لم يختتم حتى صار لدينا قوائم (كتالوجات) لمجموعات من النميات الاسلامية بمختلف البلاد الأوربية ، ومن هذه المجموعة الكوفية فى متحف بورچيا فى روما ، ومجموعة متحف نانيانو فى بادوا ، وكلاهما بايطاليا ، ثم مجموعة المكتبة الملكية فى جوتنجن بألمانيا ، ومجموعة استوكهلم بالسويد . ثم انتهت هذه المرحلة الأولى من مراحل الدراسة فى الآثار الاسلامية بتأليف فرايهن أوائل القرن التاسع عشر الميلادى كتابا رتب فيه النقود الاسلامية ترتيبا تاريخيا . وهو على ما فيه من أخطاء تفصيلية صغيرة ما برح غير مسبوق فى ميدانه ، بل لم يقم أحد بأية محاولة جدية فى تأليف آخر يحل محله [١١] .

ولا يزال البحث فى دراسة النميات قائما حتى العصر الحاضر ، اذ جعلها هذا السبق فى الطليعة بالقياس الى الفروع الأخرى من الفنون والآثار الاسلامية . ففى السنوات الواقعة بين ١٨٧٥ و ١٨٩٥ م أخرج ستانلى لينپول كتالوج النقود الشرقية بالمتحف البريطانى ، فى أحد عشر مجلدا . وأعقبته كتالوجات مشابهة فى مجلدات أقل عددا لمجموعات بطرسبرج فى روسيا سنة ١٨٨١ م ، والمكتبة الأهلية فى باريس (١٨٨٧ — ١٨٩٦ م) ، والمتحف السلطانى العثمانى (١٨٩٤ — ١٩٠٣) ، والمتحف الملكى فى برلين (١٨٩٨ — ١٩٠٢ م) . الواقع أن كثيرا من المستشرقين وعلماء النميات ظلوا يعملون فى هذا الميدان طوال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادى ، ولاحاجة لذكر أسمائهم أو أسماء اللامعين منهم ، ولاسيما

---

(١٠) انظر :
Mayer : The Rise and Progress of Moslem Archaeology (in Hebrew), Jerusalem, 1935, p. 6.
وجدير بالذكر هنا أن ماير تفضل على مؤلف هذه السطور بترجمة انجليزية لتلك المقالة ، وهى أول محاضرة له فى كرسى الأستاذية فى تاريخ الفنون والآثار بالشرق الأدنى ، بالجامعة العبرية ببيت المقدس . ولكتاب جورج يا كوب كذلك فضل كبير فى اعداد هذا الفصل .

(١١) انظر المرجع السابق ، ص ٦ـ٧ .

بعد أن أخرج ليو ماير كتاب كشاف النقود الاسلامية(Bibliography of Muslim Numismatics لندن ١٩٣٩ م ، وأحصى جميع مؤلفات هذا الموضوع حتى سنة ١٩٣٤ م . واجتذب ميدان النقود جماعة من علماء الولايات المتحدة الأمريكية ، ودل كتاب تاريخ مدينة الرى من مسكوكاتها ، تأليف مايلز (نيويورك ، ١٩٣٨ م) على طرق جديدة فى ترتيب النقود الخاصة بأحد المراكز الاسلامية الكبرى ، وموازنة حقائقها بأخبار المؤرخين المسلمين .

غير أنه من المعروف الذى لا يحتاج الى بيان أن النقود الاسلامية - على أهميتها من الناحية الأثرية — لا تستطيع أن تدخل فى عداد الانتاج الفنى ، لأن غالبيتها العظمى لا تحتوى على شىء فنى سوى الكتابة ثم ان النقود المصورة ، وهى التى تحتوى على صورة خليفة أو أمير ، لا توجد الا فى النادر الشاذ . ومع هذا فالنقود فرع من الفروع المساعدة فى هذا الميدان ، لأنها تمد الباحث بحقائق تاريخية مادية .

ثم جاءت بعد البحث فى النقود بحوث فى نواح أخرى من الآثار الاسلامية تغلب عليها الصفة التاريخية ، وأهمها النقوش والخطوط . ففى سنة ١٧٧٢ م أخرج كارستن نيبور قرآنا كوفيا مزينا ضمن كتابه وصف بلاد العرب (Beschreibung von Arabien)؛ لكن البحوث المنظمة فى هذا الميدان لم تبدأ الا بعد حوالى خمسين سنة من ذلك التاريخ . والواقع أن الكتابات الاسلامية لم تحتل مكانها من الأهمية العلمية الا سنة ١٨٢٨ م ، حين أخرج المؤلف رنيوه كتابه المسمى « وصف الآثار الاسلامية فى مجموعة دوق بلاكاس » ، وهو أول كتاب هام يبحث فى مجموعة كاملة من الآثار الفنية الاسلامية الصغرى . وفى سنة ١٨٣٨ م أخرج المستشرق الفحل يوسف فون هامر برجشتال بحثا فى كتابة كوفية من مسجد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، بالقاهرة ، كما ألقى سنة ١٨٤٨ م محاضرة جامعية فى موضوع الأختام ، وهذه طبعت فيما بعد. وفى سنة ١٨٤٠ م ألف ميخائيل أنجلو لانشى كتابا فى شواهد القبور

الاسلامية ، وأعقب ذلك سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ بكتاب عنوانه بحث فى الصور الرمزية العربية ، وفى تنوع الحروف الاسلامية فى نقشها على المواد المختلفة (Trattato delle simboliche rappresentanze arabiche e della varia generazione de' musulmani caratteri sopra differente materie operati).

وهو فى ثلاثة مجلدات تبحث لا فى مختلف أنواع الخطوط فحسب ، بل فى تنظيمات رموز الكواكب فى نماذج الفنون الصغرى ، والطلاسم ، والتعاويذ ، والأسلحة ، والرايات ، والملابس .

وأخيرا شهدت مطالع القرن التاسع عشر الميلادى يقظة الأوساط الأوربية الى أهمية الآثار الفنية الاسلامية ، ولا سيما الآثار المعمارية . وكانت أسبانيا أول البلاد التى أثارت هذه اليقظة فأدى ذلك الى انتاج مؤلفات ضخمة فى مجلدات كبيرة . وأول رائد فى هذا الميدان چيمس كاڤانا ميرفى ، بكتابه الذى عنوانه الآثار الاسلامية فى اسبانيا ، وهو كتاب يتميز حماسة لكل شىء اسلامى ، لا بتصويراته الجميلة للمبانى الاسلامية وزخارفها وكتاباتها فحسب ، بـل بعنايته بصفحة العنوان ، حيث سجل المؤلف السنة الهجرية (١٢٢٨ هـ) الى جانب السنة الميلادية (١٨١٣ م) التى تم فيها طبع الكتاب (شكل ١٦) . وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميـلادى نشط مؤلفون آخرون الى البحوث الأثرية فى أسبانيا ، وأخرجوا نتائج بحوثهم فى مطبوعات كثيرة . ومن أولئك دولابورد ، وچيرو دپرانجى ، چول جوروى ، وأوين چونس ، وغيرهم (شكل ١٧) [١٢] . وحوالى ذلك الوقت كانت فئة أخرى من المؤلفين الذين امتدت بحوثهم الى الآثار الاسلامية بجزيرة صقلية ، وذلك عن طريق بحوثهم فى الآثار الصقلية عامة .

---

(١٢) انظر :
De Laborde : Voyage Pittoresque et Historique de l'Espagne. Paris, 1806-1820.
De Prangey, G. : Monuments Arabes et Moresques de Cordoue, Séville et Grenade. Dessinés et Mesurés en 1832 et 1833, Paris, 1836-1839. وانظر للمؤلف
Essai sur l'Architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Séville et en Brabarie, Paris, 1841.
Goury and Jones : Plans, Elevations : Sections and Détails of the Alhambra, from Drawings Taken on the Spot in 1834, by the late Goury, in 1834, and in 1839 by Jones. (Arch., London, 1842-1845).

وللقارىء أن يستفهم هنا عن السبب الذى أثار هذا الاهتمام الجديد بالآثار والفنون الاسلامية ، وهذا السبب لا ريب هو المعروف فى أوربا باسم الحركة الرومانتيكية — أى الابتداعية — بما أثارته من الاهتمام بمعرفة المدنيـات السابقة البعيدة عن زمنها ومحيطها . الواقع أن هذه الحركة التى أعجبت بتماثيل النبلاء اليونانيين ، وصور الفرسان الأتقياء من الاقطاعيين ، وشجعت احياء النماذج اليونانية القـديمة ، والنماذج القوطية العصـور الوسطى ، لم تستطع الا أن تعجب كذلك بالفن الاسلامى الذى أنتج عمائر باسقة مثل قصر الحمراء فى غرناطة بأسبانيا الاسلامية ، وهو « قصر طلته يد روحانية بحلة ذهبية ، فصار كحلم من الأحلام ، وشاع فيه الانسجام والتناسب [١٣] » .

على أن هذا الاهتمام الجديد بالآثار الاسلامية لم يكن سوى فرع من تيار علمى أوربى بدت ظواهره الأولى سنة ١٧٦٢ م ، حين ظهر الجزء الأول من كتاب الآثار الأثينية ، تأليف ستيوارت ورفت (Stuart and Revett) ثم غدت أهدافه واضحة فيما أعقب ذلك من جهود لكشف أصول الأفكار المعمارية فى العصور القديمة . على أنه ينبغى أن نذكر هنا أن نوعا من الاهتمام بالعمائر الأجنبية الغريبة على الذوق الأوربى لم يكن معدوما حتى قبل هذه السنة من القرن الثامن عشر الميلادى ، مع العلم بأن الغاية من هذا الاهتمام فى ذلك العصر المعروف فى تاريخ الفنون باسم العصر الزخرفى المبهرج (Rococo) ، لم تتعد تنبيه الأذهان والأذواق الفنية الى بناء العمائر الشبيهة بالشرقية ، وابتكار المناظر البهيجة ، ولا سيما فى تنظيم الحدائق . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك النوع من الاهتمام أن المعمارى الانجليزى سير وليام تشامبرز وضع تصميمات الحدائق والمبانى ببلدة كيو — فى اقليم صرى قرب لندن — حوالى سنة ١٧٦١ ، على أن يكون من هذه المبانى مجموعة من الغرائب المعمارية ، من معبد للاله اليونانى پان ، وملهى للالهة الرومانية أوجستا . وكتدرائية قوطية ، وبيت

---

(١٣) جعل جودى وجونس هذه العبارة شعار الغلاف فى الكتاب المشار اليه فى الحاشية السابقة ، وهذا الشعار مطبوع بحروف ذهبيـة كبيرة ، وسط زخرفة الصفحة الأولى من المجلد الأول .

كونفوشيوسى ، وپاجودا صينية ، وهكذا فضلا عن بناء أطلقوا عليه اسم الهمبرا « الحمراء » ، برغم خلوه من أية هنـدسة معمارية اسلامية اسبانية (moorish) ، وفضلا عن مسجد من الأسلوب المعمارى التركى العثمانى ، وهو أول بناء من نوعه فى غرب أوربا . (شكل [١٤] ١٥) . ومع أن سير وليام تشامبرز طلب الى العالم الدكتور مورتون أن يمده بكتابات عربية صالحة للمسجد ، فان عدم وجود محراب داخل ذلك المسجد دل على قلة معرفة ذلك العصر بما تكون عليه بيوت العبادة عند المسلمين . لكن الغرض الذى تـوخاه سير وليام تشامبرز لم يتطلب شيئا سوى بهجة معمارية ، مما تتصف به المبانى التركية العثمانية (turquerie) ، وبذا أحدث أسلوبا معماريا جديدا شاع فى أوربا [١٥] .

---

(١٤) انظر :

Chambers : Plans, Elevations Sections and Perspective Views in the Gardens and Buildings at Kew in Surrey, London 1763, pp. 5-6 pls. 20, 21, 27 and 28. غير ان مبنى الحمراء ومبنى المسجد فى كيوتهدما قبل سنة ١٨٢٤ .

(١٥) أعقب مسجد حدائق كيو مسجد آخر شيده دوقات البلاتنات فى حدائق القصر فى شفتزنجن بمدينة بادن قرب مانهايم بألمانيا ، وقام على بناء هذا المسجد نقولا دى پجاجه سنة ١٧٧٨ م والسنوات التاليـــة . والمسجد لا يزال قائما ، وأسلوبه الفنى على وجه التعميم فرنسى اتباعى — أى كلاسيكى — وليس به من المعانى الشرقية التى أعجب بها ذلك العصر سوى المئذنتين والكتابات العربية ، ومع غموض الأسلوب الفنى الاسلامى فى هذا المسجد الألمانى المعقد البناء ، بالقياس الى المسجد الانجليزى السابق له ، فهذان المبنيان وأشباههما على جانب عظيم من الأهمية للدلالة على ميول الروح العامة الجديدة نحو الأساليب الفنية الاسلامية . انظر :

Martin : Die Kunstdenkmäler des Amtsbezirks Mannheim, Stadt Schwetzingen, Karlsruhe, 1933, pp. 289-312.

ومبنى اسلام آخر على طراز تركى مما أعقب مبانى حدائق كيو هو كوشك — أى قصر — فى حدائق هاجا شمالى ستوكهلم بالسويد ، وكان تشييده بأمر من جستاف الثالث ملك السويد سنة ١٨٧٦ م ، بعد عدة تصميمات قدمها اليه المهندس المعمارى پيپر . وهذا المسجد لا يزال قائما . انظر :

Sirén : China and Gardens of Europe in the Eighteenth Century, N.Y. 1950, p. 192.

وكذلك اللوحة الملونة السابقة لصفحة ١٩٢ ، وكذا اللوحات ٣١ ، ١٦٤—١٦٦ من ذلك الكتاب . ثم ان الكتب الخاصة بالحدائق ذوات الأسلوب الجديد فى القرن الثامن عشر الميلادى لا تقتصر على نماذج من الأساليب الصينية الشائعة وقتذاك فى أوربا ، بل تحتوى أحيانا على تصميمات ونماذج لمساجد وأكشاك تركية . انظر :

Le Rouge : Détail des Nouveaux Jardins Paris 1776-1787. ، وانظر

Lancaster : Oriental Forms in American Architecture, 1800-1870, Art Bulletin XXIX, 1947, pp. 185-90.

لمعرفة ما تم من البحث فى تأثير الأسلوب الفنى الاسلامى فى العمارة الأمريكية .

وثمة دافع آخر ليقظة الأوساط العلمية الأوربية الى دراسة الشرق الأدنى وفنونه وآثاره ، وهو دافع التـوسع الاستعمارى والسياسة العسكرية فى العصور الحديثة ، مما يغفله الباحثون بعض الأحيان . مثال ذلك احضار نابليون فى حملته على مصر جماعة من العلماء لبحث شئون البلاد المصرية بحثا شاملا كاملا ، اذ أعد أولئك العلماء رسوما تخطيطية للمدن ، والمبانى ، والعمائر الأثرية ، ورسموا مناظر معمارية للشوارع ، والحارات ، والمساجد ، والدور ، والحـوانيت ، والدروب ، وأبواب الأخطاط ؛ ورسموا كذلك مختلف الكتابات ، والنقوش ، والنقود ؛ ولم ينسوا أن يعملوا صورا توضحية لأنواع الصناعات القائمة بمصروقتذاك ، فضلا عن مختلف الأدوات المستعملة فى هذه الصناعات ، وكذلك الملابس ، والآلات الموسيقية ، وهكذا . ونتج عن هـذه الأبحاث تأليف ضخم الحجم ، وهو كتاب وصف مصر الذى استغرق طبعه من ١٨٠٩ الى ١٨٢٨ م ، فى تسع مجلدات ، وعشر أخرى للرسوم والصور التوضيحية ، وأطلس للخرائط الجغرافية ؛ وهذا الكتاب فى مجموعه هو القاعدة الحقيقية والمنبع الحقيقى لمعرفة الآثار الاسلامية . (شكل ١٨ — ١٩) . وبعد ذلك ببضع سنين ، أى بعد أن استولى الفرنسيون على بلاد الجزائر ، سنة ١٨٣٠ م ، استطاع يوچين دلاكروا أن يقـوم برحلة الى مراكش سنة ١٨٣٢ م ، وهى الرحلة التى أودع فى شرحهـا رسومه التخطيطية الشهيرة لمناظر الحيـاة فى المجتمع المراكشى [١٦] الاسلامى ، كما استطاع راڤوازييه أن ينشر سنة ١٦٤٦ م كتابه الذى عنوانه « رحلة كشفية علمية ببلاد الجزائر فى سنوات ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ ، ١٨٤٣ م » . ومن هذه الحركة

(١٦) يوجد من هذه الكتب ذوات الرسوم التخطيطية ثلاثة فى متحف اللوڤر
Paris, Musée National du Louvre. Exposition Eugène Delacroix... Juin-Juillet, 1 30, Paris No. 773-775

ويوجد كتاب رابع منها بمتحف كونديه فى شانتيى . انظر :
Le Voyage de Eugène Delacroix au Maroc

جزء من مجموعة قصر شانتيى نشره Guiffrey فى باريس سنة ١٩١٣ .
ومنذ بضع سنوات حصلت مكتبة بيربونت مورجان على الكتاب الخامس من هذه الكتب ، وفيه رسوم غير مطبوعة . انظر :
The Pierpont Morgan Library, Review of the Activities and Acquisitions of the Library, from 1936-1 40, N.Y. 1941. pp. 62-64, and p. 1. XII.

الممازجة بين سيطرة دولة من الدول الأوربية سياسيا على بلد من بلاد الشرق الأدنى ، وبين تشجيع هذه الدولة للبحوث الأثرية تشجيعا ناشطا فى ذلك البلد ، ما هو قائم حتى العصر الحاضر ، بدليل تأسيس دائرة الآثار الفلسطينية على يد البريطانيين ، سنة ١٩٢٠ م ، بعد أن صار اليهم الانتداب على فلسطين ، واصدارهم مجلة ربع سنوية ذات قيمة علمية عالية أثرية منذ سنة ١٩٣١ . ومهما تباينت الآراء بين النافع والضار التى أدت اليها السيطرة الأوربية فى الشرق ، فان هذا النشاط العلمى فى ذاته أثمر أطيب الثمر .

وفى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى ظهرت دراسات تفصيلية أخرى فى العمائر والمخلفات الاسلامية التى كشفت عنها جهود القوامين على الآثار الاسلامية فى الجزء الشرقى من البلاد الاسلامية ، وهى دراسات قام على معظمها مهندسون معماريون ورسامون . ومن أوائل هذه جهود پاسكال كوست فى كتابه الهندسة المعمارية الاسلامية، وهو الكتاب الذى جمع رسوما لآثار مدينة القاهرة من مقاييسها ، وتم طبعه سنة ١٨٣٩ م ، بعد أن قام كوست على مسح هذا الآثار وقياسها من سنة ١٨١٥ الى ١٨٢٥ م . وأعقب كوست كتابه هذا بسلسلة من الدراسات فى الهندسة المعمارية الايرانية ، بالاشتراك مع المصور فلاندان ، واستمر ظهور هذه السلسة بين ١٨٥١ و ١٨٦٧ م . ثم امتدت هذه الجهود الى الآثار الاسلامية فى مصر مرة أخرى ، فى مؤلفات بورجوان (١٨٧٣ — ١٨٩٢ م) ، وكذلك پريس داڤن (سنة ١٨٧٧ م) ، وهى مـؤلفات لا تقتصر على العمارة فحسب ، بل تشمل مختلف الفنون الصغرى ، فضلا عن دراسة تفصيلية دقيقة للأشكال الهندسية فى الزخرفة المعمارية ، فى مؤلفات برجوان . والرسوم التوضيحية فى هذه المؤلفات تنم عن قيمة كبيرة ودراسة زعيمة بكل ثناء ، برغم ما يتسم به بعضها من غلو الخيال ، وبرغم قصور المتون فى هذه المؤلفات نفسها عن مرتبة علمية عالية . ذلك أن هؤلاء المؤلفين لم تسبق لهم معرفة خبيرة بالكتابات الواردة على المبانى والأدوات التى تناولتها دراساتهم ، ولم تتوفر لديهم الأساسيات التاريخية اللازمة للفهم

التام ، ولم تبلغ جهودهم مبلغ فهم اللزوميات المعمارية الاسلامية ، بل غلب عليها تفضيل المتأخر المزوق عن المتقدم العارى عن التزويق والبريق ، برغم التسليم باقتصار جهودهم على النواحى الفنية البحتة . مثال ذلك أن كوست عنى أكبر عناية بتصوير المبـانى فى كتابه الخاص بالمعمار الايرانى ، لكن تصويره لتصميم المسجد الأعظم فى اصفهان أهمل الحجرة ذات القبة الصغيرة التى ترجع الى سنة ١٠٨٨ م ، وهى الحجرة التى تعد فى العصر الحاضر فخر الفنون المعمارية الايرانية فى العصور الوسطى [١٧].
ثم ان الرسوم التوضيحية على جمالها ورونقها فى الأطلس الكبير الذى هو جزء من كتاب « رحلة فى تركيا وايـران » ، تأليف هومير دى هل (شكل ٢٠) تسر الناظر اليها على أنها انطباعات فنان من أهـل القرن التاسع عشر الميلادى يزور ايران ، لا رسوم ذات قيمة وصفية دقيقة للآثار المعمارية التى زارها ، على وتيرة ما قام به المعاصرون له فى رسوم المناظر الايطالية . والواقع أن هذه الرسوم التوضيحية فى أطلس هوميردى هل تشبه من هذه الناحية متبوع التقاليد فى سابق الأطالس الكبيرة التى تصور الآثار الاسبانية وحولها جماعات من أهل البلاد ، من باب الاضافة الى زخرفتها . ومع هذا كله فلهؤلاء المؤلفين الأولين فى فنون الشرق الأدنى فضل لا يغمط ، وهو أنهم أودعوا مؤلفاتهم معلومات ذات قيمة علمية كبيرة عن مبان زالت بعد أيامهم تمام الزوال دون أن يبقى لها أثر .

أما مرحلة التحول النهائى نحو الدراسة للفنون الاسلامية فهى نتيجة جهود رجلين صرف كل منهما حياته فى دراسة الناحية الأثرية من تاريخ هذه الفنون . وأول هذين الرجلين الاثنين يوسف فون كراباسك النمسوى (١٨٤٥ — ١٩١٨ م) الذى شمل اختصاصه ، لا علوم النميات والنقوش فحسب ، بل يرجع اليه الفضل فى فتح ميادين بحثية جديـدة ، اذ هو المؤسس لعلم الأدوات الأوراق البردية العربية فى الدراسات الاسلامية ، وهو البادىء لبحوث علم الرنوك الاسـلامية . ثم انه هو الذى افتتح

(١٧) Coste: Monuments Modernes de la Perse, Mesurés, Dessinés et Décrit, Paris 1867, p. 1 IV.

البحوث الهامة فى كتابات المنسوجات الاسلامية ، حين عكف على قراءة هذه الكتابات فى الأقمشة والملابس الكهنوتية بكنيسة مريم العـذراء بمدينة دانتزج (١٨٧٠ م) ، وهو كذلك الأول فى استخراج الحقائق والاشارات التاريخية من المراجع العربية والايرانية لفهم أنواع السجاد الشرقى ، كما هو واضح فى كتابه التصوير الايرانى فى صناعة السجاجيد (سنة ١٨٨١) . وصفوة القول ان كراباسك هو الرائد الأول فى سبيل احلال الآثار الاسلامية محلا تاريخيا واسع الآفاق ، لأنـه أدرك تمام الادراك أهمية علم النقوش ، فضلا عن المراجع العربية نفسها ، فى تقدير الآثار الفنية. غير أنه من المؤسف أن نتائج البحوث التى قام عليها كراباسك جاء أغلبها ناقصا ، أو خاطئا كل الخطأ ، بسبب غلوه فى الاعتماد على جامح الخيال . ولذا فليس مما يدعو الى العجب أن احدى خدماته الهامة غير المباشرة فى ميدان التقدم فى البحوث الأثرية الاسلامية جاءت عن طريق نقد جهوده ، ولا سيما عن طرق البحوث والكشوف التى أثار هو معاصريه ولاحقيه الى انتاجها . ثم ان كراباسك جـدير بالاهتمام من ناحية أخرى ، اذ بفضل جهـوده صار علم الآثار لأول مرة من العلوم المحترمة فى دوائر المعرفة ، وتقديرا لهذه الجهود أنعمت عليه الحكومة النمسوية برتبة الفروسية ، وعينته مديرا للمكتبة الملكية (Hofbibliothek) وسكرتيرا للمجمع النمسوى فى ڤينا [١٨] .

أما ثانى هذين الرجلين فهو ماكس فان برشم السويسرى (١٨٦٣ — ١٩٢١ م) ، وهو فى شخصيته مختلف كل الاختلاف عن كراباسك ، وفى أستاذيته فى النقوش العربية عميـد لا نظير له . اذ بدأ حيـاته مستشرقا مارنا أحسن مران ، ولاسيما فى التـاريخ ، مغرما بالفنون الاسـلامية أعظم غرام . ثم تحول فان برشم الى الآثار الاسلامية تحولا طبيعيا لعمله ، بسبب ما تراءى له فى الآثار من وسيلة للتعمق فى الدراسة التاريخيـة ، وكتب فى ذلك سـنة ١٨٩١ م يصف مختلف الفروع فى

(١٨) راجع Becker : Islamstudien, Leipzig, 1924-32, Vol. II, pp. 491-498.

الآثار الاسلامية — من معمار وفنون زخرفية وكتابات ونميات وأختام — بأنها « هى الوثائق التاريخية الدالة بأشكالها أو بكتاباتها على المنشود من التاريخ ، بالاضافة الى المخطوطات التى تمد الباحث ببعض الحقائق » . وبعد اقامته الأولى بمدينة القاهرة نوه فان برشم كذلك بأهمية هذا الميدان الجديد تنويها نصه : « انتبهت الى أهمية هذا الميدان من الدراسات التاريخية ، والى المعونة الفريدة التى يستطيع هذا العلم على حداثته وضآلة أسسه أن يؤديها لتاريخ العادات والأفكار فى الحضارة الاسلامية » . على أنه أدرك كذلك أن البحث فى الآثار الاسلامية يتطلب نوعين من العمل ، وهما جمع الكتابات الواردة فى الآثار الاسلامية فى مصر والشام ، حتى تتيسر بذلك مجموعة من الكتابات التاريخية العربية (corpus inscriptionum arabicarum) ، ثم تأليف كتاب فى الآثار الاسلامية من دراسة الآثار [١٩] نفسها . واختار فان برشم لنفسه النوع الأول من هذا العمل المزدوج ، ونشر الكتابات التى جمعها هو فى تأليف سماه بعض المواد اللازمة لمجموعة من الكتابات العربية (Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicorum, Cairo, لأنه لم يرد أن يقصر جهوده على تأليف المجموعات الحاوية للنقوش وكفى ، بل أراد أن تكون مواد هذه المجموعات بمثابة متحف أو خزانة مصرفية (clearing house) لتنظيم استثمار الحقائق الهامة فى النقوش والتاريخ والآثار . غير أن ضخامة المواد التى جمعها فان برشم اضطرته أخيرا الى قصر جهوده على بحوث خاصة بالنقوش التاريخية ، وتكوين هيئة علمية لمواصلة هذا العمل حتى النهاية . واختص فان برشم نفسه باعداد المجلدات المتعلقة بالقاهرة وبيت المقدس ، على أنه شارك خليل أدهم فى اخراج الجزء الاول من المجلد الخاص بآسيا الصغرى ، وهذا على حين اختص هرتزفلد بمدينة حلب وشمال الشام ،

(١٩) هذا الاقتباس مأخوذ من فان برشم Notes d'Archéologie Arabe. Monuments et Inscription Fatimites. المجلة الاسيوية ، السلسلة الثامنة ، ج ١٧ سنة ١٨٩١ ص ٤١١، ٤٢٤،١٢ .

واختص جاستون ڤيت بالمجلد الثانى المتعلق بمصر. وبالاضافة الى الاشراف على هذا العمل الهائل ، أخرج فان برشم عدة بحوث فى نقوش مختلف العصور والاقاليم الاسلامية ، من مراكش على عهد بنى مرين الى شوان شو بالصين على عهد المسلمين ، دون أن يقلل ذلك من عنايته البالغة بمصر [٢٠] والشام . ثم توقف العمل فى مواد هذه المجموعة الأثرية بسبب وفاة فان برشم سنة ١٩٢١ م ، لكن جاستون ڤيت وسوڤاچيه يعملان حتى الآن على اخراج مجلدات جديدة متعلقة بمكة ، والمدينة ، ودمشق ، وربما امتد عملهما الى بروصة واستانبول [٢١] .

وسوف يظل العمل مستمرا فى ميدان النقوش ، بسبب ضخامة كمية المواد فى مختلف البلاد الاسلامية ، وسوف تزداد البحوث فيه عمقا وتشعبا ، كلما تفتحت بلاد جديدة للكشف والدراسة . ويكفى أن نذكر هنا على سبيل البرهان أن قليلا من غير المسلمين استطاع أن يدخل المساجد الايرانية قبل سنة ١٩٢٠ م ، وأن تصوير النقوش والكتابات الداخلية بهذه المساجد [٢٢] تصويرا شمسيا (فوتوغرافيا) كافيا لأغراض البحث لم يبدأ قبل هذه السنة . ثم انه فضلا عن الكتب والمقالات الباحثة فى نقوش المراكز الاسلامية الكبرى ظهرت مؤلفات أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وهى تبحث فى نقوش بعض بلاد الأطراف الاسلامية ، ومثال

---

(٢٠) انظر : هرتزفلد وفان برشم ، مجلة الاسلام (Der Islam) الألمانية ، ج ١٢ ، سنة ١٩٢٢ ، ص ٢٠٦–٢١٣ ؛ وانظر كذلك : Boissier : In Memorian Max Van Berchem فى Revue Archéologique الفرنسية ، حيث توجد قائمة بمؤلفات فان برشم فى السلسلة الخامسة ، حـ ٧ ، يناير – ابريل ١٩٢٣ ص ١٤٨–١٥٤ .

(٢١) انظر Sauvaget : L'Archéologie Musulmane en France de 1939-45. فى مجلة Ars Islamica ، ج ١٣ – ١٤ « سنة ١٩٤٨ » ص ١٥٧ . وتوفى سوڤاچيه فجأة بعد كتابة هذا الفصل ، وسوف تتأثر هذه المشروعات بوفاته ، بل يبدو الآن ان اكمال هذه المشروعات يتطلب جيلا جديدا من الأثريين .

(٢٢) لاتزال جميع مساجد مراكش وبعض مساجد تونس ممنوعة على غير المسلمين ، وهذا ما يجعل لمطبوعات مارسيه وتراس وغيرهما من الباحثين الفرنسيين أهمية كبيرة .

ذلك كتاب النقوش الهندية الاسلامية (Epigraphia Indo-Islamica) تأليف هورفتز (١٩٠٩ — ١٩١٢ م)، وغلام يزدانى بعده (١٩١٣ م)، ثم كتاب النقوش والكتابات العربية الاسبانية، تأليف ليڤى بروڤنسال (ليدن وباريس ١٩٣١ م)، فضلا عن المطبوعات الخاصة بالنقوش والكتابات العربية فى البلاد الروسية، والمجموعات التى نشرتها مدام ڤيرا كرتشكوفسكايا.

وحديثا هيأ جاستون ڤيت مشروعا عظيم الفائدة مشاركة مع اتين كومب وسوڤاچيه، لاخراج المجموعة التاريخية للنقوش العربية التى ظهر منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلدا تشمل جميع النقوش العربية المعروفة حتى سنة ٧٠٥ هـ، أى ١٣٠٥ م، وعددها ٥٢٠٠ قطعة (القاهرة ١٩٣١ — ١٩٤٤). وأحدث من هذا مشروع لاصدار سلسلة من مطبوعات تشمل النقوش الشرقية عامة، لا النقوش الاسلامية فحسب، وتنشرها مدام كراتشكوفسكايا، ويحتوى العدد الأول (١٩٤٧ م) — وهو الذى وصل الى العالم الغربى من هذه السلسلة حتى الآن — على مادة معظمها اسلامى. ومع أن رداءة الأسلوب اللغوى والرسوم التوضيحية فى هذا العدد قللت من القيمة المنتظرة من هذه السلسلة، وهى رداءة غدت غالبة مع الأسف على كثير من المطبوعات الروسية الحديثة، ولاسيما بعد أن صارت خالية من الملخصات الفرنسية التى جرت العادة على تذييل المتون الروسية بها، فان استمرار ظهور هذه السلسلة سوف يكون — على الرغم من ذلك كله — منبع فائدة لدراسة النقوش.

غير أنه على حين يبدو واضحا مما تقدم هنا أن دراسات النقوش أضحت من الدراسات المستقرة القواعد بين الباحثين، لم تتعد البحوث فى ميدان الخطوط مرحلة الطفولة الأولى، على قربها من ميدان النقوش. ومصداق ذلك أنه اذا استثنينا الدراسات العميقة للأوراق البردية العربية التى يحتل فيها أدولف جروهمان مكانة الأخصائى

الراسخ البـارز ، فليس لدينا ما نستطيع الاشارة اليه فى علم الخطوط سوى مجموعات لأنواع معينة من الكتابة العربية ، جمعها كل من وليام رايت ، وموريتز وشارل ايوار ، وثيسران ، وآرثر آربرى ، وكونيل ، ودلاڤيدا ، وغيرهم . وباستثناء بحوث الآنسة نبية أبوت فى أشكال الخط الكوفى فى العصور الاسلامية الأولى ، ولاسيما بحوثها فى كتـابها الذى عنوانه « ظهور الكتابة العربية فى شمال بلاد العرب »(شكاجو ١٩٣٩ م)، فليس يوجـد لدينا من البحوث العلمية الفاهمة فى عصور هذا الميدان سوى الضئيل القليل ، وبخاصة فيما بعد القرن الثـالث الهجرى . وهذا يؤسف له كل الأسف ، لأن علو مكانة الخط فى البلاد الاسلامية ينبغى أن يجتذب دراسات متصلة فى هذا الميدان الهام .

وثمة فرع آخر من فروع الدراسات التاريخيــة الداخلة فى دائرة الآثار الاسلامية ، وهو علم الرنوك ، وهذا يستأهل تنويها خاصا به فى هذه العجالة القصيرة فى الآثار الاسلامية ، لأنه موضوع أصبح ميدانه معروفا تمام المعرفة تقريبا ، اذ بعد قيام يعقوب أرتين ببحوث تمهيدية فيه من سنة ١٨٨٧ الى ١٩١٢ م أخرج ليو ماير سنة ١٩٣٣ م تأليفه النموذجى الذى عنـوانه الـرنـوك الاسـلامية (Saracenic Heraldry) ، وأودع فيه بحوثه الدقيقة فى هـذه المنشأة الايوبية المملوكية ، معتمدا على مختلف المراجع العربية التاريخية المعاصرة ، وجميع ماكشفه الكاشفون حتى تلك السنة من الآثار والأدوات ذوات الرنوك . ثم أعقب ماير ذلك التأليف بمقالات تكميلية لبحوثه السابقة ، مبتغيا من ذلك أن يشرح بعض الرنوك المستعصية شرحا جديدا ، وأن يضيف الى مواده ما جد عليه من أدوات ذوات شارات رنكية .

ومن المعنيين بالآثار الاسلامية كذلك جماعة من العلماء أخذوا فى دراسة مواد هـذه الآثار من النـاحية الفنية فقط ، فاتبعوا بذلك طريقا مختلفا عن طرق سائر الذين تقدمت أسماؤهم فى دراسة الفنـون والآثار الاسلامية . ولم تتطلب بحوث هـذه الجماعة من الحقـائق

التاريخية سوى أسماء الخلفاء والسلاطين والأمراء ، وتواريخ عهودهم ومنشآتهم ، وأسماء الفنانين فى قصورهم ، ليجعلوا منها هيكلا أو اطارا لبحوثهم . أما المقاييس والوسائل التى استعانت بها هذه الجماعة على تقدير موادهم وشرح قيمتها ، فهى الأسلوب الفنى وعلم الصور والصنعة (iconography) . وأعظم شخصية بين هذه الجماعة فردريش زره [٢٣] (١٨٦٥ – ١٩٤٥م) الذى عكف منذ سنة ١٨٩٥ م فصاعدا على دراسة الآثار الاسلامية من أسبانيا الى الهند ، لا من نواحى المعمار والتصوير والفنون الصغرى فحسب ، بل من نواحى الأصول الفنية السابقة لهذه الآثار الاسلامية تاريخيا ، أى نواحى علاقتها بالفنون والصناعات الفنية فى أوربا والشرق الأقصى ، وذلك فى نحو مائتين من الكتب والمقالات . وفى كثير من هذه البحوث الدقيقة التى اشترك معه غالبا فى اخراجها علماء ممتازون فى النقوش ، استطاع فردريش زره ، أن يعين الوضع التاريخى والجغرافى لمجموعات من الآثار والأدوات الاسلامية تعيينا آثار عليه بعض الأحيان معارضات لم يلبث أن ظهر بطلانها وعدم صحتها . ونظرا لما انطوت عليه بحوثه فى المعانى والأهميات أضحى من الطبيعى أن يكون أول باحث فى هذا الميدان نشر لمؤلفاته المتعددة النواحى فهرس مشروح .

ولدينا فى سالادان وجاستون ميجون شخصيتان أخريان ذاتا أهمية فى هذا الميدان ، اذ أخرجا تأليفا اسمه « كتاب فى الفن الاسلامى » فى مجلدين (باريس ١٩٠٧ م) وتناولا فيه كل فن من الفنون الاسلامية على حدة ، من معمار وتصوير وفنون صغرى ، متبعين فى ذلك طريقة البحث الباكر الذى قام عليه ستانلى لينبول فى كتابه « فن المسلمين فى مصر » . وهذان المجلدان اللذان أخرجهما سالادان وميجون قبل الأوان ، نظرا لقلة المواد المعروفة لهما وقتذاك ، يدلان على مبلغ روح الاقدام فى هذين الرجلين . بل الواقع أن بحوث سالادان فى المعمار لم يستطع أحد

---

(٢٣) Schmidt : Friedrich Sarre. Schriften, Berlin 1935.

أن يضيف اليها من الناحية العامة، وهى لا تزال موضع أهمية معينة ، بدليل طبع هذا الكتاب طبعة ثانية سنة ١٩٢٧ م . ومع أن كل فصل من فصول هـذه الطبعة الثانية جاء ضعف حجمه فى الطبعة الأصلية الأولى ، لم يستطع القائمون على هـذه الطبعة الثانيـة أن يستوعبوا فيها جميع المواد الأثرية التى أضحت فى متناول الباحثين . مثال ذلك أن الفصول المعمارية الفائقـة التى كتبها مارسـيه لم تتعد المغرب واسبانيا وصقلية الاسلامية ، وأن المجلدين اللذين كتبهما ميچيون لم تخل محتوياتهما من بعض الخطأ . على أن هذا الكتاب الحافل أصبح نموذجا ومنبعا كذلك لكثير من المؤلفين فى الفنون الاسلامية عامة، ومن أولئك ديتز (١٩١٧ م)، وكونل (١٩٢٥) ، وجلوك وديتز بالمشاركة (١٩٢٥ م)،وآخرهم ديماند الذى جاء كتابه (١٩٣٠) أول تأليف فى اللغة الانجليزية فى التصوير والفنون الصغرى ، وكذلك أول تأليف يعتمد كل الاعتماد فى مادته على مجموعة أثرية واحدة،وهى مجموعةمتحف متروبولتان فىمدينةنيويورك[٢٤] . وفى بلاد العربيـة حذا زكى حسن ذلك الحـذو ، فى كتابه ذى الصور التوضيحية الجيدة فى فنون ايران الاسلامية ، وعنوانه الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى (القـاهرة — طبعة ثانيـة — ١٩٤٦ م [٢٥]) . ومن

---

(٢٤) انظر : Diez : Die Kunst der Islamischen Volker. Berlin 1917. وانظر كذلك Kuhnel : Islamische Kleinkunst, Berlin, 1925: وكذلك Gluûck and Diez : Die Kunst des Berlin 1925.
imand : A Handbook of Mohammedan Decorative Art. New York.
والطبعة الثانية من هذا الكتاب عنوانها : Handbook of Muhammedan Art. وقام احمد عيسى أمين المكتبة العامة بجامعة القاهرة على نقل هـذا الكتاب الى اللغة العربية لمؤسسة فرانكلين ، والكتاب الآن تحت الطبع ، وعنوانه الفنون الاسلامية . زيادة .

(٢٥) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٠ م ، وقبل ذلك — أى ١٩٣٥ م — أخرج المؤلف الجزء الأول من تاريخ الفن الاسلامى فى مصر، وهذان الكتابان اللذان اخرجهما زكى حسن ، من مطبوعات متحف الفن الاسلامى فى القاهرة (دار الآثار العربية سابقا) . وحديثا أخرج هذا المؤلف كتابا فى فنون البلاد الاسلامية قاطبة ، سماه : فنون الاسلام (القـاهرة ، ١٩٤٨) غير أن كاتب هذه السطور لم يطلع على هذا الكتاب الأخير .

الملحوظ فى هذه الكتب أن المعمار — وهو فى بعض هذه الكتب لا كلها — يحتل فصولا مستقلة عن التصوير والفنون الصغرى ، وأن الفنون الصغرى نفسها مفصلة الى مواد متنوعة لشرحها واحدة بعد أخرى . والواقع أن هذا الترتيب العام سرى الى موسوعة الفن الايرانى التى قام على نشرها پوب عام (١٩٣٨ — ١٩٣٩ م (Survey of Persian Art) وهى فى ست مجلدات ضخمة استعرض فيها مؤلفوها — وعددهم تسع وستون مؤلفا — مختلف أطوار الفن الايرانى من العصر الحجرى الى القرن التاسع عشر الميلادى . غير أن هذه الطريقة على الرغم من تسهيلها فهم التطور الفنى فى متنوع مواد الآثار ، تجعل من المستحيل على الباحث أن يستخلص منها منظورا تاريخيا صحيحا ، أو أن يستخرج منها صورة حقيقية للروح (zeitgeist) التى تنبىء عن نفسها فى أسلوب مجموعة المواد الأثرية الخاصة بعصر على حدته ، وهى على أية حال طريقة تشبه تنظيم المتاحف العامة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وأول خارج على طريقة سالادان وميچيون من رجال الآثار هو كونل فى الجزء الذى أسهم به فى تاريخ الفن (Handbuch der Kunstgeschichte) الذى قام على نشره شبرنجر (سنة ١٩٢٩ م) ، اذ عالج كونل فى ذلك الجزء جميع الفنون لكل عصر بذاته من مختلف العصور ، واستطاع بذلك أن يبين حلقات الاتصال من متنوع مراكز الفن ، وكذلك حلقات الاتصال بين مختلف الأدوات الاثرية . وحديثا أخرج مارسيه وحده الكتاب الأول من هذا النوع ، واسمه الفن الاسلامى (باريس ١٩٤٦ م) ، وهو مدخل مختصر دقيق بالغ الفائدة فى موضوعه .

أما أول الباحثين الذين مزجوا بين طرق البحث التاريخى والتحليل الفنى فهو ارنست هرتزفلد (١٨٧٩ — ١٩٤٨ م) ، وذلك لأنه تعلم تعليما نظيما ليكون معماريا ومؤرخا للفنون ومستشرقا ، وبذا اجتمعت فيه صفات جعلته مؤهلا أكمل تأهيل للمزج بين صرامة طرق البحث التاريخى المستند الى فهم محتويات المؤلفات التاريخية والنقوش والنقود

وبين التقدير الذاتى الخاص للمستوى الفنى فى الآثار . وعلى مقتضيات هذه الطريقة بحث هرتزفلد آثار ايران والعراق والشام ، ولا سيما عمائرها ، وزخارفها وتصاويرها ، ونقوشها ، فى عدة رحلات الى الشرق الأدنى ، حيث قام على عدد من الحفائر والأعمال الاستكشافية ؛ ومؤلفاته العديدة فى مختلف الموضوعات الاثرية أضحت فى الواقع مما لا يستغنى عنه كل باحث فى ميدان الآثار (٢٦) .

غير أن الجنوح الى التخصص الذى أصبح ظاهرة ملحوظة النمو فى مختلف العلوم والبحوث فى هذا القرن العشرين الميلادى ، أصبح ظاهرة ملحوظة كذلك فى ميدان الفن والآثار الاسلامية . والدليل على ذلك جماعة الباحثين الذين يقصرون أنفسهم على اقليم واحد ، أو مادة أثرية واحدة . ومع ما فى هذا التطور الجديد من وجوه النقص نتيجة ما يحتمل من اغفال الصلات الفنية بين مختلف مراكز الآثار الاسلامية ، فضلا عما يحتمل كذلك من قلة التقدير للافكار الفنية المتبادلة بين أرباب الصناعات ، فلا محيص عن التخصص فى بعض الفروع الكبرى فى ميدان الآثار ، أى المعمار ، والتصوير ، وفنون المنسوجات . بل يبدو أن هذا التطور عامر بالفائدة الى حد معين ، نظرا لكثرة عدد المطبوعات الواصفة للآثار والأدوات الفنية الأثرية كثرة مستمرة . ومن طليعة هذه الفئة الجانحة الى هذا التخصص كرزويل مؤرخ العمارة الاسلامية ، ونتائج معظم بحوثه واضحة فى مؤلفه الضخم الذى عنوانه المعمار الاسلامى فى صدر الاسلام . فى ثلاثة مجلدات (اكسفورد ، ١٩٣٢ — ١٩٥٠) ، وكذلك فى مؤلفاته المرتقبة الظهور فى المعمار الاسلامى المصرى . ونحن مدينون كذلك بكثير من الفضل هنا لمؤرخ معمارى آخر ، وهو ألبير جابريل الذى أخرج دراساته فى الآثار المعمارية فى تركيا العثمانية فى عدة مجلدات ،

---

(٢٦) Miles : The Writings of Ernest Herzfeld
فى مجلة Chrs. Islamica ، جـ ٧ سنة ١٩٤٠ ، الصفحات ٨٢ — ٩٢
وسوف يظهر ملحق بمؤلفاته فى هذه المجلة حـ ١٥ — ١٦ سنة ١٩٥١ م .

ومنها كتاب الآثار التركيـة فى الأناضول ، فى مجـلدين (باريس ، ١٩٣١ — ١٩٣٤ م) ، وكتاب رحـلات أثرية فى تـركيا ، فى مجلدين (باريس ، ١٩٣٤ م) ، وكتاب القصور التركية حول شواطىء البوسفور (باريس ١٩٤٣) . وممن قام بخـدمات جليلة كذلك فى هـذا الميدان جرترود بل ، وجيرلت ، وروينر ، وكولن — وينر ، وتراسى ، وجودارد وسوڤاچيه ، وسمث ، وولبر ، وغيرهم . ومن المؤسف أنه يستحيـل على كاتب هذا الفصل القصير أن يذكر شيئا من فائق البحـوث التى قام عليها مختلف الباحثين فى كل فروع الاثار ، ولابد من الاقتصار على أسماء بضعة فقط من أولئك الباحثين . ففى شاسع ميـدان الفنون الزخرفية نستطيع أن نشير أولا الى الجهود التى قام عليها والسن ، وريجـل ، وبود ، وثانيا الى المطبوعات النموذجية التى أخرجها زره وكونل ، وأخيرا الى الدراسات العالية التى قام عليهامارتان ، وكوشلان ، ومارسـيه ، وفون فالكه ، وريفشتال ، وديماند ، وأغا أوغلو ، ولام ، واردمان ، وداى ، ولين ، ورايس ، وبهرامى ، وغيرهم . واجتذب التصوير عقـول كثير من الباحثين والخبيرين بالفنون ، ومنهم بلوشيه ، وشولتز ، ومارتو ، وڤيڤير ، وسيرتوماس آرنولد ، وساكسيان ، وستوكين ، ودى لورى ، وموتيريه دى ڤيلار ، ودياكوف ، وشرويدر ، وبوختال ، وأولئك بالاضافة الى بنيون وولنكنسون ، وجراى ، الذين اشتركوا ثلاثتهم فى تأليف كتاب المنمنمات الايرانية (لندن ، ١٩٣٣ م) ، وهو أحسن كتاب فى موضـوعه .

وثمة جماعة أخرى من الجانحين الى التخصص هى جماعة العامدين الى وصف التراث الأثرى فى اقليم معين ، ولهذه الجماعة ينتسب جوميز مورينو ، وتوريس بالباس ، وفرانديس ، وهو الذى تركزت ميـوله فى الفن الاسبانى المغربى (Hispano-Moresque) ، ثم كومارازوامى ، وبراون ، وجوتز ، وهو الذى وصف الفنون الاسلامية فى الهند . وأنتج الاهتمام الحديث بالكشف عن الماضى جماعة أخرى من أولئك الاخصائيين

وهم علماء الحفائر ، وعلى رأسهم هرتزفلد الذى لا يدانيه أحد ، ومنهم كذلك أيتون ، وهاوزر وولكنسون ، وأولئك الثلاثة من الولايات المتحدة الأمريكية ، ولعل أكثر هـذه الجماعة كلها توفيقا ونجاحا شلومبرجر الألمانى ..

على أن التطور والجنوح نحو هذه الميادين الاخصائية يدل فى ذاته على ازدياد الاهتمام بالفن الاسلامى ، واستمرار التوفيق فى كشف مواد فنية جديرة ، فضلا عن جديد الامعان فى شرحها . وبرهان ذلك اعتقاد فون لسنج سنة ١٨٧٧ م — أى حين نشر كتالوج السجاد الشرقى فى الصور الأوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى — أن أصول ذلك السجاد غير موجودة ألبتة . غير أن كتالوجا مطبوعا لخمس سنوات بعد ذلك التاريخ اشتمل على صور ست سجاجيد قديمة محفوظة لدى أصحابها مقطوع بوجودها ، حتى اذا وصلنا الى سنة ١٨٠٠ م ألفينا عدد السجاجيد المعروفة ، والمصنوعة قبل هذا التاريخ ، تزيد على الألف ، بل لدينا قطع صغيرة وكبيرة من سجاجيد يرجع تاريخها الى أوائل العصور الوسطى . ثم ان المؤلفات فى هذا الميدان أضحت من الكثرة بحيث أصبح الباحث فى حاجة الى كشاف أو فهرس لارشاده ، مع العلم بأن دور التحليل والشرح فى موضوع السجاجيد الشرقية لا يزال كذلك فى دور الطفولة الاولى . وهذه الملحوظة لا تقتصر على الاشارة الى دراسات الرسوم فحسب ، بل الى دراسات الكتابات النظمية الايرانية .

ويتضح نمو مثل هذا الاهتمام فى دراسة التصوير ، ومن الدليل على ذلك أن فان برشم لم يذكر التصوير قطعا سنة ١٨٩١ م ، حين رتب فصول كتابه الذى أزمع تأليفه وتسميته « كتاب فى الآثار الاسلامية » ، وذلك لان شيئا لم يكن معروفا وقتذاك عن هذا الموضوع . والواقع ان التصوير الاسلامى لم يصبح ذا موضوع بين الباحثين الا بعد أن كشف موزيل مجموعة الصور الحائطية فى القصر الأموى فى قصير

عمره بالشام ، سنة ١٨٩٨ م اذ أدى وصول أخبار هـذه الصور الى دهشة وحيرة بين المستشرقين الأوربيين ، نظرا لما هو معـروف من الكراهية التقليدية والتحريم الجامد للصور فى الكتب الفقهية الاسلامية ، كما أدى الى جـدل طويـل حـول الموقف الدينى من التصـوير فى الاسلام . ثم أدت كشوف هرتزفلد لعدد من الصور الحائطية بعـد ذلك بقليل فى سامرا سنة ١٩١١ م الى اعتبار فن التصوير ناحية من نواحى الحضارة الاسلامية ، حتى اذا عثر علماء الحفائر حـديثا على صور ذات مقـاييس كبيرة فى قصر الحـير الغربى بالشـام كذلك (١٩٣٦ م) ، وفى نيسابور بايران (سـنة ١٩٣٩ م) ، لم يبق وجود هذه الصور موضع دهشة أو حيرة بين البـاحثين ، بل تركز اهتمامهم فى تحديد تواريخها ، وأساليبها ، وقيمتها التصويرية الفنية . وليس أدل على مدى تقدم معرفتنا بالصور الاسلامية فى العصر الحاضر من وجـود فهرس تاريخى لمؤلفات الباحثين فى هذا الفرع من فروع الفن الاسـلامى . فأول قائمة شاملة لمجموعة من المنمنمات ، وهى مجموعة المكتبة الأهلية بباريس ، هى التى ظهرت على شـكل كتاب ، من تأليف بلوشـيه ، سنة ١٩٠٠ م [٢٧] . أما أول كتاب فى التصوير الاسلامى ومدارسه المعروفة نقلا عن المجموعات الكبرى للصور ، فكان ظهوره سنة ١٩١٢ ، وهو من تأليف مارتان [٢٨] . وشهدت السنة نفسها كذلك أول كتاب يبحث فى مخطوط مزين بالزخرفة [٢٩] ، ولو أن المؤلفات الخاصة بمخطوط بذاته لم

---

(٢٧) Erdman: Orientalische Tierteppiche auf Bildern des XIV and XV, Jahrhunderts Jahr. d. Pruess. Kunstsamml.: 1929, pp. 261-98.

٢٧ (مكررة فى الأصل) انظر Inventaire et Description des Miniatures des Manuscrits Orientaux Conservés à la Bibliothèque Nationale, Paris, 1900

(٢٨) Martin: The Miniature Painting and Painters of Persia, India and Turkey from 8th to 18th Century, London 1912.

(٢٩) وللمؤلف المتقدم كتاب: Les Miniatures de Behzad dans un Manuscrit Persan daté 1485, Munich, 1912.

تكثر الا بعد سنة ١٩٢٥ [٣٠] م . على أن أول تأليف يبحث فى صورة واحدة بذاتها لم يظهر الا سنة ١٩٤٨ م ، وهو مؤلف مصرى [٣١] من بلاد العربية ، على حين أن جميع المؤلفات المتقدمة جاءت من غرب أوربا ، ومن مؤلفين أوربيين .

وعلى مر السنين أدى ازدياد اليقظة الى أهمية الفن الاسلامى — فى مختلف البلاد الاسلامية — الى اعداد القوائم الخاصة والكتالوجات المرتبة ترتيبا علميا ، وهى قوائم المبانى والعمائر ، وكتالوجات الأدوات الأثرية . وأول هذه ما قام عليه جماعة العلماء الملحقة بجيش نابليون فى مصر ، مما تقدمت الاشارة اليه فيما سبق . ثم انقضى مايزيد على خمسين سنة قبل أن يبدأ العمل ثانيا فى هذا النوع من البحث ، والرائد الأول بين فئة الاثريين الذين وقفوا جهودهم على البحث فى آثار اقليم واحد بأسره هو فيكتور جيران الذى أخرج بحوثا فى كثير من المبانى والمواضع الأثرية فى فلسطين ، ومهد بذلك لبحوث دائرة الآثار الفلسطينية [٣٢] . وتحققت مرحلة أخرى فى هذا الميدان سنة ١٨٨١ م ، حين ألف چوليوس فرانز وروجرز لجنة حفظ الآثار العربية فى مصر ، بأمر الخديو محمد توفيق ، على أن تكون هذه اللجنة تابعة لوزارة الاوقاف . وتعينت أعمال هذه اللجنة فى محضر أول اجتماع لها ، أول فبراير سنة ١٨٨٢ م ومن نصه :

---

(٣٠) راجع Glück : Die indische Miniaturen des Hamzae-Romanes, Wien 1925.

وكذلك Arnold : The Miniatures in Hilali's Poem, The King and the Dervish, Vienna 1926.

وانظر كذلك Martin : Miniatures from the Period of Timur, Vienna, 1926.

وكذلك Martin and Arnold : The Nizami MS., Illuminated by Behzad, Mirak and Kazim Ali, British Museum, Or. 6810, Vienna 1926.

(٣١) بشر فارس : منمنمة دينية تمثل الرسول من أسلوب التصوير العربى البغدادى ، منشورات المجمع العلمى المصرى ، جـ ٥١ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

(٣٢) انظر : Leo Mayer : Saracenic Heraldery, p. 12.

١ — اعداد قائمة بالمبانى الاسلامية ذوات الاهمية المعمارية الفنيـة والتاريخية .

٢ — مراقبة ترميم وحفظ هذه المبانى ، بتقـديم مقترحات لوزير الاوقاف بشأن الاعمال اللازم اجراؤها لذلك ، والاشارة عليـه بالحالات المستعجـلة .

٣ — فحص مشروعات الترميم لهذه المبانى ، والتصـديق عليها ، والعناية بتنفيذها فى دقة .

٤ — تحمل المسئولية فى حفظ الاوراق لجميع هـذه المشروعات فى أرشيف وزارة الاوقاف والاشارة على وزير الاوقاف بما ينبغى نقله من الآثار المعمارية الى المتحف الأهلى (وقتذاك) لحفظه [٣٣] .

وهكذا لم تقتصر جهود هذه اللجنة على اعداد القوائم للآثار الاسلامية فى مصر ، بل تعـدتها الى القيـام على ترميمها وحفظها . ولا تزال أعمال هذه اللجنة مستمرة حتى العصر الحاضر ، ومطبوعاتها الثمانية والثلاثون المشتملة على مراحل نشاطها (وتاريخ آخرها ١٩٤٤م) منابع هـامة للمعلومات الاثرية .

ثم أخذت بلاد أخرى تحذو حذو مصر ، فقامت فى ايران مثلا جمعية الآثار الاهلية (أنجمن آثار ملى) ، وحديثا قامت ادارات حكوميـة فى عدة دول اسلامية على رصد آثارها ، وتركيز العنـاية نحو الآثار الهامة المفتقرة منها الى الترميم بانجاز هذا الترميم .

ومنذ ثلاثين سنة تقريبا قام جماعة من الباحثين فضلا عن ذلك كله باعداد القوائم المؤرخة (check lists) للآثار الهامة ، وهذه القـوائم أداة علمية عظيمة الفائـدة للمعمارى والمؤرخ معا ، ومنها (مؤرخـة الآثار الاسلامية فى مصر حتى سنة ١٥١٧ م ، تأليف كرزويل (١٩١٩ م) ، وكشاف المبانى الاثرية فى حلب ، وعددها مئة وواحد وعشرون مبنى

---

(٣٣) لجنة حفظ الآثار الاسلامية : محاضر الجلسات ، القـاهرة سنة ١٨٨٤ .

اسلاميا (١٩٣١ [٣٤]) ، وقائمة المبانى الأثرية فى اصفهان ، تأليف جودارد (١٩٣٧ م) .

غير أن تأليف القوائم والكتالوجات لمختلف المجموعات الأثرية جاء أكثر صعوبة وتعقيدا من تأليف القوائم والكتالوجات للمبانى والعمائر ، بسبب تنوع مواد المجموعات وبعثرتها فى قارات الأرض ، ولذا غدا ترتيبها ومضاهاتها بالمواد المشابهة من الصعوبة بمكان . وعلى الرغم من ذلك استطاع زره (مشاركة مع متفوخ) أن يخرج كتالوج مجموعتــه من الأدوات المعدنية سنة ١٩٠٦ م ، ، وهو كتالوج لا يزال مرجعا هاما فى موضوعه . على أن الادارة الحكوميــة الوحيــدة التى استطاعت أن تخرج سلسلة كبيرة من الكتالوجات هى ادارة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، اذ طبعت الآن ستة عشر مجلدا تتخللها رســوم متقنة وحواشى تفسيرية دقيقة ضافية ، وذلك بفضل ارشــاد جاستون ڤيت ومشاركته النــاشطة فى اخراج هذه السلسلة [٣٥] . وهذه المجلدات أضافت الى معلوماتنــا اضافات طيبــة فى الفنون الصغرى ، ولا سيما بامدادنا بالحقائق التــاريخية والنقشية المتعلقة بكل مادة من مواد هذه الفنون .

بقى علينا أن نذكر هنــا أن كشوف الأثريين فى بلاد الشرق الأدنى سبقتها طلائع كشفية يرجع الفضل فيها الى مشاهير الرحالين منذ العصور

---

(٣٤) Sauvaget: Inventaire des Monuments Musulmans de la Ville d'Alep. Etudes Islamiques, 1931, pp. 59-114.

(٣٥) مؤلفات جاستون ڤيت فى هذه المطبوعات هى

Lampes et Bouteilles en Verre Emaillé, 1929.

Les objets en Cuivre, 1932.

Stèle funéraire, vols. II, IV; 1395, and Vols. V-X 1937, 1942.

أما الجزءان الأول والثالث فمن تأليف حسن الهوارى وحسين راشد سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٨ . وهناك مجلدات أخرى من تأليف

David Weill : Les Bois à Epigraphes jusqu'à l'époque Mamlouke, 1931.

وله كذلك Les Bois à Epigraphues depuis l'Epoque Mamlouke, 1936.

وكذا Panty : Les Bois sculptés jusqu'à l'Epoque Ayyoubide, 1931.

وكذا Olmer : Filtres des Gargoulettes, 1932.

الوسطى حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهم ماركوبولو ، ومشاردان ، وتاڤرنييه ، وتڤنوه ، ودبروان ، وپورك وغيرهم . لكن الملحوظات التى دونها أولئك الرحالون غدت ضئيلة تافهة بالقياس الى ملحوظات الكشافين والأثريين أمثال ديولافوا . وموزيل ، وياوسن ، وساڤنياك ، وبرونو ، وفون دورماسزوفكى ، وجرترود بل ، وزره وهرتزفلد ، وريڤشتال . وبرغم قلة المظهر فى كثير من النقوش والأدوات التى سجلها وشرحها أولئك الأثريون ، فهى فى غير شك ذوات قيمة تاريخية عظيمة ، وهذا القول ينطبق كذلك على المبانى التى كشفوها ، برغم ما ران على أغلبها من الخراب حين بدأ كشفها .

وفى عشرات السنين الماضية من القرن العشرين أضيفت الى قديم الوسائل الكاشفة للآثار وسيلة جديدة ، وهى الطائرة التى سهلت العثور على المواضع الأثرية وفحص تكوينها فحص الطائر ، فضلا عن تسهيلها دراسة الأشكال المختلفة فى بناء المدن ، ورؤية التطور المعقد فى نمو الحواضر [٣٦] (شكل ٢١ و ٢٣) .

ولكى يستطيع الباحث أن يرى أعماق الحياة والحضارة الاسلامية فى عز أيامها صار من المتعين المفروض عليه أن يحفر ، وأن يكشف بعض المراكز الأثرية الشهيرة بالحفر العلمى . ولعل أول الأعمال الحفرية فى موضع اسلامى بحت هو الذى بدأه پلانشيه سنة ١٨٩٨ م ، وعاد اليه جنرال بيلييه سنة ١٩٠٨ م ، فى قلعة بنى حماد ببلاد الجزائر ، وهى عاصمة الحماديين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادى . ثم بدأ ڤلاسكويز بوسكو فى الحفر حوالى سنة ١٩١٠ م ، فى خرائب عاصمة اسلامية أخرى ، وهى مدينة الزهراء التى سكنها الخلفاء من الأمويين قرب عاصمتهم قرطبة بالأندلس . أما أعظم أعمال الحفر أهمية فهى التى

---

(٣٦) انظر Schmidt: Flights over Ancient Cities of Iran, (Chicago 1940). وفى هذا الكتاب معلومات ذات أهمية عظيمة للباحث فى تاريخ الآثار الاسلامية .

قام عليها زره وهرتزفلد من ١٩١١ الى ١٩١٣ م ، فى سامرا عاصمة العباسيين بعد بغداد ، لا لأن هذه الأعمال أنتجت معلومات فنية هامة فحسب ، بل لانها غدت بفضل دقة التواريخ فى منتجاتها دليلا لدراسة مراكز أثرية أخرى ، ومرشدا لتحديد أزمنة أدوات لم يكن من السهل تحديدها . وثمة حفائر أخرى أجريت فى مدينة الفسطاط ، وهى العاصمة الاسلامية الأولى فى مصر العصور الوسطى ، وفى مدينة بركة سراى على نهر اثل (ڤولجا) ، وهى عاصمة دولة القبيلة الذهبية المغولية ، وفى مواضع اسلامية قديمة أخرى ، مثل نيسابور ، واصطخر ، والرى ، وترمذ ، وباليس ، وتاهرت ، وغيرها ، فضلا عن مواضع القصور الخليفية القديمة مثل خربة المنية ، وقصر الحير الغربى ، وخربة المفجر ، وغيرها . وبالاضافة الى ذلك كله أجريت حفائر فى مواضع أخرى للكشف عن حضارات من التاريخ القديم تعلوها أكوام من الحضارة الاسلامية ، اذ وجدت هذه الأكوام بعض الأحيان أثريا يفهمها ويعتنى بتسجيل محتوياتها ، وهذا هو ما حدث فى سوسة ، وملطية ، وبعلبك ، وحماة ، وأنطاكية ، وعلى شار هيوك ، وغيرها . ولكن نظرا لتشعب انتشار الحضارة الاسلامية وسعة توزيعها الجغرافى ، فالواقع أن عدد المواضع التى تمت أعمال الحفر فيها حتى العصر الحاضر لا يزال قليلا ، وأقل من ذلك مع الأسف مستوى المطبوعات الناتجة عن هذه الحفائر ، لأن هذه المطبوعات على ضرورتها لمواصلة البحث فى كشوفها لا تكاد تذكر شيئا عن مفردات هذه الكشوف ، ماعدا اسماؤها ، ولأنها لا تظهر الا أجزاء فى فينات متقطعة . والمأمول أن تتطور هذه الحال الى ماهو أحسن منها ، ولو أن وفاة أصحاب هذه الحفائر يجعل هذا التطور أحيانا من المستحيلات الأسيفة . ومما يدعو الى ضرورة الاتقان والدقة فى الحفائر العلمية — زيادة عن ذى قبل — أن كثيرا من المدن الرئيسية مثل بغداد لا تبعث شيئا من الأمل فى حفائر مفيدة ، وأن مراكز أخرى هامة ، مثل الرقة أو الرى ، عبثت بها أيدى أرباب الحفائر التجارية ، وهم الذين أتلفوا معظم المادة التاريخية فى هذه المراكز .

واذ نتج عن ازدياد الاهتمام بالفن الاسلامى وفرة من الأدوات الاسلامية فى دور المتاحف والمكتبات العامة ، لم يكن بد من قيام فئة من الاخصائيين المقيمين ، وهم المعروفون فى هذه الدور باسم الأمناء الفنيين ، من أمثال كونل ، وهوبسون ، وولكنسون ، وديماند وجراى ، وغيرهم ، ممن أخذوا فى ترتيب الأدوات الموكول اليهم حفظها وأماتتها ، فعكفوا على دراستها وتحليلها واصدار المطبوعات الوصفية لها . ومن المعروف أن المجموعات العامة فى متاحف أوربا تكونت مما حصلت عليه هذه المتاحف من البلاد الاسلامية فى الشرق الأدنى التى أضحت دولا مستقلة . أو من الكنوز التى بعثرتها الأيام فى الكنائس وبيوت الأمراء ، أو من مشتريات السائحين والمقيمين بالشرق من الأوربيين، أو من مجلوبات الأفراد الخبيرين أو المولعين بجمع الآثار ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . أما تأسيس أقسام خاصة بالفن الاسلامى فى المتاحف الامريكية فهو مما يلفت النظر ، اذ بدأت أول علامات الاهتمام بالفنون الشرقية عامة بظهور مجموعات منها فى بيوت عظماء الاغنياء من المالين الامريكيين الذين اجتذبهم البذخ المتناهى فى هذا النوع من الفنون ، وهو بذخ جعل هذه المجموعات صالحة لزينة بيوتهم الشامخة . ثم نزل كثير من أولئك الأغنياء عن مجموعاتهم هذه للمتاحف العامة ، ومن هؤلاء هنرى والترز ، وشارل فرير [٣٧] ، على حين فضل آخرون أمثال حنا پيرپنت مورجان ، وجورج هوايت مايرز ، أن يجعلوا لمجموعاتهم متاحف خاصة بها مفتوحة للجمهور [٣٨] .

وفى أوربا مجموعات كبيرة من أدوات الفنون الاسلامية توجد عادة فى المتاحف العامة بالعواصم الأوربية فحسب ، على حين أن متاحف مدن الولايات المتحدة فى طول البلاد وعرضها تحتوى على كميات من

---

(٣٧) هذه المجموعات هى الآن متحف والترز للفنون فى بلتيمور ، ومتحف فرير للفنون بواشنطن ، بالولايات المتحدة .

(٣٨) هذه المجموعات هى الآن مكتبة بيربونت مورجان فى نيويورك ، ومتحف المنسوجات فى واشنطن .

الأدوات الفنية الاسلامية . وليس يرجع هذا الى وفرة الثروة الاهلية وسعة الاهتمام العام ، بل يرجع كذلك الى استطاعة عديد المتاحف بمختلف المدن ابان تأسيسها الحديث أن تشترى نماذج طيبة من الفنون الشرقية الواصلة اليها من آسيا ، أو غيرها من القارات ، للبيع بأثمان معتدلة ، بالقياس الى أثمان الصور والتماثيل الأوربية التى أخذت طريقها سابقا على أية حال الى المتاحف الأمريكية الكبرى . والحديث فى المجموعات الاثرية الاسلامية لا يكمل الا بذكر المتاحف والمكتبات فى عواصم الشرق الأدنى ، وهى استانبول ، والقاهرة ، وبيت المقدس ، ودمشق ، وطهران ، وبعضها متاحف قديمة فى قصور بالية عتيقة ، وبعضها متاحف حديثة فى بنايات حديثة بنيت خصيصا لأغراض متحفية . وينبغى أن يضاف الى هذا العدد من المتاحف بعواصم الشرق الأدنى بضعة من المتاحف الاقليمية كذلك ، وهى أحسن ضمانا لحفظ الكنوز الأثرية المحلية ، وأحفظ لها من الضياع والنسيان فى زوايا حوانيت التجارة فى الآثار .

ثم انه نظرا لبعثرة مواد الفنون الاسلامية بين متاحف تفصلها مسافات جغرافية بعيدة بعضها عن بعض ، لا يوجد فى الواقع متحف واحد فيه من الغناء والوفرة فى الآثار الفنية ما يعطى صورة كاملة للتطور الفنى فى هذه الآثار . ولهذا السبب فكر المعنيون بالفنون والآثار عامة ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، فى اقامة معارض دورية أو شبه دورية للفن الاسلامى فى بعض المدن العالمية ، وأول هذه معرض الفنون الايرانية الاسلامية فى نادى برلنجتون للفنون الجميلة فى لندن ، سنة ١٨٨٥ م . وظلت هذه الفكرة موضع التنفيذ منذ هذه السنة فى معظم البلاد الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية والشرق الادنى كذلك ، حيث أقيم أول معرض من هذا النوع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٢٦ م .

على أن أول معرض ذى معنى هام هو الذى أقيم فى مدينة ميونيخ

بألمانيا سنة ١٩١٠ م ، اذ أعقبه تأليف حافـل أسهم فيه جميع الاخصائيين البارزين وقتذاك بمقالات متنوعة ، ومن ذلك وحـده يتضح مـدى الحماسة الكبيرة التي أضفاها هذا المعرض على دراسات الفنون الاسلامية. وينطبق هذا القول على معرض الفن الايرانى فى لنـدن ، سنة ١٩٣١ م ، اذا أعقبته كذلك سـلسلة كاملة من المطبوعات الهامة ، المتصلة مباشرة أو غير مباشرة بهذا الفن . وفى أواخر القرن التـاسع عشر الميـلادى كذلك أقام بعض أصحاب المجموعات وبعض أرباب الأولاع فى الفنون معارض خاصة بمادة واحدة من المواد الفنية ، ومن هذه المعـرض العظيم الذى أقيم فى متحف الصناعات (Handelsmuseum) بمدينة ڤيـنا سنة ١٨٩١ م ، لسجاجيد الشرق الأدنى . وترتبت على هـذا المعرض بداية البحوث فى هـذا الميدان ، على حين أدى أول معرض للمنمنمات الايرانية والهندية والتركية ، فى متحف الفنون الزخرفية فى باريس سنة ١٩١٢ م الى أول بادرة من بوادر الاهتمام العام بهذا الميـدان فى دوائر أرباب المجموعات الفنية . وحديثا أدى الجنوح والامعـان فى التخصص الى اقامة معارض فى فـرع واحد من مادة من المواد الفنية ، مثل معرض السجاد المعـروف باسم السجاد البولنـدى فى متحف متروبـوليتان (١٩٣٠ م) . ومعرض السجاجيد الصينية ذوات الرسوم الأفعوانيـة (dragon rugs) ، بمتـحف المنسـوجات فى واشنجطون ، عاصمـة الولايات المتحدة الأمريكية ، (١٩٤٨ م) .

ومنذ أوائل الاهتمام بالفن الاسـلامى درج الأثريون على اخراج نتائج البحوث الأثرية التى لم تصل أحجامها الى مرتبة الطبع فى كتاب مستقل ، فى مقالات تنشر فى المجلات الخاصة بالدراسات الشرقية . ثم انه نظرا لازدياد المجموعات الأثرية فى المتـاحف العامة تعين طبع البحوث الوصفية لها ، مثل بحوث زرّه وكونل فى التقريرات السنوية أو النشرات الدورية التى تصدرها هذه المتاحف . ثم أخذت مطبوعات المعـاهد الأثرية الأوربية فى الشرق الأدنى تحتوى كذلك على عدد مطرد الزيادة

من المقالات الخاصة بالعصر الاسلامى ، على حين أخـذت النشرات الرسمية الخاصة بدوائر الآثار التابعة لمختلف الحكومات بالشرق الأدنى تعلن عن اكتشافات جديدة أو بحوث أثرية حديثة فى بلادها ، ومثال ذلك مجلة آثار ايران التى يشرف على نشرها جودارد ، ومجلة سومر العراقية [٣٩] . وشجعت مجلة الفن الاسلامى (Ars Islamica) مواصلة البحوث الأثرية تشجيعا كبيرا ، وهى أول مجلة مخصصة لدراسة الفنون والآثار الاسلامية ، ومؤسسها محمد أغا أوغلو ، سنة ١٩٣٤ م ، وتتولى اخراجها جامعة متشجان . وحديثا بدأت الدائرة الشرقية بمتحف هرميتاج فى لنينجراد نوعا جديدا من المطبوعات الممتازة بخلوها من التخليط الذى تتصف به النشرات المتحفيـة الأوربية ، والأمريكيـة . وأصدرت هذه الدائرة بين سنتى ١٩٣٩ و١٩٤٧ أربعة مجلدات عنوانها بحوث الدائرة الشرقية ، وهى تبحث فى فنون كل من الشرق الأدنى وآسيا عامة فى العصور القديمة . وفى هذه المجلدات تشغل الفنـون والصناعات الفنية فى العصر الاسلامى والعصور السابقة له مباشرة صفحات كثيرة . ونظرا لاحتواء متحف هرميتاج وغيره من المتاحف الاقليمية فى روسيا السوفيتية على كميات كبيرة من مواد أثرية هى على أهميتها غير معروفة للباحثين ، فالمرجـو أن تظل هذه السلسلة متصلة الظهور . وأخيرا ينبغى أن نذكر هنا مجلتين على جانب من الأهميـة لدراسة الفن الأسبانى المغربى ، وهما مجـلة الأندلس (Al-Andalus) التى تشرف على اخراجها معاهد الدراسات الاسلامية فى مدريد وغرناطة ، ومجلة المذكرات الاسبانية (Notes Hispaniques) التى أخرجتها الجمعية الأسبانيـة فى أمريكا من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ م ، ولكنها لسـوء الحظ باتت محتجبة عن الظهور .

ومما ترتب على كثرة المطبوعات الأثرية الحديثة وتنوعها ، فضـلا

---

(٣٩) تتولى دائرة حفظ الآثار فى ايران طبع هذه المجلة المذكورة هنا ، وتشرف الادارة العامة للآثار القديمة فى العراق على اصدار مجلة سومر العراقيـة .

عن بعشرة المؤلفين المعاصرين بين أقطار الأرض من الولايات المتحدة الى الهند ، أن صار اخراج المؤلفات الراصدة لهذه المطبوعات (Bibliographies) ضرورة علمية واضحة . وبعد جهود متقطعة فى هذا السبيل خال الأثريون أن المشكلة انحلت حين أخرج ليوماير الدليل السنوى لمراجع الفنون والآثار الاسلامية منذ سنة ١٩٣٥ م ، غير أن قيام الحرب العالمية الثانية أمات هذا العمل التعاونى ، بعد أن ظهر منه ثلاثة مجلدات ، والأمل غير قليل أن تعود الحياة الى هذا العمل فى المستقبل القريب . وثمة أمنية أخرى جديرة بالتحقيق ، وهى تأليف كتاب شامل للمطبوعات والبحوث المفردة التى سبق اخراجها فى الفنون والآثار ، لأن أخشى ما تخشاه دوائر الأثريين أن تطغى سرعة النسيان على كثير من البحوث والكشوف ، ولا سيما ما نبع منها من روسيا واسبانيا وبلاد الهند . وهناك حاجة ماسة الى مرجع يحصى الجذاذات (الفيشات) الدالة على الأصول . والصور الشمسية ، والنقوش المنسوخة ، والرسوم التخطيطية ، التى خلفها المؤلفون المتوفون . ومن هذه على سبيل المثال لا الحصر جذاذات فان برشم فى مدينة جنيف ، وجذاذات ريفشتال فى نيويورك ، وجذاذات هرتزفلد فى واشنجطون ، وحبذا لو امتد هذا المشروع الى جذاذات الأحياء من المؤلفين . وسوف يظل كثير من البحث معتمدا على الاكتشافات التى تأتى بالصدفة ، مستهلكا للاوقات الطويلة فى غير حساب ، حتى يتم هذا المشروع بالذات ، بل ربما يؤدى عدم اتمامه الى تكرار البحث فى موضوع سبق بحثه بحثا نهائيا حسنا .

وهنا ينبغى أن نخصص بضع عبارات لمسألة تدريس الآثار والفنون الاسلامية ، وذلك لأنه مع ماهو معروف من أن معظم الباحثين الذين تفوقوا فى ميدان الفنون والآثار الاسلامية لم يتتلمذوا على أحد ، بل علموا أنفسهم بأنفسهم (autodidacts) ، فالغاية التى ينشدها الباحثون دائما هى تكوين جيل جديد من الباحثين الذين يتلقون تمرينا

باكرا فى المؤهلات الخاصة والطرق الجديدة فى البحوث الأثرية . وربما كانت جامعة ڤينا أول جامعة تنشىء كرسيا أستاذيا خاصا بدراسة « العلوم التاريخية الشرقية المساعدة » ، نظرا لاختصاصات أول أستاذ لهذا الكرسى ، وهو فون كراباتشك . ومنذئذ قام أثريون معروفون فى عديد الكراسى الأستاذية بمختلف الجامعات فى أنحاء العالم ، ومنهم فان برشم ، وجوميز مورينو ، ومارسيه ، وكرزول ، وريفشتال ، وكونل ، وأغا أوغلو ، وماير ، وسوفاچيه ، وزكى حسن ، وغيرهم .واعتبر آخرون ، أمثال هرتزفلد وسير توماس آرنولد ، ان الفنون والآثار الاسلامية موضوعا واحدا من موضوعات دراساتهم . ومن الملحوظ حتى العصر الحاضر أن علوم الفنون والآثار الاسلامية — فضلا عن المؤهلات الواسعة التى تتطلبها — دلت على أنها ليست مما يسهل اقتناصه واستيعابه فى سرعة ، بدليل أن من جمهرة الدارسين الذين تأهلوا أحسن تأهيل فى هذه العلوم والمؤهلات لم يصل منهم الى مستوى أساتذتهم سوى القليل .

وهذه الحقيقة تجعلنا وجها لوجه أمام المسائل التى ينبغى مناقشتها ، اذا أردنا النظر الى المستقبل ، وقصدنا الى حساب حاجاتنا المستقبلة ، ومبلغ ما نأمل من التوفيق فى تحقيقها .ويتضح للقارىء مما تقدم هنا أن دراسة الفنون والآثار الاسلامية تنبت وتستمد من أصلين اثنين ، وهما المعرفة العامة بالدراسات الاسلامية ، ثم المعرفة بتاريخ الفن . وفى المرحلة الأولى من مراحل التطور فى دراسة الفنون والآثار الاسلامية نرى جماعة من النميين ، والنقشيين ، والمؤرخين ، تأسسوا أحسن أساس ، ولا سيما فى اللغات ، والأدب ، والتاريخ ؛ ولكنهم لم يمرنوا أى مران فى تمييز الأساليب الفنية بعضها من بعض . ثم جاء من بعد أولئك فئة عارفة تمام المعرفة بتحليل الأسلوب الفنى ، ولكنهم أضفوا الى عملهم كمية دافقة من الحماسة للأدوات والآثار الفنية ، ولتفسيراتهم الشخصية لها ، دون كمية متساوية من المعرفة بالحياة الدينية ، والمراجع الأدبية ، والحقائق

التاريخية . وكان مما لا محيص عنه أن يرتكب رجال هذه الفئة الثانية فى بحوثهم أخطاء فى التفاصيل التاريخية لا يغفرها رجال الفئة الأولى ، برغم ما يكون فى هذه البحوث من آراء وأفكار أساسية مقبولة . وانطبق هذا النقد فى صورة خاصة على مؤلفات شتر زيجوفسكى فى الفنون الشرقية ، بما فى ذلك الفنون الاسلامية ، لأن هذا المؤلف خلق عددا من النظريات المثيرة للدهشة ، دون أية رعاية للحقائق الجغرافية والتاريخية ، وذلك أوائل القرن العشرين ، وهى سنوات المرحلة التكوينية فى ميدان البحوث الفنية والأثرية . ومن ناحية أخرى لم يستطع الأثريون والنقشيون من رجال الفئة الاولى أن يبنوا نتائج بحوثهم دائما على حقائق تاريخية قاطعة ، بل اضطروا أحيانا الى الاعتماد على أحاسيسهم وانطباعاتهم الشخصية ، وأن يستخدموا التحليلات الأسلوبية استخدام مؤرخى الفن لها ، وذلك كلما اصطدموا بأشياء فنية أثرية (artifacts) غير مؤرخة . وفضلا عن ذلك لم تكن طرق المستشرقين فى مؤلفاتهم بنجوة من النقد دائما ، برغم ما تتسم به هذه المؤلفات من التزام الحقائق والصبغة العلمية . ونضرب لذلك مثلا بالصور المنسوبة الى بعض المصورين بعد قراءة مزعوم توقيعاتهم عليها ، دون الانتباه الى احتمال اضافة هذه التوقيعات الى تلك الصور المختلفة تمام الاختلاف فى أسلوبها عن الصور المقطوع بنسبتها لأصحابها من المصورين ، وهو ما يتبين لمؤرخى الفن فى وضوح بعد شىء من الفحص .

وربما قال قائل هنا ان نظرة خالصة الى هذه الحال كان ينبغى لها أن تؤدى فى هذه المرحلة من مراحل التطور فى البحوث الفنية والأثرية الى شىء من التمازج بين هاتين الطريقتين ، كما حدث فى كثير من التوفيق فى ميدان الفنون الغربية الأوربية . غير أنه برغم ما استعرضنا هنا من المحاولات فى هذا السبيل ، سواء بقيام اثنين أو أكثر من الباحثين ، على غرار المؤلفات التى أنتجها مشاركة كل من زره ومتقوخ ، وزره وفان برشم ، أو بتمرين شخص تمرينا خاصا ، كما يتضح من مؤلفات

هزتزفلد وكونل وسوفاچيه ، فالخلاف بين هاتين الطريقتين فى التأليف أدى غالبا الى شىء من عدم الاعتبار وقلة الثقة بين الفئتين ، وهـذا بدوره أدى الى شىء من تضـاد الشخصية فى أرجاء ميـدان البحث فى الفنون والآثار الاسلامية [٤٠] . والواقع أن هاتين الطريقتين لا ينبغى انفصالهما ، لأن كلا منهما تكمل الأخرى . ونحن ندرس الحضـارة الاسلامية ، لا لأجل أنها حضارة معينة قامت بل لأجل أنها حضارة ذات منتجات وأفضال خاصـة على البشرية . ولهـذا يجب علينا أن ندرس هذه المنتجات كلها ، ماهو منها عام شائع ، وماهو خاص نادر ، فى أدوار الحضارة الاسلامية ، لأن لدينا كميات هائلة من المواد ذوات الأهمية والمعنى الأثرى ، وهى مواد تكشف لنا عن سالف العصور فحسب ، دون أن تشبع شيئا من حاسة الجمال فينا ، كما أن لدينا مواد كثيرة تكتشف عن محاولات واضحة للخروج على النماذج الشائعة ، وتنبىء عن جهود عامدة ومقدرة على ابتكار قطعة فنية . ومواد هذا النوع الثانى هى وثائق تاريخية مثل غيرها من المواد ، ولكنها تستأهل عنـاية خاصة ، وتتطلب دراسة خاصـة كذلك ، اذا أردنا أن نصل الى معانيها وصولا تاما ، وهذا فضلا عن أنها من مبتكرات الأفذاذ من أساتذة الفن . ومن ذلك يتضح أن دراسة المواد الأثرية لحضارة من الحضارات يتطـلب أولا عـدم التقيد ، لا بطرق الباحث الأثرى فحسب ، ولا بطـرق مؤرخ الفن فحسب . ومن المعروف أن الفصل بين الطـريقتين ليس فى الامكان فى متاحف الآثار ، والغاية السليمة هى أن نعمل على الوصول الى أحسن الطرق الصالحة لأنواع التحليل والتفسير ، وأن نسـمو عن المستوى الذى يغرق فى الاعتماد على الاحساس الذاتى ، لا الموضوعى .

واذ نستطيع بعد ذلك أن ننظر الى الامام لنرى ما سوف تتمخض عنه الأيام من التطورات المستقبلة فى ميدان البحوث فى الفنون والآثار الاسلامية ، فلعل من الأكيس والأحوط أن نصف هـذه التطورات فى

---

(٤٠) Sauvaget : Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, Paris, 1943, pp. 51-53.

عبارات عامة جريا على المستوى التعميمى الذى وصفنا فيه تاريخ تقدم هذه البحوث فى الصفحات السابقة . ويبدو أن هذا النحو من الوصف هو الأليق ، ولاسيما بعد أن أخرج كونل تأليفا حديثا عين فيه ما يجب على الأثريين أن يقوموا به فى المستقبل ، وبخاصة المواضع الأثرية المختلفة التى لا معدى للحفر فيها أن ينتج أطيب النتائج (٤١) . وفى محاضرة بجامعة پرنستون بأمريكا أدلى كرزويل باقتراحات مماثلة لما أدلى به كونل فى كتابه (٤٢) .

الواقع أن استمرار العمل فى ميدان الفنون والآثار الاسلامية عن طريق التنقيب ، والاستطلاع والفحص ، والدراسة الممعنة فى الأشياء الأثرية ، سوف يظل الواجب الأول أمامنا . وليس فى استطاعة أحد أن يعرف ما عسى تنبؤنا به مخبوءات الآثار والمخلفات الأثرية ، أو مدى ما تغيره هذه المخبوءات والمخلفات بعد كشفها من معلوماتنا فى الحضارة الاسلامية . ونسوق لذلك أمثلة واضحة من الماضى القريب ، وهى حفائر القصور الأموية بالشام وفلسطين ، فهى التى أمدتنا لا بمعلومات جديدة فى أصول المعمار والزخرفة الجصية (Stucco decoration) فحسب ، بل ساعدتنا أكبر المساعدة على دحض خرافة انعدام النحت فى تصوير الكائنات الحية فى الفن الاسلامى . وعلى هذا كلما ازدادت المواد الأثرية لدينا ازداد استحضارنا للماضى دقة وسلامة علمية ، ففى شبه جزيرة العرب وأفغانستان مساحات لم تمسسها أيدى الأثريين حتى العصر الحاضر ، وفى استانبول وحدها ما يربو على مئة وأربع وعشرين ألفا من المخطوطات معظمها لم يدرسه أحد دراسة وافية بعد ، وبعضها يحتمل أن يحتوى على منمنمات ذات أهمية بالغة . وفى استانبول كذلك كنوز عظيمة من

(٤١) Kûhnel : Ergebnisse und Aufgabender Islamischen Archà-ologie in der Orient in Deutscher Forschung, Leipzig, 1944, pp. 255-259.

وكذلك Beitràge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, Leipzig, 1944, pp. 254-263.

(٤٢) تنشر مجلة (Art Bulletin.) قريبا اقتراحات كرزويل فى محاضرته.

المنسوجات ، والأسلحة ، ومختلف الأدوات العسكرية ، من المغافر ، والزرود ، والتروس ، وهكذا (٤٣) ، بل ان المجموعات المرصوصة فى المتاحف الغربية من مختلف الأدوات لا تزال تنطوى على كثير من الجديد المثير للبحث والاستقصاء . وفى بلاد الأطراف الاسلامية ، وهى تركستان الروسية ، والقوقاز ، وباكستان ، والهند الاسلامية القديمة ، واسبانيا ، ينبغى أن يكون العمل فى هذه البلاد مزدوجا ، لأنه يتحتم أولا أن يقوم على الكشف والتنقيب المبدئى كشافون ونقابون من أهلها ، ثم أن يقوم آخرون على نشر نتائج هذا الكشف والتنقيب ، وبدون ذلك يخشى أن يظل العمل المبدئى فى هذه الأقاليم مجهولا لدى الأثريين الغربيين ، مثلما حدث فى كشوف حفائر سراى بركه (شكل ٢٤—٢٥) ، وخوارزم ، وغيرهما من البلاد .

واذ وضح للقارىء أن من المفيد دائما أن تكون نظرتنا الى العالم الاسلامى شاملة لأوسع المعانى ، بسبب سعته التاريخية والجغرافية ، فلا ريب أن الفنون والآثار الاسلامية لا تستطيع كذلك الا أن تتطلب هذا المستوى من سعة النظر والشمول . وعلى هذا ليس يكفى لفهم الفنون الاسلامية على وجه كامل أن ندرس أشكالها فحسب ، لأن هذه الأشكال لا تدل وحدها على جميع المفاتيح اللازمة للوصول الى أصولها وأوضاعها التاريخية ، بل ينبغى علينا أن نوغل فى بحث فنون الحضارات السابقة والمعاصرة لظهور الاسلام ، وهى فنون أثرت فى الفنون الاسلامية تأثيرات متنوعة . ومن هذه فنون مصر البيزنطية القبطية ، وايران الساسانية ، وفنون الشام فى العصر الكلاسيكى الأخير ، وفنون سهوب وسط آسيا ، فضلا عن فنون الامبراطورية البيزنطية نفسها ، وأرمينية ، والقوقاز ، والصين . الواقع أن كشفا أثريا جديدا واحدا فى أى من هذه

---

(٤٣) انظر Tahsin O. P. : Türk Kuma ve Kadifeleri No. 1. استنابول ، سنة ١٩٤٦

وكذلك Stocklein : Die Waffenschatze in Topkapu Sarayi Müzesi zu Istambul. Ein Vorlaufiger Bericht, Ars Islamica, I, 1934.

الميادين يحتمل أن يحدث عكوسا هامة فى بعض القواعد المصطلح عليها فى الفنون الاسلامية ، والحاصل أن الدراسات المستقبلة فى الفنون والآثار الاسلامية لا تستطيع أن تبقى فى معزل عن دراسات الفنون والآثار فى غيرها من الميادين ، وأن الفنون والآثار الاسلامية يلزمها أن تقرن كشوفها بكشوف الميادين التاريخية والجغرافية القريبة ، وربما البعيدة كذلك .

ثم اننا اذا أردنا أن نتصور التيارات المستقبلة فى البحث فى الآثار والفنون الاسلامية ، ففى استطاعتنا أن نقول ان هذه التيارات سوف تدرك ادراكا مطردا أن ليس يكفى أن نحلل أسلوب مبنى معمارى ،أو صورة ، أو أداة من الأدوات الأثرية ، وان ليس يكفى أن نعرف خاصيات هذا وذاك ونقوشه ، أو بعبارة أخرى ان ليس يكفى أن ننظر الى كل من هذه الأشياء الأثرية كأنما ننظر الى شىء مستقل بذاته ، دون أى اعتبار للأحوال والأفكار التى أسهمت فى ابتكاره وتكوينه واتناجه . فالبديهى أن هذه العمائر والأدوات تم بناؤها أو صنعها لغرض خاص ، ولادخال السرور الى قلوب أصحابها ، وأنها ابتكرت فى أحوال وأجواء اجتماعية خاصة ، لتحمل فى أجزائها أفكارا خاصة كذلك . ولهذا يتعين علينا أن ندرس الغرض الذى من أجله بُنى المبنى ، والمنفعة التى من أجلها صُنع الشىء الأثرى ، وأن ندرس أحوال الحياة الاجتماعية والصناعية فى عصر هذا وذاك ، وأن نعرف المصدر الذى جاءت منه المادة الأثرية أو فكرتها ، وكذا جميع المعانى التى ساعدت على ابتكار هذ المبنى وذاك الشىء الأثرى ، سواء أكانت هذه دينية ، أو سحرية ، أو تنجيمية ، أو شعبية . ومن الواضح أنه مهما اتسمت به عمارة ، أو صورة ، أو اداة أثرية ، من سمات عامة أو زخارف مونقة تسر العين ، فواجب الباحث أن ينظر كذلك الى ما تنطوى عليه هذه الأشياء الأثرية من المعانى الأوسع والمدلولات الحضارية العامة ، ما دامت غايته معرفة المعنى الحقيقى والمغزى الكامن فى أداة من أدوات آثار الماضى .

وليس فى هذه الملحوظات التوجيهية التى تتنبأ بها للتيارات المستقبلة فى بحوث الأثريين شىء جديد نقترحه هنا لأول مرة ، اذ الواقع أن عددا غير قليل من البحوث الحديثة يدل على ظهور هذا التيار . ونسوق من بضعة الأمثلة للبرهان على ذلك دراسة تكوين مدينة اسلامية كبيرة دراسة تستمد من الآثار والمتون التاريخية معا [٤٤] ، أو بحث أدوات معدنية معينة بحثا لا يقتصر على أشكال هذه الأدوات وزخارفها فحسب ، بل يتعدى الى بحث وضعيتها فى المجتمع الاسلامى [٤٥] ، أو دراسة أصل رمز من الرموز الفلكية ومدى تطور هذا الرمز فى الاسلام (٤٦) . فهذه الأمثلة كلها تستمد من روح واحدة ، ولو أنها تختلف فى طريقة استمدادها من هذه الروح فى سبيل حل مسائل مختلفة . ولا يخالجنا شك فى أن التقريب بين ميدان تاريخ الفنون الاسلامية وميدان الآثار الاسلامية سوف ينتج نماذج كثيرة من هذه البحوث المتكاملة ، وكما تنبأ فان برشم سوف تضيف هذه البحوث اضافات عظيمة الى مستوى معرفتنا بالحضارة الاسلامية التى يبلغ الفن فيها منتهى آيات الجمال .

ولعل من الواضح بعد ذلك أن هذه الروح الجديدة سوف تؤدى الى ازدياد مدى معرفتنا واحساسنا بجمال العمائر والأدوات الأثرية الاسلامية ازديادا بالغا ، وأنها سوف تفتح فضلا عن ذلك ميادين جديدة لبحوث لم تتناولها الأيدى الا قليلا حتى العصر الحاضر . ومن هذه ميدان علم التصوير (Iconology) ، وهو علم يبحث فى فن الملاءمة والجمع بين الخيال والحقيقة فى الصور وبين الأفكار المعاصرة البادية فى الأدب . وثمة ميدان آخر هو علم الاصطلاحات الفنية (terminology) ولم نر منه حتى الآن سوى بحوث مبدئية متقطعة ، ونحن فيه بحاجة الى بحوث شاملة لا تزال فى عالم الغيب . ويتضح من طبيعة العمل فى ميدان الاصطلاحات الفنية أن المران والدراسة فى فقه اللغات ليس يكفى ، بل

---

(٤٤) Sauvaget : Alep, Essai sur le Développement d'une Grande Ville Syrienne, des Origines au Milieu du XIXe siècle. Paris, 1941.

(٤٥) Aga-Aglu About a Type of Islamic Incense Burner, (Art Bulletin, XXVII, 1945, pp. 28-45).

يجب استكمال هذا وذلك بمعرفة المواد الأثرية والطرائف الفنية معرفة تامة . وأخيرا سوف تنشأ بحوث فى الجمال المثالى الذى يسطع فى الأدب ، وتنعكس أشعته فى الفنون الرفيعة . ولعل مما يساعد على الاهتداء الى معان جديدة أن نقرن بين مستويات الجمال فى الشرق ومثيلاتها فى الغرب ، وهى مستويات يغلب اختلافها بعضها عن بعض ، نظرا لاختلاف العقلية والمسافات الزمنية والجغرافية .

يتبقى بعد ذلك كله سؤال للاستفهام ، وهو هل دراسة الآثار والفنون الاسلامية جزء كمالى من الجهود السادرة فى سبيل المعرفة ، أو مظهر من مظاهر حب استطلاع الماضى ، أم هناك معان أو أهميات أخرى لهذه الدراسة ؟ الجواب على ذلك أن العلماء والفلاسفة المسلمين أثروا فى العقل الأوربى فى العصور الوسطى تأثيرا بعيدا عن طريق مؤلفات الرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وكثيرين غيرهم ، وأن الآداب والأفكار الاسلامية غدت موضع اعجاب كبير فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، بدليل الترجمات الكثيرة لقصة ألف ليلة وليلة ، كلها أو بعضها ، وأولهما ترجمة المستشرق الفرنسى جالاند التى ظهرت بين ١٧٠٤ و ١٧١٧ م ، وهذا فضلا عن ديوان الشرق والغرب (Westôstlicher Diwan) تأليف جيته الألمانى ، وقصيدة سهراب ورستم ، تأليف ماثيو آرنولد الانجليزى ، ورباعيات عمر الخيام التى نقلها فتز چيرالد الايرلندى الأصل الى الانجليزية . ثم انه لا ريب أن للفن الاسلامى بالقياس الى غيره من الفنون جاذبية قوية بين الغربيين من هذا الجيل ، وأن هذه الجاذبية واضحة فى كثير من الحالات . والواجب المتعين على مؤرخ الفن الاسلامى — فى الغرب والشرق — أن يعمق الشعور بهذه الجاذبية الى رغبة فى فهم جميع نواحى الحضارة الاسلامية التى يعيش فيها عدد جسيم من البشرية .

---

(٤٦) Hartner, W. : The Pseudoplanetary Nodes of the Moon's Orbit in Hindu and Islamic Iconographies, Ars Islamica, V. 1938, pp. 113-154.

وتستطيع الفنون الاسلامية وأربابها من الباحثين الغربيين ان يؤدوا خدمة كبيرة للعالم الاسلامي في العصر الحاضر ، بعد أن أصبح واضحا أن هـذه الفنون هي المعمل الثقافي الذي صادف هوى واعجابا عند الغربيين ، وذلك بأن ينصرف أولئك البـاحثون الى احيائهـا انصرافا يتعوض الشرق به مؤقتا عن تأخره الحالى ، في العلوم النظرية والصناعات المكنية ، مما لا تستطيع حقول البترول الخام أو أهميات الموقع الجغرافي أن تعوضه . ومهما يكن من شيء فلن يوجد سفير للسلام والوئام بين الأمم أذكى من الفن ، وهذه الملحوظات وغيرها اذا اتسعت دوائر فهمها اتساعا جديرا فسوف يقوم الفن الاسلامي بدور هام في مصائر المستقبل .

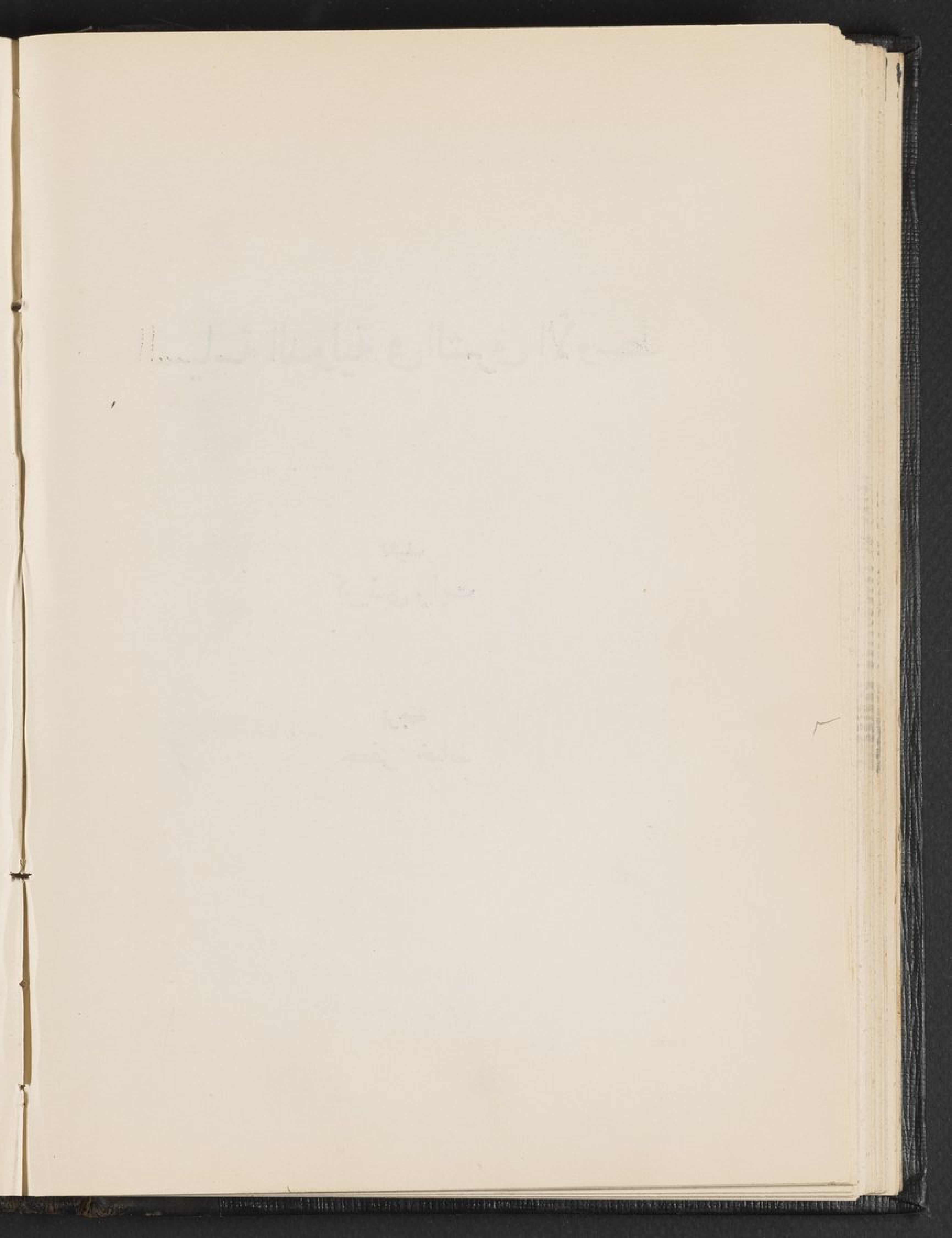
ابريل سنة ١٩٥٣

محمد مصطفى زيادة

السياسة الدولية فى الشرق الأوسط

تاليف
كوينسى رايت

ترجمة
جعفر خياط



بعد الاعتراف بالأمم البلقانية دولا أوربية مستقلة ، وبعد قيام الحرب العالمية الثانية ، أضحى أسم الشرق الاوسط هو السارى فى المصطلح الدولى الحديث ، للدلالة على منطقة من أهم مناطق الأرض ، وهى معظم ممتلكات الدولة العثمانية التى كانت فى آسيا وأفريقيا ، فضلا عن مساحات أسيوية وأفريقية أخرى . وعلى هذا يشتمل الشرق الأوسط على ثلاثة أقاليم جغرافية ، أولها اقليم الهضبات الأسيوية الممتدة من بحر ايجه الى باكستان ، فيضم أفغانستان وايران وتركيا ، ويحتوى على ربع مساحة الشرق الأوسط ، وفيه ما يقرب من ثلث سكانه ، وهم مسلمون فى الغالب . أما الاقليمان الاخران — أى اقليم بلاد العرب والهلال الخصيب واقليم أفريقيا الشمالية ، فيؤلفان معا ثلثى المساحة . ولكنهما يشتملان على ٣٩٪ فقط من سكان الشرق الأوسط كله . وهؤلاء السكان الذين يبلغ عددهم ستة وستين مليونا هم فى الغالب مسلمون كذلك ، ويتكلمون اللغة العربية وتسود بينهم المدنية العربية . غير أن عرب أفريقيا يختلفون عن عرب آسيا ، فعلى حين يجرى كثير من دم العرب الفاتحين الذين جاءوا من الجزيرة العربية فى عروق الأفريقيين، فان هذا الدم اختلط على مقاييس مختلفة بكل من الدم المصرى والسودانى والبربرى والأوربى . وفى الساحل السورى نرى الدم العربى والحضارة العربية مختلطين بدماء السكان الأصليين اختلاطا ساعدته الأوضاع والجيرة الجغرافية والحوادث التاريخية معا . والبلاد العربية تقرب فى مساحتها من الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكن تشبيهها بأرخبيل جزائره العراق ، والساحل السورى ، وساحل البحر الأحمر ، وجنوب شبه جزيرة العرب، ووادى النيل ، وساحل بربرة . وتفصل بين هذه الجزائر وديان يسكنها حَضَر" مستقرون فى الواحات، وبدو متجولون فى الصحارى على ظهور سفن البادية ، أى الأبل .

ويمتد الشرق الأوسط فى ثلاث قارات ، ولا ينفصل عن أية من هذه

القارات بحدود جغرافية ، ولكن أجزاءه تنفصل عما يجاورها من كل من هذه القارات من الأقاليم . يوضح ذلك أن جبال القفقاس والبحر الأسود والبحر الأيجى تفصل الشرق الأوسط عن أوربا ، وجبال البامير ووديان جيحون والسند تفصله كذلك عن سائر القارة الأسيوية والصحراء الكبرى ، ومرتفعات الحبشة تفصله كذلك عن سائر القارة الافريقية .

وتقلصت حدود هذا الشرق الأوسط واتسعت تبعا لمشيئات الحرب والسياسة خلال تاريخه الطويل ، وهو فى الواقع أطول تاريخ ، لأن الشرق الاوسط يحتوى عن مواقع أقدم المدنيات ، وأقدم المدن التى استنبطت الكتابة ، وأقدم السجلات ، فضلا عن أعرق النظم السياسية . وأقوام الشرق الأوسط هى التى أنشأت وتعهدت المدنيات المصرية والبابلية والأشورية والحيثية ، وتاجرت وتفاوضت وتحاربت فيما بينها فى هذه المنطقة الشاسعة أثناء الألف الثانية قبل الميلاد . وعلى غرار ذلك فعل اليونانيون والفرس ، والرومانيون والسوريون ، والمسيحيون والمسلمون ، فى القرون المتأخرة . وظل طابع هؤلاء وأولئك جميعا مطبوعا فى حاضر المنطقة ، فى اشكال مختلفة .

وفى الجلسة الخاصة التى عقدتها عصبة الأمم فى ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧ أشار رئيس الجلسة التركى الى كثير من هذا التاريخ القديم السالف اشارة رمزية ، عندما رحب بمصر عضوا فى العصبة ، حيث قال ان أقدم معاهدةسياسية فى العالم هى التى عقدت بين قدماء المصرين والحيثين الذين يعدهم الأتراك أسلافهم الأقدمين . ثم أعقب ذلك خطب التهنئة من ممثلى العراق وايران واليونان ، فأشار كل منهم الى قديم العلاقات التى تربط مدنية بلاده بالمدنية المصرية . وكان هذه الجلسة الخاصة رمزية كذلك ، اذ حضرها مندوبون عن خمسين دولة من مجموعة الدول الأعضاء فى العصبة ، وعددهم وقتذاك ثمانية وخمسون عضوا ، منها عشر دول من الشرق الأوسط ، أى أن هذه الجلسة كانت أقصى ما توسعت اليه العصبة .

وبرغم انعدام الوحدة الجغرافية والدينية والحضارية بدا الشرق الأوسط متحدا سياسيا ، فالامبراطورية الفارسية على عهد دارا ، والخلافتان الأموية والعباسية ، والامبراطورية العثمانية بعد سليمان القانونى ، كل منها اتجه فى فتوحه نحو الشرق ، وكل منها حكم معظم هذه المنطقة . وكذا كان اتجاه اسكندر المقدونى والرومانيين والبيزنطيين من الغرب الأوربى نحو الشرق ، وبذا تناوب الشرق والغرب السيطرة على الشرق الأوسط . غير أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الحديثة نابع من تفكك الوحدة السياسية التى خلقها المتأخرون من أولئك الفاتحين ، وهم الأتراك العثمانيون ، ويرجع هذا التفكك فيما يرجع الى قوى القومية والامبريالية والدولية ، وهذه كلها نشأت فى الغرب ، وامتدت روحها نحو الشرق الأوسط ، فكونت لسكانه المشكلة الغربية .

حكمت تركيا منذ أواخر عهد سليمان القانونى ، أى منذ أوائل القرن السادس عشر الى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، جميع البقاع الداخلة فى الشرق الأوسط ، ماعدا مراكش ، وجنوب شبه جزيرة العرب وايران ، وأفغانستان . وفى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، احتلت فرنسا الجزائر وتونس ، كما احتلت بريطانيا مصر . وفى خلال القرن العشرين احتلت ايطاليا طرابلس الغرب . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى تم الاعتراف باستقلال الحجاز ونجد ، وهما الآن المملكة العربية السعودية ، كما تم الاعتراف باستقلال مصر واليمن . أما فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق ، فصارت كلها تحت انتداب عصبة الأمم . ثم تحررت العراق من الانتداب سنة ١٩٣٢ م ، واستقلت كل من سوريا ولبنان خلال الحرب العالمية الثانية ، كما استقلت الأردن واسرائيل بعد انتهائها . ونتج عن ذلك كله أن تركيا أضحت مقتصرة على شبه جزيرة الأناضول وأجزاء معينة من أرمينية وكردستان فى آسيا ، فضلا عن بقعة صغيرة من أوربا حول استانبول . ونشأت فى تركيا جمهورية وطنية حديثة بفضل عبقرية كمال أتاتورك .

وهذه الحوادث المعروفة فى التاريخ الأوربى باسم المسألة الشرقية لم تكن سوى تصفية للدولة العثمانية ، وتخلل هذه الحـوادث نمـو القومية فى مصر وبلاد العرب وسورية ولبنان وتركيا وايران ، كما تخللها خصومات امبريالية ونشاط ديبلوماسى دائب فى دوائر وزارات الخارجية الأوربية ، فضلا عن عدد من الحروب . يضاف الى ذلك أن هذه المسـألة الشرقية أضحت مشكلة المشاكل بين الدول الأوربية الكبرى ، وتطلب حل أزماتها صداقة هذه الدول بعضها نحو بعضها الآخر . وعلى هذا أضحى الشرق الأوسط ميـدان السياسة الأوربية الامبريالية ، حتى اذا انتهت الحرب العالمية الأولى ورثت عصبة الامم هذه المشاكل ، وبذا اتصفت هذه المشاكل بصفة الدولية .

ثم تولت هيئة الأمم المتحدة هذه المشاكل بذاتها ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . غير أن نفوذ الشرق الأوسط فى الدوائر الدولية ازداد فى الوضوح والاضطراد منذ أواخر الحرب العالمية الأولى ، فعلى حين كانت تركيا وايران هما الدولتان المستقلتان الوحيدتان فى هـذه الرقعة من الأرض ، أضحت دول الشرق الأوسط عشرا ذوات عضـوية فى عصبة الأمم . وفى هيئة الأمم المتحدة ازدادت هذه الدول حتى صارت اثنتى عشر دولة ، وتؤيدها فى هذه الهيئة بعض الأحيـان ست دول أسيوية ، ودولتان من دول أفريقيا الوسطى ، فضلا عن عشرين دولة من أمريكا اللاتينية . وهذه المجموعة من الدول تستطيع أن تصبح ذات نفوذ فعال ، لأنها تؤلف ثلثى أعضـاء المجلس العـام فى هيئـة الأمم المتحـدة .

وأهمية الشرق الأوسط ترتكز الى تاريخه ووضعه الجغرافى معـا ، فهو منبع الديانات العظمى ، ومصدر أقـدم المدنيات التى اجتذبت اليها الأثريين والحجاج من جميع الأمم . وترجع لتاريخ الشرق الأوسـط قيم لا تخضع للتقدير بالمقاييس الاقتصاديـة أو التعاريف القانونية ، وهذه القيم التى لا يريد الغرب الامبريالى أن يعترف بقوتها هى التى

جعلت التوفيق صعبا بين المطالب القانونية والاقتصادية والمطالب القومية التى لا محيص عن احترامها فى الشرق الأوسط . ثم ان الشرق الأوسط يصل بين ثلاث قارات ويربط بين بحرين عظيمين ، ويحتوى على نفط وافر . ولذا فهو كذلك موضع اهتمام الاستراتيجيين ، فضلا عن الامبرياليين وأصحاب رءوس الأموال .

وليس يشبه الشرق الأوسط فى الوضع السياسى العالمى سوى منطقتين أخريين من مناطق الأرض ، وهما اقليم البحر الكاريبى ، واقليم بحر الصين الجنوبية وجنوب شرقى آسيا . ووجوه الشبه بين هذه المناطق الثلاث أن كلا منها يمر فيه طريق مائى ضيق ، وهى قناة السويس وقناة بناما ، ومضيق مالقا ، وان كلا من هذه المناطق يعوزه الفحم والحديد اللذان يغذيان التصنيع فى السلم والحرب الحديثة .

وكانت كل منطقة من هذه المناطق جزءا من امبراطورية قديمة ، وهى الامبراطوريات العثمانية والاسبانية والمانشوية الصينية ، كما احتوى كل منها على ترسبات نفطية ومنتجات استوائية هامة . ونتج عن ذلك كله أن أية منطقة من هذه المناطق غدت مسرحا للخصومات السياسية بين الدول الكبرى . ففى خلال القرون الثلاثة الأخيرة تورطت أسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهولاندا والولايات المتحدة فى حروب متكررة من أجل منطقة البحر الكاريبى . ثم استطاعت الولايات المتحدة بفضل قربها الجغرافى ، وسيادتها على قناة بناما وبورتريكو وجزر العذراء ، وبحكم مبدأ منرو السارى على جميع الدول الأمريكية ، أن تسيطر على هذه المنطقة خلال القرن العشرين . لكن ألمانيا تحدت هذه السيطرة بغواصاتها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية .

أما اقليم بحر الصين الجنوبى وجنوب شرق آسيا فتورطت فيه الصين والبرتغال وهولاندا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا والولايات المتحدة ، ثم استطاعت بريطانيا بفضل سيطرتها على سنغافورة وهونج كنج ، وبتعاونها مع الولايات المتحدة فى مانيلا بجزائر الفيلبين ، أن تسيطر

هى كذلك على هذه المنطقة فى القرن العشرين . ثم تحدت اليابان هذه السيطرة البريطانية ، ونجحت فى تحديها أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما استفحلت الحرب الباردة فى منتصف هذا القرن العشرين أضحت الصين الشيوعية تحمل لواء التحدى القديم فى هذه المنطقة .

وفى الشرق الأوسط اشتركت تركيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة فى منازعات عديدة خلال القرن التاسع عشر ، فكان فى وسع بريطانيا صاحبة القواعد الحربية فى جبل طارق ومالطة وعدن وقبرص والسويس والخليج الفارسى أن تهيمن على الموقف كله ، بأن آزرت تركيا ضد روسيا ، كما حصرت الأسطول الروسى فى البحر الأسود . ثم أدت السياسة التى انتهجتها بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى الى اضعاف تركيا العثمانية ، وتأييد العرب ضد الأتراك ، وترسيخ أقدامها فى مصر وفلسطين والعراق . على أن القوات الألمانية تحدت هذه السيطرة الشامخة فى الحرب العالمية الثانية بحركة كماشية جبارة فى ليبيا وروسيا ، فضلا عن حركة اندفاعية أزمعتها ألمانيا عن طريق تركيا . وهدفت ألمانيا بذلك كله أن تصل جيوشها الى نفط القوقاز والموصل ، والى قناة السويس والخليج الفارسى . لكن بريطانيا صامدت هذا التحدى حتى كادت تزهق ، واضطرت بعد أن خرجت منهكة القوى من الحرب أن تشرك معها الولايات المتحدة فى مصائر المنطقة ومعالجة المطالب التى عزمت القوميات المحلية الثائرة على تحقيقها ، وهى القوميات التركية والايرانية ، والعربية والصهيونية . وكان من نتائج ذلك أن أضحت البلاد العربية كتلة سياسية هى جامعة الدول العربية .

والمعروف أن الأهداف السياسية والاجتماعية التى أزمع الشرق الأوسط تحقيقها منذ نهضته القومية تغيرت بتغير الأحوال ، وهى لا تزال حتى العصر الحاضر فى تغير وتطور نحو الكمال ، بل ان ما يعنيه الشرق الأوسط فى المستقبل من التغيرات والتطورات لا يمكن تعريفه أو التكهن

به . ولأجل أن نحكم على هذا المستقبل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار قوى القومية والدين فى الشرق الأوسط من ناحية ، ومن ناحية أخرى قوى الامبريالية الغربية ، فضلا عما سوف ينتج عن تناحر الكتلتين الديمقراطية والسوفييتية فى الحرب الباردة داخل هيئة الأمم المتحدة وخارجها .

غير أن التنبؤ بالمستقبل يكون على درجة كبيرة من الصعوبة برغم معرفة حقيقة القوى السياسية المحلية والعالمية ، وبرغم القدرة على تصور وقع بعضها على بعض . ذلك أن الأمر هنا ليس كما يقيس الفلكى تأثير الشمس وتجاوب الكواكب والقمر بعضها فى بعض ، لتقدير سيرها وتعيين منازلها المقبلة . انما الذى يحدث فى القوى السياسية أنها تتأثر فى كل عصر من العصور بالأفكار الدينامية التى يؤيدها رأى عام ، وبطريقة الانتقاء يصبح بعض هذه الأفكار هو السائد ، كما يصبح البعض الاخر قليل الأهمية ، لأن الناس يبدلون رأيهم تبديلا غامضا ، ولذا يصبح التنبؤ بالمستقبل أشد غموضا وابهاما . وعلى هذا يتحتم علينا أن نجمع بين اعتبار الاتجاهات التى تسير فيها القوى الكائنة حاليا ، واعتبار رغباتنا فى المستقبل ، فضلا عن خططنا التى توضع لتحقيق هذه الرغبات . وكلما أصبح العالم منظما تنظيما سياسيا ، كلما تصبح السياسة العالمية جهودا لتحقيق الخطط المختلفة الناتجة عن ذلك التنظيم ، لا نتيجة القوى المتناحرة فى السياسة العالمية . ولذا نسأل اذا أردنا التكهن بمستقبل الشرق الأوسط : ما الذى تنطوى عليه سياسة هيئة الأمم المتحدة المعبر عنها فى الميثاق بشأن هذه المنطقة . الجواب هو أن الرأى العالمى العام اذا عبىء تعبئة منظمة وراء ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، واذا وضع رجال السياسة والحرب خططهم لمنع الخراب والدمار ، وكبح استغلال القوى للضعيف ، فان تقدما مستمرا سوف يؤدى بالشرق الأوسط الى تحقيق أهدافه .

ولهذا يتعين علينا هنا تحليل القوى السياسية ، واتجاهات الرأى العالمى العام ، والمؤسسات الدولية وسياسة هيئة الأمم المتحدة .

١ — القوى السياسية

أكثر القوى تأثيرا فى مصير الشرق الأوسط هى التى تصدر عن الكتلتين المتخاصمتين ، وهما كتلة الديموقراطيات الغربية ، وكتلة الدكتاتوريات السوفيتية . وتقوم سياسة الديموقراطيات على قاعدة الاعتراف بالأمانى القومية والوطنية ، وكفالة الحريات الأساسية للانسان، فى كل مكان ، كما تقوم على سياسة التنظيم الدولى والزام ما تقرره التنظيمات الدولية ، رغبة فى استتباب السلم العام والأمن والاصلاح . أما سياسة الاتحاد السوفيتى فيبدو أنها تصبو الى تكتيل الأمم جميعا بواسطة الكومنترن الذى يسيطر عليه الكرملين فى روسيا ، وذلك لاحداث ثورة انقلابية فى البناء الاجتماعى ، وفى الصناعة والانتاج والاستهلاك ، بغض النظر عن المنفعة الفردية كائنة ما كانت .

ومما لاشك فيه أن الوسائل والأغراض المحلية التى لا تنسجم مع هاتين الكتلتين المتخاصمتين سوف تجعل التأثير العاجل لأية واحدة منهما فى الشرق الأوسط شيئا صعبا ، وهذا على فرض أن تحرز احدى الكتلتين المتخاصمتين انتصارا تاما فى حلبة التنافس الدولى . ولذا سوف يظل مستقبل الشرق الأوسط متأثرا زمنا طويلا بسير الحرب الباردة .

وربما كانت بلاد الشرق الأوسط أقل قبولا لاتخاذ موقف ايجابى معين من احدى الكتلتين المتخاصمتين ومناهجهما من قبولها موقف الرغبة فى تحاشى التورط ، فى أى نوع من منازعات الحرب الباردة ، نظرا لما يربط بعض الدول فى الشرق الأوسط بدولة ما من الدول الكبرى ، أو بسبب الاغراء أو التهديد الذى تستطيعه احدى هذه الدول الكبرى فى المستقبل العاجل . من الأمثلة على ذلك أن تركيا انضمت الى جانب

ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، ثم بقيت على الحياد الى قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ثم أكدت صداقتها لبريطانيا وفرنسا عشية نشوب القتال ضد المحور ، وذلك مقابل التنازل لها عن القسم الشمالى من الانتداب الفرنسى فى سوريا ، ومن أجل خشيتها من روسيا . وبعد أن احتلت القوات الألمانية جزءا كبيرا من روسيا سنة ١٩٤١ عقدت تركيا مع ألمانيا معاهدة تجارية ، ولكنها أخذت تميل ميلا واضحا نحو الأمم المتحدة حتى انضمت اليها ، عندما أضحى النصر وشيكا ضد الدول المحورية . أما الولايات المتحدة فعاضدت تركيا فى مقاومتها للسياسة السوفيتية وأهدافها ضد الأراضى التركية ، ولذا انضمت تركيا واليونان الى منظمة معاهدة شمال الاطلنطى .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية عرفت بلاد العربية وايران من الامبريالية البريطانية والفرنسية مالم تعرف من الامبريالية الألمانية والايطالية ، وأمعنت محطات الاذاعة فى دول المحور فى اظهار مساوىء الاستعمار ، كما أن مفتى القدس ورشيد عالى الكيلانى رئيس وزراء العراق ورضا بهلوى شاه ايران حاولوا التقرب الى دول المحور أملا فى التخلص من مختلف ربقات الاستعمار . لكن التدابير العسكرية السريعة التى اتخذتها بريطانيا بمساعدة روسيا قضت على حركات المحور فى ايران ، كما قضت تدابير سريعة أخرى على الحكم الفرنسى الفيشى فى سورية ولبنان . ومما ساعد على نجاح ما قامت به بريطانيا فى سوريا ولبنان أن العرب الذين انضموا الى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، وحصلوا على شىء من الاستقلال لبلادهم وقتذاك مالوا الى جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية . وعملت السياسة البريطانية على استرضاء أولئك العرب بالاعتراف باستقلال كل من سوريا ولبنان ، وبالجامعة العربية وبالعزم على انهاء الانتداب والخروج من فلسطين . ثم أصبحت سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية أعضاء أصليين فى هيئة الأمم المتحدة .

وفى سنة ١٩٣٦ تم الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، ومع أن

مصر ظلت الى جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية ، ورضيت أن تكون المعقل الرئيسى للقوات البريطانية وغيرها من القوات فى الشرق الأوسط، بل صارت أرضها مسرحا للحرب فعلا ، فانها لم تدخل الحرب رسميا ضد الدول المحورية حتى سنة ١٩٤٥ ، ثم أصبحت مصر عضوا أصليا فى هيئة الأمم المتحدة ، ولكنها اختلفت مع بريطانيا حول تفسير معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وأدت أحوالها الداخلية الى نزول الملك فاروق عن العرش ، وتأسيس حكومة جمهورية يرأسها اللواء محمد نجيب سنة ١٩٥٢ . وحافظت مصر التى هى أقوى الدول العربية على نوع من الزعامة بين هذه الدول فى هيئة الامم المتحدة .

وفى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش تكشفت أهميات استراتيجية للحلفاء بعد احتلالهم شمال أفريقيا ، سنة ١٩٤٢ . ولما كانت هذه البلاد خاضعة لحكم استعمارى ليس فيه الا القليل الضئيل من الحكم الذاتى ، فانها لم تكن متيقظة لأحوالها السياسية ، بالقياس الى مصر وسائر البلاد العربية . غير أن عرب ليبيا لم يكونوا راضين عن السياسة الايطالية التى اضطرت كثيرا منهم الى الهجرة ، لافساح المجال للمستوطنين الايطاليين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . فلما انتهت الحرب ، ونفضت ايطاليا يدها من ليبيا ، تناقشت الدول الكبرى فى أمرها حتى ١٩٤٩ ، وجعلتها خاضعة لوصاية الأمم المتحدة مدة سنتين . ثم أصبحت ليبيا دولة مستقلة سنة ١٩٥١ ، ولكنها لم تدخل هيئة الأمم المتحدة . أما تونس والجزائر ومراكش ، فارتبط كل منها بحماية فرنسا سنين عديدة ، ثم ثارت بلاد الريف المراكشية فى العشرينات من هذا القرن العشرين ضد فرنسا وأسبانيا . وفى الحرب العالمية الثانية وضحت أهمية شمال أفريقيا ، وهذا على حين سقطت فرنسا . ثم أعقب ذلك ازدياد شأن القومية فى مصر وسائر البلاد العربية ، واستقلت ليبيا ، وهى أقل بلاد شمال أفريقيا تقدما ، فتنادت تونس والجزائر ومراكش بضرورة الحكم الذاتى والاستقلال عن فرنسا ، وثارت المنازعات مع السلطات الفرنسية ، وبذلت الدول

العربية الأعضاء فى هيئة الأمم المتحدة جهودا لعرض قضية هذه البلاد على مجلس الأمم المتحدة عام ١٩٥٢

والقومية فى الشرق الأوسط عموما قوة ذات أهمية ، وهى لا تزال فى ازدياد . وانتهجت القومية فى الشرق الأوسط طريق سائر القوميات فى التاريخ الحديث ، اذ بدأت بتشكيل الجمعيات الأدبية والجماعات السياسية لاحياء أمجاد الماضى العربى ، واظهار التعسف التركى العثمانى، وأدى ذلك الى قيام السلطات التركية العثمانية بتشريد هذه الجمعيات الأدبية والجماعات السياسية ، فلجأ معظمها الى مصر ، وصارت مصر مركزا للدعاية وطبع المطبوعات لترويج القومية العربية . وفى المراحل الأولى لهذه الحركة كانت بعض المؤسسات المسيحية وهيئات التبشير وسيلة من وسائل نقل البذور القومية من الغرب الأوربى والأمريكى الى بلاد الشرق الاوسط ، ثم قام المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد العربية للعمل جنبا الى جنب ، لأن زعماءهم أعلنوا أن العقيدة الدينية أمر يعود الى وجدان الفرد .

ومما ساعد على تغذية القومية العربية أن الامبريالية التركية العثمانية ، وكذلك الامبريالية الأوربية — بريطانيا وفرنسا — لم تأل جهدا فى معارضة أمانى العرب . ولهذا انتهزت البلاد العربية الفرصة خلال الحرب العالمية الأولى، ورحبت بالوعود البريطانية الفرنسية ، وأعلنت انفصالها عن تركيا العثمانية . غير أن تضحيات العرب فى تلك الحرب ، ونقص الاستقلال الذى حصل عليه كل منها ، والاختلاف بين بريطانيا وفرنسا والصهيونية ، كل ذلك حفز القومية العربية الى الحركة أثناء المدة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية . ومما ساعد على ازدياد هذه الحركة ما استولى على الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والألمانية والايطالية من الضعف نتيجة الحرب العالمية الثانية ، وانشغال الغرب الأوربى كله بمقاومة الشيوعية والامبريالية الروسية . يضاف الى ذلك فشل الحرب

ضد اسرائيل ، وقيام زعماء من العرب العارفين بتاريخ الشعوب العربية وطاقاتها الماضية ، ويقظة السياسيين العرب فى هيئة الأمم المتحدة .

وللقومية العربية اليوم زعماء ومنظمات وأدب خاص ، لكن منهجها لايزال غير واضح تمام الوضوح . فهل هى تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف ايران الى شاطىء المحيط الاطلنطى ، أو أمة تضم العرب الأسيويين فقط ، أو أمة من عرب البلاد الشمالية فقط . أو أنها تستهدف خلق عدة دول عربية مستقلة ، وهو ما تحقق أكثره ؟ غير أنه يبدو من غير المحتمل مثلا أن تستطيع القومية العربية خلق أمة واحدة من عرب آسيا وحدهم ، لأن ذلك لا يمكن أن يدخل فى الحسبان قبل تحسين المواصلات وزوال الأمية ، وتقليل الفروق بين العرب البادية والعرب المستقرين فى المدن والحواضر والسواحل . ثم ان العراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ومصر والمملكة الهاشمية الأردنية وليبياهى الآن دول عربية مستقلة ، وجميعها عدا الدولتين الأخيرتين أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة . ثم ان هذه الدول كلها أعضاء فى جامعة الدول العربية ، واذا كان نظام الانتداب الذى أشرفت عليه عصبة الأمم مرحلة انتقالية من السيطرة الامبريالية الى الاستقلال لعرب آسيا ، فهل يقوم نظام الوصاية الذى تشرف عليه هيئة الأمم المتحدة بدور انتقالى نحو الاستقلال لعرب أفريقيا الشمالية ؟

واذا نظرنا الى جيران الدول العربية نجد أن الشعور القومى خلق دولا مستقلة فى تركيا وايران وأفغانستان ، ولاشك أن الشعور القومى فى كل من هذه الدول قوة دينامية هائلة ، وهذه القوة كفيلة بمقاومة أى خطر يتعرض له استقلالها فى المستقبل . غير أن ميثاق سعد أباد الذى انضمت اليه تركيا وايران والعراق وأفغانستان سنة ١٩٣٧ ، والمعاهدات العربية التى عقدتها بريطانيا وغيرها سنتى ١٩٣٦ و١٩٣٧ مع مصر والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن كانت كلها محالفات ، ولم تهدف واحدة منها الى تكوينات اتحادية ، وفى ذلك

دلالة على انعدام تماسكها الجغرافى . ثم ان بعض الدافع الى كثير من هذه المعاهدات كان عبارة عن الخطر الذى أخذ النظام السياسى العالمى يتعرض له فى الشرق الأوسط باستيلاء موسولينى على الحبشة . يضاف الى ذلك أن جامعة الدول العربية التى تكونت سنة ١٩٤٥ وميثاق الضمان الجماعى الذى انعقد بين هذه الدول سنة ١٩٥٠ يبتغى ايجاد تماسك يمهد لشىء من النظام الاتحادى بين العرب . لكن الخلافات الموجودة بين بعض الدول الأعضاء لا تدل على امكان بلوغ هذا الهدف فى زمن قريب ، ومع هذا كله فالمعروف على وجه التأكيد أن القومية فى الشرق الأوسط سوف تقوم بدور هام فى السياسة الدولية عن طريق الدول العربية ، ما دامت هذه الدول تسير نحو تحقيق قوميتها .

أما الامبريالية فهى قوة سياسية تدفع حكوماتها الى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى ، بتشديد النكير على حرية الرأى ، وتنمية السيطرة على الموارد الاقتصادية الموجودة فى ممتلكاتها ، وغير ممتلكاتها . وتنشأ الامبريالية عن دافع بشرى يدفع الفرد الى السيطرة على الغير ، وقد سرت عدوى الامبريالية فى بعض الأزمان الى الحكومات المبنية على نظريات التفوق الشخصى أو الطبقى أو الجنسى . غير أن درجة العدوى اختلفت باختلاف الحكومات، وبحسب تاريخ حكومة دون أخرى، وربما تكون الامبريالية متممة للقومية فى دولة من الدول ، وربما تكون نتيجة من نتائجها .

غير أن القومية فى ذاتها تقوم على أساس تعريف الفرد لنفسه ، باندماجه فى مجموعة من الأفراد الذين يتشابهون عقليا ، ويسعون لتنظيم أحوالهم فى اقليم من الأقاليم يتسع اتساعا كافيا ، للحصول على درجة عالية من الحكم الذاتى السياسى والحضارى . فاذا نشأت حركة من الحركات القومية فى احدى ممتلكات دولة كبيرة ، نهضت الامبريالية فى هذه الدولة الكبيرة الى مقاومة هذه الحركة ، للمحافظة على تكوينها ونظامها ، حتى اذا نجحت الحركة القومية فى التخلص من الامبريالية المتسلطة عليها ،

فانها تظل عادة وجها لوجه أمام هذه الامبريالية التى لا تزال تتحكم فى ممتلكاتها الباقية . ومن أجل ذلك لا تكتفى الأمة ذات الحركة القومية الناجحة بما حصلت عليه من الاستقلال ، بل تظل متأثرة بالخطر الذى يهدد بعض حدودها من ناحية الامبرياليين القدماء أو غيرهم ، وبعدم كفاية مواردها الاقتصادية أو قلة سكانها ، أو كثرتهم ولذا تسعى الدولة القومية الجديدة الى اخضاع مناطق مجاورة ، وعلى هذه الشاكلة تنتقل الى الامبريالية . غير أن هذه الفروض على صحتها لا تؤدى الى هذه النتيجة دائما الا اذا بلغت الأمة ذات الحركة القومية الناجحة مبلغ الامبرياليين فى القوة الحربية والاقتصادية ، والحضارية كذلك . ثم ان الأمم الحديثة العهد بالاستقلال تنشأ عادة بفضل مجهودات المنظمات الدولية ، وتبلغ نضجها السياسى بفضل ما تبذل من جهود فى سبيل المعرفة بأن الاشتراك السياسى والاقتصادى والثقافى ، فى هيئة أوسع حدودا وآفاقا من حدود الأمة الواحدة وآفاقها ، هو الثمن الذى تدفعه كل أمة من الأمم الكبيرة قبل الصغيرة ، لقاء الحرية فى تكوين حضارتها ومؤسساتها ومستقبل سكانها . ومن هذا يتضح أن بلوغ أية حركة قومية مبلغ الامبريالية لا يكون الا نادرا وعلى غير القياس .

ومع هذا يستطيع الباحث أن يلحظ المراحل المتعاقبة فى حياة الأمم على وجه التعميم ، وهى مرحلة الاستقلال القومى ، ومرحلة الامبريالية القومية ، ومرحلة التعاون الدولى . فأمم الشرق الأوسط هى على الأغلب فى أول مرحلة من هذه المراحل ، والأمم السوفياتية فى المرحلة الثانية ، وأمم حلف شمال الأطلنطى فى المرحلة الثالثة . على أن أمم حلف شمال الأطلنطى اجتازت مرحلة الامبريالية القومية ، بالنسبة للعلاقات التى تربط بعضها ببعض ، وهى تعمل الآن من أجل التعاون الدولى ، وتريد أن تنظم علاقاتها على قاعدة التعاون مع قوميات الشرق الناشئة .

وعلى هذا فان شعوب الشرق الأوسط لم تجابه فى كفاحها من أجل الاستقلال الوطنى امبراطورية العثمانيين وامبريالية بريطانيا وفرنسا

وايطاليا وألمانيا فقط ، بل انها تجابه الآن امبريالية روسية ، واهتماما متزايدا من ناحية الولايات المتحدة. وكانت المصالح الامبريالية لكل دولة من هذه الدول فى الشرق الأوسط مختلفة ، غير أنها جميعها أدركت الأهمية الاستراتيجية والتجارية لطرق الشرق الأوسط فى البر والبحر ، كما أدركت فى السنين الأخيرة أهمية موارد النفط الموجودة فى تلك المنطقة . وبالنظر لاعتماد بريطانيا على قوتها البحرية ، ولاهتمامها بالمرور الى الهند ، فان مصلحتها فى هذه المنطقة أعظم من مصلحة جميع الدول الأخرى ، مع العلم بأن روسيا التى تمسك المضايق التركية بخناق موانئها فى البحر الاسود تكاد تكون مصلحتها بالأهمية نفسها . يضاف الى ذلك أن روسيا القيصرية اضطلعت نفسها بدور الحامى للمسيحيين الأرثوذكسيين فى بلاد البلقان وتركيا وسوريا — وهذه مصلحة تخلت عنها الحكومة السوفياتية . وبالنظر لأن امبريالية بريطانيا ضمت عددا كبيرا من السكان المسلمين ، صادقت بريطانيا مسلمى الشرق الأوسط صداقة تقليدية ، لكنها عندما تولت الانتداب اضطلعت بدور يشوبه التناقض ، وهو دور الحامى لليهود فى فلسطين . وحاولت ألمانيا بعد زيارة القيصر لدمشق سنة ١٨٩٨ أن تحل محل بريطانيا فى دور الصديق الأول للمسلمين ، كما أن فرنسا بتقاليدها التى تعود الى الوراء حتى تصل الى أيام الصليبيين ، وايطاليا التى اتصلت اتصالا وثيقا بالفاتيكان منذ الحرب العالمية الأولى ، حاولت كل منهما الاضطلاع بدور الحامى للكاثوليكيين فى الشرق ، برغم عدد المسلمين الكبير الخاضع لحكم كل منهما . واليوم ترقب كل من الدول السوفياتية التى تقودها موسكو ، والدول الديموقراطية التى تقودها واشنجطن مناورات الكتلتين فى منطقة الشرق الأوسط .

وتعد المصلحة الدينية قوة كبيرة فى الشرق الأوسط ، بصرف النظر عن ارتباطها بالامبريالية القومية . ذلك لأن المسلمين والنصارى واليهود وهم فى مجموعهم نصف سكان العالم يولون وجوههم شطر المدن المقدسة فى فلسطين والحجاز ، باعتبارها أماكن ذات أهمية تاريخية ، وقدسية واجلال يحج اليها الحجاج . وجهدت بعض المنظمات الدينية لكى تحصل لنفسها

على السيطرة على هذه المناطق ، لتؤمن الحجاج ومستعمرات المستوطنين والأماكن المقدسة . ولم ينازع أحد سيطرة المسلمين على مدينتى الحجاز المقدستين — مكة والمدينة — منذ أيام محمد صلى الله عليه وسلم حتى الآن . واحتدم النزاع خلال أربعمائة سنة من العصور الوسطى بين المسيحيين والمسلمين على الأراضى المقدسة ، لكنه كان نزاعا لا طائل تحتـه . أما اليهود فابتهلوا منذ أيام السبى ، بالقرب من حائط المبكى الكائن فى موقع هيكل سليمان فى القدس ، من أجل عودة السيطرة لهم على هذه البقعة المقدسة ، ونجح الصهيونيـون الحديثون فى تعـريف معظم الساسة الأوربيين والأمريكيين بحق الشعب اليهودى فى فلسطين ، حتى ان كثيرا من الصهيونيين فسروا هذا الحق بأنه ينطوى على فرض سيطرتهم على المسلمين أصحاب الحق الفعلى فيها منذ القرن السابع الميلادى . ثم انتقلت السيطرة على فلسـطين من تركيا المسلمة الى بريطانيا المسيحية ، وهى التى يوجد فى امبراطوريتها ما يكفى من الأصـدقاء لكل من الجانبين للتأثير على سياستها . وينص الانتداب على فلسطين على سيطرة الدولة المنتدبة على الأماكن المقدسة ، وعلى تشكيل لجنة يصادق عليها مجلس عصبة الأمم لتعيين حقوق الطرفين . غير ان هذه اللجنة لم تتشكل ، مع ان لجنة خاصة صادق على تشكيلها ذلك المجلس قدمت تقريرا عن الادعاءات الخاصة بحائط المبكى ، ١٩٢٩ . ولم تكن الجهود البريطانية المبذولة للتوفيق بين مطالب اليهـود والمسيحيين والمسلمين المتعارضة بالنسبة للسيطرة النهائية على الأراضى المقدسة ترتضيها أية جهة من هذه الجهات ، فاللجنة العربية فى فلسطين ، ومفتى القدس الأكبر ، وجمعية ڤاديلومى التى تنظم شأن اليهود فى فلسطين ، والمؤتمر الصهيونى العالمى ، وبطريرك اللاتين فى القدس ، والمستعمرين المسيحيين فى فلسطين — كانوا كلهم ينتقدون الادارة البريطانية فى فلسطين .

ثم أدى طلب الصهيونيين بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بتأسيس دولة مستقلة لهم ، ومقاومة جامعة الدول العربية المؤسسة حديثا لذلك الطلب ، الى حصول توتر شديد والى عرض القضية على هيئة الأمم

المتحدة وتوصية مجلسها العام فى سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة اسرائيل اليهودية . ثم تخلت بريطانيا عن الانتداب ، وعدل مجلس الأمن تنفيذ قرار المجلس بالقوة ، فأدى ذلك الى وقوع حرب سافرة نتجت عن فوز اسرائيل التى اعترف بها بصورة عامة عضوا فى هيئة الأمم المتحدة .

٢ ـ اتجاهات الرأى العالمى

ليست هناك معلومات يمكن بواسطتها اجراء تقدير دقيق للتأثير الذى تحدثه اتجاهات الرأى العام فى الشرق الأوسط حاليا . ولما كانت اتجاهات الرأى العالمى تعتمد على آراء دولية تتعرض للتبدل والتغيير السريع بواسطة التعليم والدعاية ، فان المحاولات التى تبذل لتطبيق هذا التقدير على المستقبل لا بد أن تتعرض لمقدار كبير من الخطأ .

غير انه من المعقول مثلا ان المواصلات الداخلية بين بلدان الشرق الأوسط نفسها ، والمواصلات بينها وسائر أنحاء العالم سوف تزداد ، وان ذلك سوف يصحبه ازدياد فى تأثير الاتجاهات العالمية السائدة فى العالم على بلاد الشرق الأوسط . والمعروف ان الحضارة العالمية منذ عهد النهضة الأوربية اتجهت نحو الاعتراف بحرية الفرد فى اختيار الديانة التى يعتنقها، والثقافة التى يتخذها لنفسه ، ونحو التسليم بالمساواة المعنوية بين البشر ، مع تخطئة المزاعم القائلة بالتفوق الفطرى لأى طبقة أو صنف أو عنصر أو قومية . واتجهت الحضارة العالمية كذلك نحو التسليم بأن الطريقة العلمية هى السبيل الى المعرفة ، وان هذه الطريقة هى التى تضمن الفائدة الاقتصادية ، لأنها تضفى على تقاسيم العمل الوظيفى والجغرافى والتبادل المهنى أوسع معانيه الروحية والجغرافية . والفضل فى استقرار هذه القواعد يرجع الى التسليم بنسبة القيم الانسانية الى الحضارة والتاريخ ، وبالفائدة الاقتصادية من الوجود المشترك لعدة قوميات مختلفة تتصل بعضها ببعض اتصالا معتدلا .

غير ان القوميات الحديثة أوذيت فى بعض الأزمان والأماكن بسبب الاضطهادات والاخضاع بالاكراه ، وقمع الأفكار والحكم المطلق ،

والمقترحات الاستعمارية والديكتاتورية . ومع هذا لم تثن هذه المعاثر اتجاهات الرأى العام عن السير نحو الحرية والانسانية. وفى الشرق الأوسط قامت سابقا عدة عقبات فى سبيل أشباه هذه الاتجاهات ، مثل الحزازات الدينية ، وقلة المسؤولية الجماعية تجاه الاعتداءات الخارجية ، وبقايا الاقطاع ، وانعدام الزعامة التى تحمل روحية الشعور بالمصلحة العامة ، والتأخر الموجود فى التطور الاقتصادى والرأى العام والادارة المدنية . على أن الاتجاهات العالمية نحو الحرية والانسانية اذا استمر وجودها سوف تجعل الدين شأنا من شؤون الوجدان الفردى ، لا قوة من القوى السياسية التى لها المقام الأول . وسيزداد تسليم القانون باستقلال الفرد ومسؤوليته ، ويعظم شأن الشعور القومى باعتباره قوة سياسية ذات أثر فعال بين سكان البلاد الذين تجمع بينهم صفات حضارية وجغرافية واضحة ، ثم ان استخدام العلم فى الشئون الاقتصادية سيزداد ، فيعمل على انتشار التجارة الدولية والتخفيف من غلواء القومية. وستتضاءل الامبريالية ، الاستعمارية فتفسح المجال للحكومات القومية كى تكون مسؤولة عن الأمن والنظام محليا ، كما تفسح للمؤسسات الدولية لتصبح مسؤولة عن تسوية الخلافات الدولية وتنظيم التجارة العالمية . ومن الواضح أن السبيل الى هذا وذاك ينحصر فى تقوية هيئة الأمم المتحدة وسياستها المتمشية مع اتجاه المدنية العالمية .

٣ ــ المؤسسات الدولية

العالم السياسى والقانونى يسير اليوم فى دور الانتقال ، فمنذ عهد النهضة الأوربية ، وخاصة منذ معاهدة وستفاليا ، أضحى القانون الدولى يؤكد سياسة الدولة الاقليمية ، ويقيد اتجاهات الدول التوسعية ، وترك المحافظة على النظام القائم الى طبيعة توازن القوى . وظلت هذه الأفكار ذات أهمية كبيرة منذ القرن السادس عشر ، ، حين تألفت من الطبقة الارستقراطية وطبقة رجال الدين طبقات دولية ذات شأن يلتزم أعضاؤها بعض المقاييس الدولية المصطلح عليها بينهم . وفى القرنين السابع

عشر والثامن عشر كون التجار طبقة دولية خاصة ، بعيـدة نوعا ما عن الشؤون السياسية ، وبنوا لأنفسهم نفوذا للمحافظة على مقاييس دولية معينة لحماية التجارة . ثم تغيرت معايير هذه الطبقات الاقتصادية وخاصة فى القرن التاسع عشر ، ودخلت دول جـديدة ذوات تقاليد حضـارية مختلفة فى أسرة الأمم ، وانحط شأن التأثير الأخلاقى الذى دعم النظـام الدولى ، وأصبح التوازن المادى وحده أساسا للقانون الدولى .

وعلى الرغم من رداءة المواصلات وشؤون النقل والاقتصاديات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع المجتمع الأوربى ، برغم عدم انتظامه النسبى والانشقاق الذى ولدته الحروب ، أن يحافظ على احترام كاف للمقاييس الدولية القانونية والأخلاقية ، وأن ينشر الاعتقاد بأن أوربا مجتمع يسير قدما نحو التكوين الذاتى . واستمر القانون الدولى فى القرن التاسع عشر على القيام بواجبه حتى بعد وقوع الثورة الصناعية، وانتشار الطبقات الدولية السابقة فى الشرق . ومن الأمثلة على ذلك أن بريطانيا استطاعت بقوتها البحرية ونفوذها المالى أن تسيطر على حرية البحار لتجارتها ، وان تخفف من غلواء الحواجز التجارية ، وتمنع غيرهامن الاستيلاء المفرط على ما وراء البحار ، ثم تدعم توازن القوى فى أوربا . غير انه ثبت فى القرن العشرين ان هذا النظام لا يفى بالمرام ، لأن اختراع الغـواصة والطيارة ، وتصنيع الـولايات المتحدة وألمانيا واليـابان حطم قدرة بريطانيا على تنظيم شؤون العالم حسب مشيئتها . يضاف الى ذلك ان ازدياد السيطرة الديموقراطية على العلاقات الخارجية زاد فى تأثير المصالح الداخلية على سياسة الدول الخارجية ، فجعل توازن القوى أقل استقرارا ، كما ان نمو المبادىء الاشتراكية أواخر القرن التاسع عشر ، وازدياد نفوذ العمال غير الملمين بقواعد علم الاقتصاد ، أدى الى اشتداد الضغط القديم لحماية التجارة . ونتج عن ذلك ان ازدادت الحواجـز التجارية على الحدودالوطنية ، وتضعضع صرح العالم السياسى ، وازدادت المخاوف من الحرب وحالة الحصار ، وأخذت الدول تكرس اقتصادها

الوطنى للاستعداد الحربى . وعلى هذه الشاكلة تعثر الاقتصاد العالمى فى تأدية واجبه ، وأخذت كل أمة تكثر من اعتمادها على خطة مرسومة للتجارة العالمية ، من أجل المحافظة على مستوى معيشتها . وامتد ذلك الفساد فى النظام السياسى العالمى ، واندفاع العالم نحو أتون الحرب المستعرة .

ثم أدرك الساسة فى المدة التى وقعت فيها الحرب العالمية الأولى خطورة هذا الوضع ، وخاصة وُدْرُو ويلسن ، فاقترح تعديل القانون الدولى فى اتجاهات أربعة ، أولها حفظ سيادة الدول مع الحد من هذه السيادة ، وتقييد حقها المطلق فى شن الحروب والبقاء على الحياد . وثانيها تقييد الحق المطلق فى حكم كل دولة من الداخل لرعاياها داخل بلادها ، بمعاهدات الأقليات ومؤسسة العمل الدولى وسائر المؤسسات الدولية والانسانية . وثالثها تقييد الحق المطلق للدولة الاستعمارية فى حكم المستعمرات ، بقواعد نظام الانتداب ، وبالاتفاقات المختصة بالرقيق وتجارته ، وسائر الاستعمالات التى تنزل بالشعوب المتأخرة . ورابعها تقييد التجارة الدولية ، وتجارة الترانسيت . واشتمل ميثاق عصبة الأمم ، كما اشتملت اتفاقية باريس على هذه التعديلات التى وضعت موضع التنفيذ عن طريق عدد من المؤثرات الدولية الاقتصادية .

ولوضع الأسس السياسية لهذه التعديلات تقرر أن تحل عصبة الأمم محل التوازن الدولى المرتكز الى المحالفات والمؤتمرات السياسية والسيطرة البحرية البريطانية . فتقوم العصبة بتنظيم العمل الجماعى ضد الاعتداء ، وفرض التسويات للمنازعات الدولية ، وتسهيل المداولة المستمرة بين الدول لتعزيز التوازن السياسى ، وخلق رأى عالمى عن طريق اجراء مباحثات بين حين وآخر بين ممثلى الأمم فى مجلس عالمى . وأدركت دول العصبة أهمية القوانين الجديدة التى شرعتها ضد الحرب واضطهاد الأقليات ، والامبريالية والحواجز التجارية . لكن الدول التى أخذت تولى وجهها شطر الأمن الجماعى ، واحترام حقوق الانسان ، واستقلال

الشعوب،والتجارة الحرة،أحست بأن القوانين الجديدة شديدة التحديد، ضيقة المجال ، غير وافية بالمرام ، وان الساسة والرأى العام فى معظم الدول الكبرى ما يزالون يفكرون بعقلية القوانين القديمة . وتتج عن ذلك ان عادت أمريكا الى عزلتها القديمة ، وعادت الدول الى مزاولة أساليبها البالية ، والسير على مقتضى الرجعية ، فكانت النتجية وقوع حرب عالمية ثانية . ثم أدت هذه الحرب الى محاولة تنظيم الشئون العالمية بميثاق الأطلانتى (١٩٤١) أولا ، وباعلان تأسيس هيئة الأمم المتحدة (١٩٤٢) ، ثم بميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥) .

وبرغم الفشل الذى منيت به مبادىء عصبة الأمم قبيل الحرب العالمية الثانية ، فمما لا شك فيه ان ما حدث بفضل هذه المبادىء فى المدة الواقعة بين الحربين العالميتين لم يخل من فائدة ، برهان ذلك فى الشرق الأوسط أن نظام الانتداب ساعد العراق على أن يصبح دولة مستقلة . على أن هذا النظام كان أقل نجاحا فى سوريا ولبنان ، لأن سياسة فرنسا عملت على المحافظة على وضعها الاستعمارى القديم فى مناطق انتدابها ، وهذاعلى حين أخذ الرأى العام فى كل من سوريا ولبنان يسير مسرعا فى الطريق التى سار فيها العراق . ففى سنة ١٩٣٦ امتنع البرلمان الفرنسى عن المصادقة على معاهدتى التحرر المنعقدتين مع سوريا ولبنان ، وفى سنة ١٩٣٩ خالفت الحكومة الفرنسية شروط انتدابها بتنازلها عن الاسكندرونة الى تركيا . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، فلم تلبث سوريا ولبنان أن أصبحتا دولتين مستقلتين ، ولم يلبث استقلال هاتين الدولتين ان اعترفت به جميع الدول ، قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ثم أصبحتا عضوين فى هيئة الأمم المتحدة .

وتطلب الانتداب على فلسطين من الدولة المنتدبة أن تمهد للحكم الذاتى وحصول البلاد على الاستقلال فى النهاية ، كما جرى لسائر بلاد الشرق الأوسط التى خضعت للانتداب ، على أن تساعد الدولة المنتدبة فى تكوين وطن قومى لليهود ، مع اعتبار ما يستحقه سائر السكان المحليين

من حقوق مدنية ودينية ، وما يلزم من الوسائل لحماية الأماكن المقدسة . غير ان العرب الذين احتجوا على فصل فلسطين عن سوريا ، لأنهما كانتا وحدة ادارية فى ظل الحكم التركى ، أصروا على ان الانتداب لا يمكن أن يتحقق الا بتأسيس حكومة عربية فى البـلاد ، وهذا على حين اعتقد الصهيونيون بأن الانتداب يسمح بتكوين دولة يهودية . وقال آخرون ان شروط احترام الأماكن المقدسة تحول دون حصول هاتين النتيجتين ، وازاء هـذه المتناقضات انتهجت الادارة البريطانية فى فلسطين سياسة انتهازية ، فوقعت عدة حوادث عنيفة ، وشب الوطن القومى اليهودى ، وبتأثير الضائقات التى حصلت فى الثلاثينات السابقة للحرب العالمية الثانية ازداد التوتر ، وأخذت بريطانيا تتراوح بين محاولة التوفيق بين العرب واليهود ، أو تقسيم البلاد بين الطرفين ، أو تكوين دولة يكون فيها اليهود أقلية دائمة .

وأثارت الناحية القانونية من مشكلة فلسطين عدة أسئلة وهى : أولا هل كانت سوريا فى الوعود البريطانية المعطاة للعرب تشتمل على فلسطين أيضا ؟؟ هل كان يقصد بالوطن القومى لليهود أن تكون فلسطين كلهـا وطنا قوميا لهم ؟ هل كانت الحقوق المدنية والدينية الموعودة للعـرب تشتمل على الحقوق السياسية أيضا ؟ هل كان امتياز الهجرة اليهودية الى فلسطين ينص على قيود تقتضيها اعتبارات النظام السياسى فى البلاد ، أو انه كان مرتبطا بالقيود التى تقتضيها قابلية البـلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين ؟ أما البريطانيون فصرحوا بأنهم لم يعنوا فلسطين مطلقا فى وعودهم المعطاة الى العرب ، وانهم لم يعدوا اليهود قط بدولة قومية فى فلسطين،وان الحقوق المدنية والدينية تشتمل أيضا على الحقوق السياسية الضرورية لتأمينها .

والسؤال الخاص بالهجرة يضع المشكلة أمام الأنظار وضعا عمليا ، اذ أصرت السياسة البريطانية المعبر عنها فى الكتاب الأبيض ، المنشور سنة ١٩٣٩ ، على ان الاعتبارات السياسية يجب أن تؤثر فى الخطة الموضوعة

للهجرة ، وان واجب المحافظة على النظام فى البلاد لا يسمح باتخاذ سياسة تؤدى الى أن تتجاوز نسبة اليهود فى البلاد ثلث عدد السكان الموجودين فى البلاد ، وهى نسبة كانت موجودة تقريبا فى ذلك الوقت . ثم ان هجرة شعب أجنبى الى منطقة مسكونة تسبب حدوث اضطرابات سياسية ، عندما تتجاوز تلك الهجرة مقدارا معينا من الناس . ومع هذا يمكننا أن نشك فيما اذا كان التحديد القاطع لنسبة اليهود بثلث مجموع السكان متفقا عليه ، اذ المعروف ان كلا من اللجان البريطانية واليهودية قدرت العدد الممكن استيعابه تقديرا مختلفا . ومثال ذلك أن بعض الصهيونيين يعتقد بأن مليونين آخرين من اليهود يمكن اسكانهم فى فلسطين ، وهذا على الرغم من ان فلسطين وحدها لا يمكنها أن تحل مشكلة اضطهاد اليهود ، وان معظم اليهود يجب أن يعيشوا على الدوام خارج تلك البقعة الضيقة .

الحقيقة هى ان نظام حماية الأقليات الذى كان موضع الأمل فى علاج هذه المشكلة دل على انه أقل نجاحا من نظام الانتداب ، وهذا مع العلم بأن كلا من النظامين أعوزه الكثير من الصراحة من جانب الدول الكبرى . يضاف الى ذلك ان نظام الأقليات كانت تنقصه لجنة فنية مثل لجنة الانتدابات الدائمة فى عصبة الأمم ، فكانت النتيجة ان جنح مجلس العصبة الى التأكيد على النواحى السياسية لكل قضية من قضايا الأقليات . ثم انه لا يمكن أن يقال مثلا ان الأقليات المسيحية فى العراق استفادت بشىء من العهود التى أضيفت الى شروط التحرر من الانتداب ، كما لا يمكن أن يقال ان اليهود تمتعوا بالحماية التى كانت من حقهم فى دول أوربا الوسطى المرتبطة بمعاهدات الأقليات .

على ان نظام العصبة الموضوع لتسوية المنازعات السياسية نجح فى منطقة الموصل ، حيث استخدمت طريقة تعيين لجنة تحقيقية فى موضع النزاع ، وأخذ فيها رأى استشارى من محكمة العدل الدولية الدائمة ، ثم استخرج الحكم النهائى من مجلس العصبة ، وكانت النتيجة ان وافقت تركيا آخر

الأمر على ضم هذه المنطقة الهامة الى العــراق . ونظرت عصبة الأمم فى مشاكل مشابهة ، ومنها فيما يخص الشرق الأوسط مشكلة امتياز النفط البريطانى فى ايران ، ومشكلة الحدود بين العراق وايران ، ومطالبة تركيا بمنطقة الاسكندرونة ؛ وساعدت المؤتمرات التى انعقدت بمساعدة العصبة على تسوية مشكلتى المضايق التركية والامتيازات الأجنبية فى مصر .

ومن ناحية الأمن الجماعى امتحنت عصبة الأمم امتحانا عسيرا بالهجوم الذى شنته ايطاليا على الحبشة الواقعة على حواشى الشرق الأوسط ، ولا شك ان الفشل الذى منى به نظام الأمن الجماعى ساعد كثيرا على انهيار العصبة ، ونشوب الحرب العالمية الثانية . على أن نشاط العصبة بوجه عام خلال السنوات الخمس عشرة التى سبقت هذا الامتحان ساعد على شىء من الاستقرار فى الشرق الأوسط ، كما ساعد على نمو القومية العربية ، والتخفيف من غلواء المنافسات الاستعمارية ، فضلا عن تحسين شئون التجارة فى الشرق الأوسط .

٤ ــ سياسة الأمم المتحدة

تقوم سياسة هيئة الأمم المتحدة على قاعدة تعميم مبادىء عصبة الأمم وتحقيقها عمليا . ذلك أن النصر الذى أحرزته الأمم المتحدة فى الحرب مهد لها السـير فى طريق عمــلى ، كما أضـافت الخبرة التى حصـلت عليها الدول فى عصبة الأمم الى مقدرتها الديبلوماسية على اختيار الأساليب الكفيلة بالنجاح . على أن الانشقاق الحاصل بين روسيا والدول الغربية على أثر الانتصار المشترك كان شيئا أكيدا ، كما ان انقلاب هذا الانشقاق الى حرب باردة بعد ١٩٤٧ أضر كثيرا بقدرة المنظمات التى تأسست بموجب ميثاق هيئة الأمم المتحدة ١٩٤٥ . وتنحصر غايات الميثاق فيما يلى : (١) المحافظة على السلم الدولى ، وتوطيد دعائم الأمن عن طريق العمل الجماعى الذى يستهدف منع الاعتداء والحيلولة دون وقوعه ، وحسم المنازعات الدولية بالطرق السلمية (المادة الأولى ١ ــ ٣٣ ــ ٥٤) . (٢) اعطاء الشعوب المستقلة حقوقا متساوية وحكما ذاتيا ، لتبادر الى ترويج التقدم السياسى

والاقتصادى ، والاجتماعى ، والتعليمى ، لتلك الشعوب وتمتعها بالحكم الذاتى أو الاستقلال فى النهاية (المادة الأولى ٢ — ٧٣ — ٨٥) . (٣) احترام حقوق الانسان والحريات الأساسية للجميع،دون تفريق بين عنصر أو جنس أو لغة أو دين (المادة الأولى ٣ — ٥٥ — ٥٦) . (٤) تحقيق التعاون الدولى لرفع مستـويات المعيشة ، وتهيئة الأحوال المناسـبة للتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، وحل المشاكل الدوليـة الاقتصادية ، والاجتماعية، والحضارية ، والتعليمية (المادة الأولى٣ — ٥٥ — ٦٠) . وبدأت الأمم المتحدة فى تحقيق هذه الغايات جميعها بدرجات مختلفة من النجاح فى بلاد الشرق الأوسط .

وللمحافظة على السلم والأمن تدخلت الأمم المتحدة فى الاشتباكات التى وقعت بين الدول العربية واسرائيل ، ونجحت فى عقد الهدنة التى تدخل فيها وسيط الأمم المتحدة بين اسرائيل والدول العربية لوقف القتال، لكنها لم تحقق السلم فى فلسطين . وسعت هيئة الأمم المتحدة فى حسم النزاع الناشب بين بريطانيا وايران بشأن تأميم شركة النفط الانجلوايرانية، وبين بريطانيا ومصر بشأن معاهدة ١٩٣٦ ، وبين فرنسا ومحميات شمال أفريقيا ، ولكنها لم تحسم واحدة من هذه المشاكل ، مع ان محكمة العدل الدولية اعترفت بأهلية ايران لتأميم الشركة ، على أن تلتزم ايران بدفع التعويضات المطلوبة ، كما أن مصر ألغت المعاهدة المختلف بشأنها .

ومن الواضح ان عزم هذه الشعوب على الاستقلال هو محور هذه الاختلافات ، فتمكنت كل من مصر وايران من تحرير نفسها من القيـود المفـروضـة عليها ، وحظيت تـونس ومـراكش بسماع قضيتهـما فى سبيل الحكم الذاتى فى هيئة الأمم المتحدة،غير انه لم تتخذ من أجل ذلك آية خطوة عملية سوى مناشدة فرنسا الاستمرار فى التفاوض . على ان استقلال ليبيا تحقق عن طريق الجهود التى بذلتها هيئة الأمم المتحدة ، بعد أن عجزت الدول الكبرى عن الاتفاق على وضع منهج ما لتـلك البـلاد .

على ان الجهود التى بذلتها هيئة الأمم المتحدة لترويج احترام حقوق الانسان كانت أقل أعمالها نجاحا ، فالمبادىء التى سجلها الميثاق باعلان حقوق الانسان اعلانا عاما صادق عليه مجلس الهيئة سنة ١٩٤٨ ، ولكن أريد بذلك تعظيم شأن الخطط الموضوعة لحماية الأقليات فى ظل عصبة الأمم وتعميمها فى العالم . غير ان معاهدات حماية الأقليات التى انعقدت أيام عصبة الأمم لم تؤد فى الواقع الى حماية الأقليات ، فالأرمن فى تركيا عانوا اضـطهادات كثيرة ، كما ان اخراج الأقليات وتقتيلهم بصورة وحشية فى ألمانيا الهتلرية وروسيا الستالينية تكرر وقوعهـا فى الشرق الأوسط أيام وجود هيئةالأمم المتحدة . ذلكأن قيام اسرائيل أدى الىهرب ما يزيد على نصف مليون عربى من تلك الدولة والتجائهم الى البـلاد العربية المجاورة ، وبذلك فرضت مشكلة اللاجئين العرب على هيئة الأمم المتحدة ، كما هاجر اليهود فى أعداد كبيرة من تركيـا والعراق وأفريقيا الشمالية بالاكراه أحيانا . وقد حاولت هيئة الأمم المتحدة أن تنمى منهج حقوق الانسان عن طريق اعداد مواثيق تنص على أساليب فعالة لوضع تلك الحقوق موضع التنفيذ ، غير انه برغم المجهود الجدى المبذول فى لجنة حقوق الانسان لم ينجز الا القليل فى هذا الشأن ، والحقيقة هى ان عدة دولبما فيها الولايات المتحدة تخشىأن تصطدم هذه المواثيق بتشريعها الداخلى .

وفى مناهجها للمساعدة الفنية سعت هيئة الأمم المتحدة والولايات المتحدة أن تدخلا أساليبجديدة فىالزراعة ، واصلاح الأراضى، ومساعدة التقدم الصناعى ، وتحسين الحالة الصحية ، ورفع مستويات المعيشة فى بلاد الشرق الأوسط . وتعاونت فى هذا المجهود المنظماتالمختصة،ولاسيما اليونيسكو ، ومنظمة التغذية والزراعة،ومنظمة العمل الدولى ، ومنظمة الصحة العالمية. وأصابت بعض هذهالجهود نجاحاغير يسير ، لكن مشاكل المقاومة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فضـلا عن التخريبات التى سببتها الحرب فى كثير من الاصقاع ، جعلت التقدم بطيئا .

ويشجع ميثاق الأمم المتحدة تأسيس تكتلات اقليمية لأغراض سياسية

واقتصادية معا (المواد ٥٣ — ٥٤) ، ثم هو يسمح بتكوين تكتلات للدفاع الجماعى . (المادة ٥٢) . والمعروف أن الدول الأمريكية ، ودول الشرق الأقصى ، وبعض الدول الأوربية الغربية ، ومجموعة الدول السوفياتية ، ورابطة الشعوب البريطانية ، أسست مؤسسات اقليمية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . ثم قامت هذه الدول كلها على تنمية هذه المؤسسات مع وجود هيئة الأمم المتحدة ؛ لكن الشرق الأوسط لم يفكر فى اقتراحات للتنظيم الاقليمى قبل الحرب العالمية الثانية ، مع ان عددا من المحالفات انعقدت بين دول تلك المنطقة خلال المدة الواقعة بين الحربين ، كما ان بريطانيا عقدت معاهدات تحالف مع العراق (١٩٣٠) ، والمملكة العربية السعودية (١٩٢٧) ، والأردن (١٩٢٨) ، ومصر (١٩٣٦) ، ولا يزال بعض هذه المعاهدات نافذ المفعول اسميا . ثم تأسست جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ ، وأتمت معاهدة الضمان الجماعى سنة ١٩٥٠ ، وهى تقوم بعملها فى ظل هيئة الأمم المتحدة ، وهى أكثر منظمات الشرق الأوسط شمولا منذ زوال الامبراطورية العثمانية .

ويتطلب النظام العالمى تدبير شؤون الشرق الأوسط بحزم فائق ومساعدة مستمرة من ناحية المؤسسات العالمية ، على غرار ما هو مطلوب فى منطقتى البحر الكاريبى وبحر الصين الجنوبية . وفى استطاعة المؤسسات العالمية أن تمهد السبيل لتقوم الدول الوطنية والمنظمات القومية ، كجامعة الدول العربية ، بتوسيع أفق الشئون الاقتصادية . وبذلك يروج استتاب الأمن السياسى والتقدم الاجتماعى ، ويقل انجذاب الخصومات الامبريالية نحو هذه المنطقة الهامة التى بقيت ضعيفة حتى الآن . ثم ان التنظيم الدولى الذى يؤمن حقوق الملاحة الحرة فى الطرق المائية الموجودة فى الشرق الأوسط سوف يلطف من خشية الأمم من الاختناق التجارى ، ويعمل على استقرار العالم .

غير ان هذا الاستعراض لقوى القومية والامبريالية والدين والسياسات التى كانت تدفع دول العالم بتأييد من الرأى العام ومؤسسات

عصبة الأمم المتحدة – لا يعطى أى دليل يشير الى المستقبل الذى ينتظر هذه البقعة من العالم . وأهم العوامل الحاضرة جميعها هو الحرب الباردة التى تطلب من الدول المختلفة أن تجنح نحو احدى الكتلتين ، أى الكتلة السوفياتية التى تسيطر عليها روسيا ، وكتلة شمال الاطلانتى التى تسيطر عليها الولايات المتحدة . والشرق الأوسط منطقة ذات أهمية رئيسية فى هذا التخاصم ، كما كانت فى النزاع السابق الذى احتدم بين دول المحور والأمم المتحالفة .

وكانت ميول هذه المنطقة متجهة نحو الغرب ، لأن سياسة ترومان التى أعلنتها الولايات المتحدة فى مارس ١٩٤٧ ، شملت المساعدة العسكرية والاقتصادية لليونان وتركيا وايران ، ونصت فى الحقيقة على ان سياسة الولايات المتحدة ترمى الى تأييد الشعوب الحرة التى تقاوم الاخضاع بالاكراه أو بالضغط خارجى . والمعروف ان الوضع الجغرافى الايرانى عرضة للطوارىء على الرغم من المساعدة الأمريكية ، لأن ايران تشترك مع الاتحاد السوفياتى فى الحدود ، كما ان حزب توده الموجود فيها حزب قوى يصطبغ بالصبغة الشيوعية . ثم أن ايران جابهت قلاقل محلية خطيرة ، وبقى خلافها متزيدا بالنظر لايقاف العمل فى شركة النفط الانجلو ايرانية ، وبقى خلافها مع بريطانيا بشأن تعويض هذه الشركة غير محسوم. وكذلك وضع البلاد العربية غيرمعلوم ، على انه من المفيد للغرب انالعراق والمملكة العربية السعودية وبلادا عربية أخرى تستفيد من الأرباح التى تدفعها لها شركات النقط الغربية . وحصلت ليبيا على استقلالها عن طريق هيئة الأمم المتحدة ، وانتفعت معظم البلاد العربية من مساعدة الغرب الفنية ، وتوظيف الأموال الغربية ، ومن تعلم أبنائها فى الغرب . ثم ان مبدأ الكرامة والمساواة بينالبشر، واحترام الدين ، مما يمتاز بهالعالمالاسلامى، من شأنه أن يجذب الشرق الأوسط الى الغرب،لا الى الدول السوفياتية . ومما يلفت النظر أن نذكر بأن أهم مناقشة بحثت فيها مبادىء المعسكرين الديموقراطى والشيوعى جرت فى جلسة من جلسات اليونسكو ، وكان يدافع فيها عن الجانب الديموقراطى شارل مالك من لبنان ، وعن الجانب

الشيوعى ربينكار من يوغوسلافيا ، وكلا البلدين منضم الى الغرب فى الوقت الحاضر .

غير ان استياء البلاد العربية من تأييد اسرائيل فى هيئة الأمم المتحدة ، وخاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، أضحى مشكلة من المشاكل الدولية . ذلك أن استقلال تلك الدولة على غير رغبات أكثرية سكان فلسطين الأصليين ، ومخالفة ذلك لما جاء فى شروط ميثاق الأمم المتحدة التى ضمنت حقوق الشعوب ، أساء الى الشعوب العربية أساءة غير معرفة النتائج والمستقبل.ولم تسترجع الدول العربيةثقتها بعد ما أصابها من الانحدار فى حرب اسرائيل ، ثم انها تخشى أن تتكون فى اسرائيل اتجاهات توسعية نتيجة ازدياد السكان ، ولا يزال يساورها الفزع بسبب تشتيت شمل اللاجئين من فلسطين ، مع العلم بأنها لا تستطيع أن تعمل الاقليلا على تحسين الحالة . والشرق الأوسط مشمئز أيضا من ضخامة حصة اسرائيل من المساعدة الفنية التى قدمتها الولايات المتحدة وهيئة الأمم المتحدة ، بالقياس الى الحصة التى أصابت الدول العربية ، برغم كثرة عدد سكانها . يضاف الى ذلك ان سير الخلاف الناشب بين بريطانيا ومصر وايران ، وخلاف فرنسا مع تونس ومراكش ، يعتبرهما العرب دليلا على دوام الامبريالية التى قاوموها ردحا طويلا من الزمن . ثم ان تردد الولايات المتحدة والدول الغربية فى تأييد قضايا الاستقلال،فى هيئة الأمم المتحدة ، يقارن مقارنة سيئة بموقف السوفيات فى هذا الشأن . وأخيرا فانوجود الفلاحين العرب بمستوى معيشى وثقافى منخفض يخلق حالة اجتماعية من النوع الذى تستفيد منه الدعاية الشيوعية بوجه عام .

وتدل المعارضة الشديدة التى تبذلها مصر وسائر الدول العربية ضد مشروع قيادةالشرق الأوسط التى اقترحته الولايات المتحدةوبريطانيا العظمى وفرنسا وتركيا فى ١٩٥١ ، للدفاع ضد الاعتداء السوفياتى ، على ان مجموعة الدول العربية غير مستعدة للانحياز الى جانب الغرب . والظاهر ان هذا الموقف متأثر بما تذكره الدول العربية من

مركز تموين الشرق الأوسط الذى سيطرت بريطانيا بواسطته على العرب سيطرة اقتصادية أثناء الحرب . ويبدو كذلك ان مجموعة الدول العربية تتوجس خيفة من ان يؤدى استخدام القواعد الجوية البريطانيةالتى تؤسس فى المنطقة كلها ، والتى يمكن أن تستخدمها أمريكا أيضا ، الى التدخل فى الشؤون المحلية . وانزعجت مصر على الأخص من تقصير الدول الأربع فى عدم استشارتها قبل التقدم بمشروع قيادة الشرق الأوسط، ومن علاقة المشروع بالاقتراح البريطانى الذى لا يرضى مصر بشأن السويس والسودان وسائر شؤون معاهدة ١٩٣٦ . ولذا رفضت مصر المشروع رفضا قاطعا ، وفسخت المعاهدة ، ثم بادرت الدول العربية بقيادة مصر الى تعزيز منظمة الضمان الجماعى ، وربما قصد بذلك اتخاذ تدابير وقائية ضد اسرائيل ، لا ضد الاتحاد السوفياتى .

ولا شك أن الدول العربية ستحاول ، هى وفنلاندا والسويد والهند وبورما والهند الصينية ، أن تتحاشى توريط نفسها مع أحد الجانبين فى الحرب الباردة ، كما انها ستحاول أيضا تقوية حضارتها ، وقابلياتها فى الدفاع ، واستقلالها السياسى فى نطاق جامعة الدول العربية لدول الشرق الأوسط ، وهيئة الأمم المتحدة لسائر الدول المذكورة هنا . غير أن نجاح دول الشرق الأوسط فى مثل هذه الحيادية يبقى شيئا مشكلا بسبب ما للشرق الأوسط من أهميات استراتيجية واقتصادية عظيمة .

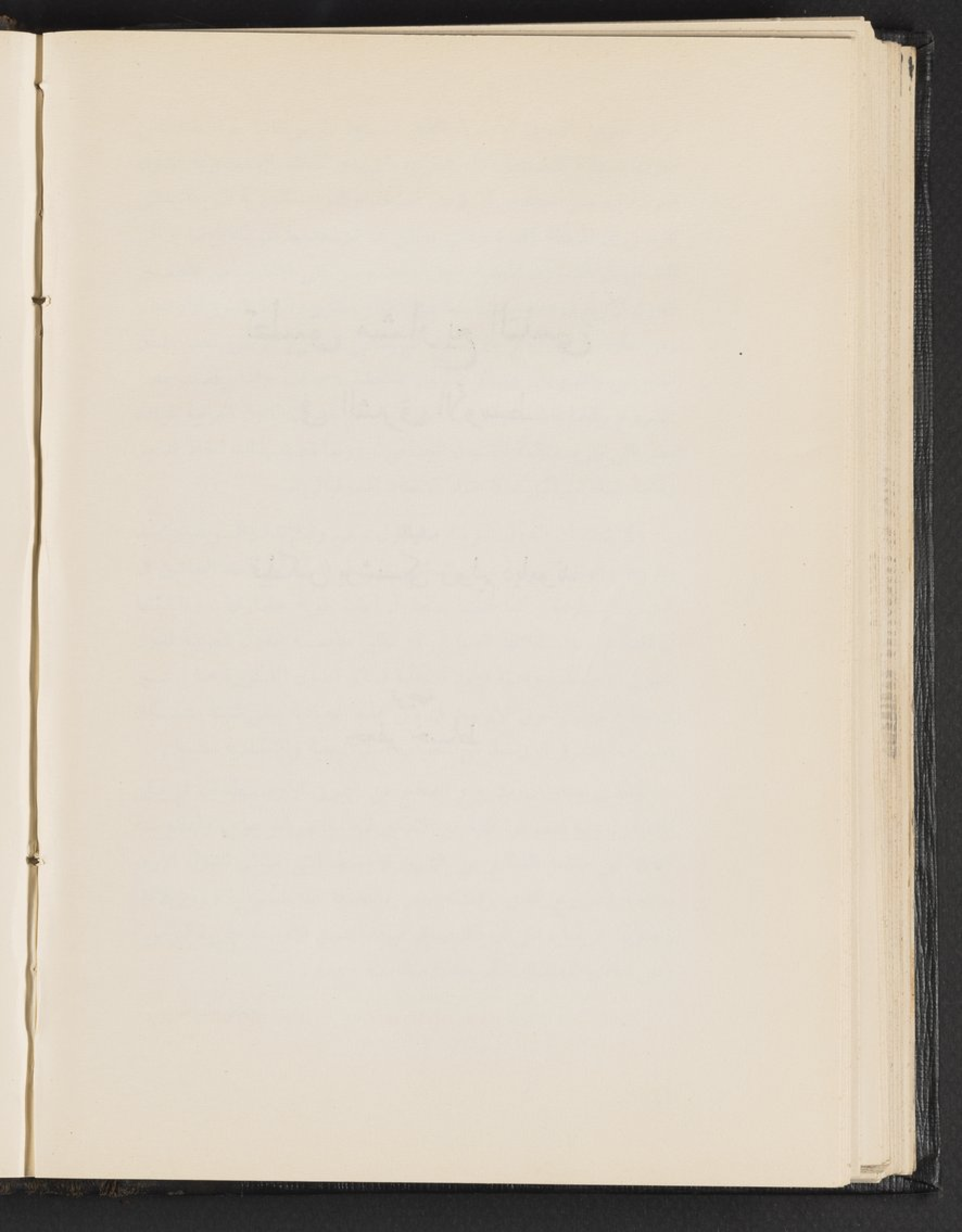
والذى يبدو ان مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ان لم يكن المشرفون عليه انصرفوا كلية عن التفكير فيه ، فانهم أطرحوه ، وأعلنوسنة ١٩٥٢ عن منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط التى تنتظم الدول الأربع صاحبة المشروع الذى رفضته مصر ، مضافا اليه استراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا ، على أن يكون مقر قيادة الشرق الأوسط جزيرة قبرص ، وهى احدى الممتلكات البريطانية منذ سنة ١٨٧٨ .

جعفر خياط

تطبيق مشاريع التنسى
فى الشرق الأوسط

تأليف
فيلكس بوشنسكى ووليم دياموند

ترجمة
جعفر خياط



كلمة المحرر

الحوادث التى وقعت خلال السنين الثلاث التى مضت على كتابة هذا المقال لم تؤثر فى الأسس التى عالج بها المؤلفان هذا الموضوع . غير ان عدة مشاريع طرأ عليها بعض التعديلات ، والغرض من الملحوظات الموجزة التالية أن يصبح المقال شاملا لأحدث التطورات التعميرية فى هذا المجال .

ففى حوض النيل تجرى دراسات فيما يسمى بخزان السد العالى الذى سوف يتكون بانشاء سد يقع على مسافة أميال جنوبى خزان سد أسوان الحالى ،وسوف تكون لهذا الخزان سعة هائلة للخزن،وهى ١٣٣ مليون قدم ، بحسب ما تقوله بعض المصادر ، كما انه سوف يضبط مياه الفيضان ، وينظم رى المزروعات ، فضلا عن خزن القوة المائية . وسيقوم هذا السد مقام الخزانات الأخرى التى سبق ان وضعت تصاميمها، لكنه سوف لا يؤدى الى الاستغناء عن الحاجة لحفر قناة تحويل السد التى تجرى الآن أعمال تمهيدية أخرى من أجلها . ويتقدم الآن العمل فى سد أوين تقدما مطردا .

وفى لبنان استؤنف العمل فى مشروع الغاب للصرف والرى ، وفى مشروع استثمار حوض الليطانى . وتوصى بعض المطبوعات التى نشرت حديثا باستثمار المياه وجميع موارد القوة المائية الموجودة فى لبنان [١] على نسق مترابط الحلقات والمنافع أما فى وادى الأردن فمشاريع التعمير والاستثمار تجرى الآن بالقرب من حدود الهدنة بين الأردن واسرائيل ، والمشاريع التى أعدها للحكومة الأردنية سير مردخ ماكدونالد [٢] وهيئات

1 — Maurice Gemaye : La Planification des Eaux Libanaises, Beyrouth, 1951.

2 — Sir Murdoch MacDonald & Partners. Report on the Proposed Extension of Irrigation in the Jordan Valley. (London, 1951).

النقطة الرابعة الأمريكية مبنية فى الغالب على الاستفادة من نهر يرموك قبل اتصاله بالأردن.وفيما عدا الأعمال الانشائية التى تجرى فى مشروع وادى الثرثار بالعراق ، يتضمن التقدم الحاصل فى شؤون التعمير اجراء بحوث وأعمال أخرى تختص بعدد مشاريع الرى،وهذه هى التى سيقوم بتمويلها مجلس التعمير العراقى .

ومنذ عدة سنوات قامت الحكومة الأمريكية على مشروع وادى التنسى ، واسمه الرسمى (Tennessee Valley Authority)،وذلك لضبط واستغلال مياه الحوض النهرى المعروف باسم هـذا الوادى الشاسع بأواسط الولايات المتحدة الأمريكية ، للزراعة والرى والصرف ، وحفظ التربة من التعرية ، وتنظيم التحريج ، وتوليد القوة الكهربائية . وصرفت حكومة الولايات المتحدة ، ولا تزال تصرف ، على هذا المشروع المترامى الأطراف مـلايين الدولارات ، وأوضحت نتائج هذه الجهود التعميرية واضحة لزائر هذه المنطقة . واستعان المؤلفان باسم هذا المشروع الحيوى وفكرته — على قول المترجم فى حاشية اقتبسناها هنـا — للبحث فى مختلف مشاريع التعمير واستثمار المياه فى الشرق الأوسط .

منطقة الشرق الأوسط زراعية قبل كل شيء ، فان معظم سكانها يعيشون من الزراعة . والأعمال الزراعية هى المهن الرئيسية وأهم موارد الدخل ، وفيما عدا النفط فى ايران وبلاد العرب ، والفحم واللجنايت ومعدن الكروم فى تركيا ، وأملاح الفوسفات فى مصر ، والترابة (السمنت) فى جميع المنطقة ، ليس فى أراضى الشرق الأوسط ترسبات معدنية معروفة ذات أهمية . وبينما تكون هذه المعادن وغيرها أساسا لنشوء صناعات محلية ، فليس من المحتمل أن يشهد الشرق الأوسط يوما ما تقدما دوليا فى ميدان الصناعة ، عدا الصناعات التى تختص باستخراج المنتوجات المختلفة من السلع الزراعية ، أى المواد الزراعية والمنسوجات معا . ومما لا ريب فيه أن نمو هذه الصناعات المحلية متوقف على رفع مستوى المعيشة فى الشرق الأوسط ، على أن يتمشى هذا النمو مع تحسين فى شئون الزراعة والتوسع فى الانتاج الزراعى . والواقع ان الضغط المتزايد على الأرض ، بسبب النمو السريع فى عدد النفوس فى منطقة لا يتعدى فيها النظام الزراعى انتاج المحاصيل لسد مستويات الكفاف ، يجعل للزراعة أهمية فى المقام الأول ، ويجعل الحاجة لتقدمها شيئا مستعجلا .

على أن هناك عوامل شتى تحول دون تحسين الزراعة وتوسيعها فى الشرق الأوسط ، ومن هذه عوامل أساسية فى التربة والجو وبعض هذه الصعوبات لا ينبغى أن يستعصى على جهود الشرقيين. غير أن أشد هذه الصعوبات وأكثرها استعصاء هو انعدام وجود الماء ، ففيما عدا أجزاء معينة من تركيا ومرتفعات بلاد الحبشة وجنوب السودان وسواحل بحر قزوين فى ايران ، يعد الماء العامل الرئيسى الذى يقيد الامكانيات الانسانية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . فاذا بدا الماء وافرا كما هى الحال فى الأراضى التى تخترقها الأنهر الكبيرة ، فليس هناك فضلة كبيرة من هذه المياه تزيد عن الحاجة الحالية ، بحيث تكون كافية لسد حاجة

الزيادات السكانية التى سوف يتأكد حصولها فى النصف التالى من هذا القرن العشرين . [1] وفى الكتاب الذى عنوانه علوم الشرق الأوسط صوّر المؤلف وردنجتون هذه الحال تصويرا واضحا فى قوله انه يوجد فى الشرق الأوسط موردان جوفيان ، لهما أهمية عظيمة هما الماء والنفط ، وللماء المرتبة الأولى فى الأهمية . [2] وبرهن وردنجتون ببراعة على أهمية الماء للفرد ، فى مؤتمر يضم الخبراء الزراعيين فى المنطقة . بالقول ان حوادث القتل التى تقع فى الشرق الأوسط بسبب الماء تكاد تبلغ فى عددها حوادث القتل الواقعة بسبب المرأة ، وهو قول فيه شىء كثير من الصحة. [3] وعلى هذا يصح أن يقال ان الماء وليس النفط هو الذهب السائل فى الشرق الأوسط .

ولا غرو فالشرق الأوسط منطقة جافة توجد فيها بواد شاسعة يقل فيها المطر سنويا حتى يصل الصفر ، وهى تتصف بوجه عام بموسم جاف طويل ، وموسم قصير يسقط فيه المطر بكمية غير كافية للزراعة المجدية . ولذلك فان ٤٪ فقط من أراضى الشرق الأوسط بأجمعه تخضع للزراعة [4] على حين ينتشر السكان فى المنطقة كلها انتشارا مشتتا ، لكنهم يحتشدون حول الآبار وفى الوديان ، وبالقرب من الأنهر التى تستنزف المياه الجوفية ، أو تنصرف اليها مياه المرتفعات التى تغذيها الأمطار ، وهى مرتفعات واقعة فى حواشى منطقة الشرق الأوسط . وينتج عن ذلك ان أجزاء من الشرق الأوسط تعانى ازدحاما خطيرا فى السكان ، على حين تكون مسافات شاسعة من الأراضى الخصبة — ومن البادية — غير مأهولة . والحقيقة

---

(١) وردنجتون : علوم الشرق الأوسط ، ص ٣٨ . (لندن ، ١٩٤٦) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) مركز تموين الشرق الأوسط ، التقرير الزراعى رقم (٦) — محاضر جلسات المؤتمر المنعقد حول التقدم الزراعى فى الشرق الأوسط فى القاهرة بتاريخ ٧—١٠ فبراير /١٩٤٤ . (القاهرة ١٩٤٤ . ص ١٩٠ .

(٤) منظمة التغذية والزراعة (F.A.D.) تقرير الدورة الرابعة للمؤتمر المنعقدة فى واشنطن فى ١٥—٢٩ يونية ١٩٤٨ ، واشنطن ، ١٩٤٩ .

هى انه توجد الآن فى الشرق الأوسط أراض ذات فائدة أكثر مما يمكن استغلاله والاستفادة منه ، أما لعدم وجود الأيدى العاملة أو لقلة المياه التى يمكن أن تتيسر ، وذلك بعد استخدام مياه جميع الأنهر وموارد المياه الجوفية المعروفة استخداما تاما .

وليست مشكلة المياه مشكلة جديدة فى الشرق الأوسط ، فتاريخ مصر هو قصة النيل نفسه ، والمدونات التاريخية والأثرية للشرق الأوسط كله تشير الى مدى استغلال موارد المياه والسيطرة عليها والاستفادة منها . ويرى عدد غير يسير من الخبراء ان هذه الجهود القديمة وفرت للشرق الأوسط الوسائل لاعاشة عدد أكبر من عدد السكان الذين يوجدون فيه الآن ، مع عدم حصول تبدل هام معروف فى الجو أو قلة فى كمية الأمطار الهاطلة . كما ان الرأى يجمع كذلك على ان سوء استعمال الانسان للماء والأرض بقطع أشجار الغابات ، وعدم تنظيم شؤون الرعى ، وبالسماح بحصول التعرية ، وسائر اشكال الهدم والاندثار ، كل ذلك عامل فعّال فى تحويل كثير من الأصقاع الى بواد ، وفى تضاؤل المساحات المزروعة. وكانت هذه التطورات تعتبر خلال القرون الماضية جزءا من أسلوب العيش فى الشرق الأوسط ، على ان التقدم الفنى فى جهات العالم الأخرى خلال السنوات الأخيرة ، وازدياد الشعور القومى فى الشرق الأوسط بالذات ، أديا الى وجوب القيام على تحسين مستويات المعيشة فى هذه المنطقة ، وبذل الجهود البشرية للسيطرة على الماء ، واجتناب سوء الاستعمال الذى مارسه الانسان ممارسة أدت الى تقليل انتاج الشرق الأوسط . واختص هذا الموضوع بدراسة غير قليلة ، غير انه لا تزال هناك فجوات واسعة فى المعلومات الفنية الضرورية للاستفادة التامة من مياه الشرق الأوسط [١] .

ويوضح ضرورة استكمال هذه الدراسات ان موارد المياه فى الشرق

---

(١) راجع ماكتبه ورذنتجتون فى المرجع المشار اليه سابقا .

الأوسط شحيحة بالقياس الى مساحة البلاد ، وأن من هذه الموارد الشحيحة نسبيا يجب أن تستمد حاجات ما يقرب من تسعين مليونا من الناس ، وهى حاجات مختلفة متنوعة . ومن المعلوم ان استهلاك البشر والحيوانات لا يتطلب غير كميات قليلة من الماء ، ولكنه يجب أن تتضح أرجحية هذا الاستهلاك على كل شىء آخر . ثم ان استعمال الماء لرى المزروعات يأتى ثانيا فى الأهمية ، لأن معيشة ٦٠ الى ٨٥ بالمائة من السكان تأتى من الأرض [١] . ويجب أن يحفظ الماء لمعظم الأغراض الزراعية فى مستوى عال ، ثم يطلق بحسب الحاجة ، على حين يتطلب استعماله لتوليد القوة انحدارا سريعا مطردا . وعلى هذا فان ما تتطلبه الزراعة لا يتفق على الدوام مع ما يتطلبه توليد القوة ، ومتى وجد هذا الاختلاف يكون أمر توليد القوة شيئا ثانويا فى أهميته ، بالقياس الى حاجة الشرق الأوسط الى الماء [٢] . ومن حسن الحظ ان المنطقة تتوفر فيها كميات وافرة من النفط ومقادير غير يسيرة من ترسبات الفحم، وهى رخيصة الثمن فى الأحوال المؤاتية . والواجب الأساسى الرابع للماء — أى النقل — لا يتناسب مع الأحوال فى داخلية الشرق الأوسط الا قليلا ، حيث الملاحة النهرية فيما عدا نهر النيل ، والقسم الأسفل من دجلة والفرات ، شىء عديم الأهمية . وليس من المأمول أن يؤدى أى تطور معقول فى الأنهر الأخرى الى جعل الملاحة على مقياس واسع شيئا عمليا . ولذا فان مشكلة تقدير حاجات الماء ، للاستهلاك البشرى والزراعة ، وتوليد القوة ، بالقياس الى الكميات المحدودة فى الأنهر والآبار والأمطار الساقطة ، هى مشكلة أساسية بالنسبة لتعمير الشرق

(١) ذلك أن المياه التى تخزن للرى يمكن أن تصبح كذلك مصدرا للأسماك ، وهذا استعمال للماء كثيرا ما يهمل شأنه ، والواقع ان صناعة الأسماك يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة لسكان الشرق الأوسط الذين لا يستهلكون كثيرا من المواد الزلالية .

(٢) انظر ا.ج. مورى : بعض المشاكل الاقتصادية المحلية فى الشرق الأوسط ، فى مجلة الشؤون الدولية ، ص ٢٣٢ (١٩٤٧) ص ١٢— « يجب أن يؤكد ان طلبات الماء المرجحة فى المنطقة هى الطلبات المبتغاة للأغراض البشرية ، ولتنمية المواد الغذائية ؛ وبذا يجب أن يبقى استعمال الماء للقوة شيئا يأتى فى الدرجة الثالثة » .

الأوسط وتقدمه . ذلك أن رفاهية السكان الحاليين والحاجات المستقبلة تجعل الاستفادة من المياه المتيسرة فى أقصى ما يمكن من الاقتصاد والتدبير شيئا أساسيا [1] .

استأثرت بخيال الناس فى العقدين الماضيين من السنوات فكرة استثمار الأنهر بأجمعها ، فادى ذلك الى عقد آمال كبيرة على ضبط الأنهر فى الشرق الأوسط ، لزيادة الانتاج والقوة الانتاجية ، وتخفيف ضغط ازدياد السكان ، باستيعاب عدد أكبر منهم ، مع تحسين الأحوال الاقتصادية بوجه عام . ولم يطلق اسم سلطة وادى التنسى على مشروع استثمارى خاص فى الولايات المتحدة فحسب ، بل أصبح رمزا لما يستطاع النهوض به لرفع مستوى المعيشة فى الشرق الأوسط كله ، بتطويع الماء واستعماله. والواقع أن مشروع وادى التنسى شرارة الآمال الجديدة ، لاستثمار الموارد الطبيعـيـة واستغلالها فى واد نهرى بأجمعه ، ولاعتبار أى نهر من الأنهار لا مقدارا من الماء يجب أن ينحصر فى مكانه ، بل جهازا عظيما لقوة كامنة نافعة يمكن تسخيرها لمجموعة كبيرة من الفوائد البشرية . [2] ثم ان الحاجة للماء والفكرة المنطوية على مشروع وادى التنسى نشأ عليهما حافز جديد لدراسة أنهر الشرق الأوسط دراسة شاملة . ولذا يجرى الآن استقصاء عن امكانيات استثمار الأنهار وأحواضها ، للسيطرة على الفيضانات ، وتوسيع المساحة المزروعة بالرى ، وتوليد القوة الكهربائية من مساقط المياه . ولا تزال دراسة استغلال الأرض فى أول أدوارها ، وهى دراسة يجب أن تسير جنبا الى جنب مع بحوث ضبط المياه والسيطرة عليها لاستثمار الكهرباء ، لكن بداية ما حصلت فعلا .

ومما تجـدر الاشارة اليه ، فضـلا عن المشاريع التى تمت والتى

---

(١) راجع تقرير منظمة التغذية والزراعة المشار اليه هنا سابقا ، ص١٥ .

(٢) راجع كتاب الغذاء والمجاعة ، للكاتبة ورد سيرد فى الفصل الذى عنوانه تحدى التعرية . (نيويورك ، ١٩٤٠) . وأضحى مشروع وادى التنسى نموذجا للشرق الأوسط عند ما تعين المستر جوردن كلاب رئيس مجلس مشروع وادى التنسى رئيسا لاحدى بعثات هيئة الأمم المتحدة فى الشرق الأوسط .

سوف تستمر دراستها ، أن هناك عقبات خطيرة تقف فى طريق استثمار المياه بصورة شاملة ، بالاضافة الى العقبات الناشئة عن الأحوال الطبيعية . ومهما يكن من استطاعة الفن والعلم فى تذليل العقبات بمرور الوقت بعد درسها دراسة مناسبة ، فان يبدو ان القيود التى يفرضها الانسان على نفسه بالتعاون مع الأحوال الاقتصادية القائمة تزداد رسوخا فى المنطقة بسبب ذلك التعاون . ولا شك أن أشد هذه القيود وضوحا هى الحدود الوطنية التى تحجز بلاد الشرق الأوسط بعضها عن بعض ، فهناك عدد قليل من التقسيمات الطبيعية — الجيولوجية السياسية فى الشرق الأوسط . والأنهر الرئيسية كلها يعود أمرها لبلدين أو أكثر من البلاد . وعلى هذا فان استثمار حوض نهرى بكامله تقف فى طريقه العقبات الناشئة عن الخصومات الوطنية [1] . وأكثر تأثيرا من هذه العقبة ما هنالك من النظام الاجتماعى المتأخر لقيامه على قواعد ليست من مبادىء علم الاقتصاد ، مثل نظام تملك الأرض الذى يخلد بقاء طبقة الفلاحين الفقيرة المثقلة بالديون دون أن تتيسر لها الوسائل أو الحوافز لتحسين ملكياتها الصغيرة المجزءة المهددة ، ودون أن يكون المالك الكبير المتغيب ، وهو الذى يهيمن على معظم أراضى الشرق الأوسط معنيا بالاجراءات والتدابير التى تؤدى الى تحسين حالة مستأجرى أراضيه ، وهؤلاء يكونون أكثرية سكان الشرق الأوسط . يضاف الى ذلك أن ليست هناك فى وجود الأحوال الحاضرة وسائل لتكوين رأس المال المحلى الضرورى لسد تكاليف المشاريع الباهظة ، كما لا تتيسر بوجه عام رءوس الأموال الأجنبية بالطرق الاعتيادية .

ثم ان عدم وجود المعلومات الفنية والمهارة عقبة أساسية فى ذلك

---

(١) اعترفت بهذه الحقيقة منظمة التغذية والزراعة فى مؤتمرها الرابع ، اذ طلبت الى حكومات الشرق الأوسط أن تهتم لبعض الأنهار والنهيرات للوصول الى اتفاقيات دائمة تختص بموارد المياه ، وطلبت الى هذه الحكومات ان تتعاون فى استثمار موارد المياه المشتركة واستغلالها . المرجع السابق ، ص ١٨ .

الشأن [1] . والخلاصة ان العقبات الناشئة عن هذه الحقائق ، لا المصاعب الطبيعية ، هى التى تعرقل استثمار المياه فى الشرق الأوسط .

ولا يحيط البحث التالى احاطة شاملة بامكانيات استثمار المياه فى الشرق الأوسط ، لأنه معنىٌ فقط بالمشاريع التى تشبه مشاريع وادى التنسى ، ويمكن أن تؤدى الى تهيئة الفرص للانتاج الزراعى على مقياس واسع . كما انه لا يمكن أن يكون هذا البحث كاملا فى هذا المجال الضيق ، لأن امكانيات أخرى يمكن أن توجد بازدياد المعلومات عن موارد مياه الشرق الأوسط ، وبازدياد الدراسة العلمية عن طبائع أنهاره وأحوالها . وعلى هذا فالبحث التالى وصف موجز لعدد من المشاريع الكبيرة ذات الأغراض المتعددة ، لاستثمار المياه التى تكون فى الوقت الحاضر موضوع البحث الجدى فى الشرق الأوسط ، والتى سبق أن بدىء ببعضها من قبل .

حوض النيل

يشمل حوض النيل مساحة تزيد على مليون ميل مربع ، ويحتوى على أجواء تفوق فى تنوعها أجواء أى نهر آخر من أنهار العالم [2] ، فهو يحتضن أوغندا وقسما من تنجانيقا والكونجو البلجيكية ، وكينيا والحبشة ، ومعظم السودان وأراضى مصر المزروعة . لكن درجة اعتماد هذه البلاد

(١) راجع تفصيل هذه المشاكل العامة فى كتاب السيدة دورين ويرنر وعنوانه الأرض والفقر فى الشرق الأوسط (لندن ١٩٤٨) ، وكتاب تطور الزراعة فى الشرق الأوسط لمؤلفه ب . ا . كين (لندن ١٩٤٦) ، ونشرة منظمة التغذية والزراعة المشار اليها من قبل ، ص ١٥–٢٩ . وهناك ناحية من نواحى تملك الأرض تلفت النظر ، وهى النظام المعقد لحقوق الماء الذى ينفرد به الشرق الأوسط . راجع المرجعين السابقين وما كتبه ر.ف. جاردين فى كتابه الضبط المحلى لموارد المياه فى الشرق الأوسط ، مع اشارة خاصة الى الناحية القانونية » ، نشرة مركز تموين الشرق الأوسط المشار اليها سابقا ، ص ١٨١–١٩٠ .

(٢) للحصول على وصف أوفى لحوض النيل راجع ما كتبه دجلاس كرارى بعنوان الجغرافيا والسياسة فى وادى النيل ، وهو منشور فى مجلة الشرق الأوسط ، السنة الثالثة (١٩٤٩) ص ٢٦٠–٧٦ .

على النيل تختلف باختلاف مواقعها فتغزر الأمطار الهاطلة فى مرتفعات الحبشة حول بحيرة تانا ، ويبلغ معدلها زهاء ستين بوصة فى السنة . وتسقط فى البلاد المحيطة بمنطقة البحيرات التابعة لمجارى النيل الاستوائية كميات مماثلة من الأمطار ، وهذه تتوزع فى شىء من التساوى على طول أيام السنة . وفى السودان تهطل الأمطار هطولا متفاوتا ، فتتناقص بالتدريج فى الاتجاه الشمالى حتى تبلغ فى الخرطوم — أى درجة العرض ١٥ — حوالى الثمانى بوصات فى السنة . وفيما ما بين عطبرة والدلتا المصرية شمالا ، ينعدم هطول المطر تقريبا ، ويعتمد سكان هذه المنطقة الذين يبلغ عددهم ما يقرب من عشرين مليونا — أو ثلثى سكان حوض النيل بأجمعه — على مياه النهر لسد حاجاتهم طول السنة . وعلى هذا فمن الطبيعى ان تعطى مصالح مصر مقدارا من الأرجحية فى القرارات التى تتخذ بشأن تنظيم جريان النهر .

ومن الخطأ الشائع ان الزراعة المصرية لا تزال تتبع الأساليب القديمة البائدة ، اذ الحقيقة أن ثورة زراعية وقعت فى القرن الماضى ، فأثرت فى انتقاء المحاصيل للزرع ، كما أثرت فى أساليب الرى والعناية به. ذلك أن القطن حلّ محل الحبوب لدرجة ما ، ليصبح أعظم المحاصيل قيمة ، واتسعت زراعة الأرز فى المساحة والأهمية الاقتصادية ، وهناك أمل فى ازدياد هام فى انتاج الخضروات والفواكه . والأهم من ذلك حصول الانتقال من رى الحياض الى الرى المستديم ، لأن طريقة الحياض التقليدية ، التى لم تكن تسمح الا بزراعة محصول واحد فى السنة ، ولم تستطع تهيئة الوسائل الكافية لمعيشة السكان المتزايدين ، استعيض عنها بنظام الرى المستديم وبهذا النظام بطل انغمار الحقول بالماء ، وصار من الممكن امدادها به طوال أيام السنة ، وزراعة عدة محاصيل خلال سنة واحدة . ولايصال الماء الى الحقول يجب أن يضخ من النهر ، ولا بد من رفع مستوى الترعة بواسطة القناطر . وفيما عدا هذه القناطر الكثيرة التى أنشئت على النيل وفى الدلتا ، توجد الآن خزانات ثلاثة لخزن الماء خلال موسم الفيضان السنوى ، وهى خزان أسوان

الذى يطلق عليه أحيانا عنق مصر ، والذى تبلغ سعته خمسة بلايين من الأمتار المكعبة ، وخزانا جبل الأولياء وسنار اللذان برغم بنائهما داخل حدود السودان يخضعان لادارة مصرية ، ويخزن أولهما بليونين ونصف من الأمتار المكعبة ، وثانيهما ستة أعشار البليون .

وهذه الخزانات ، فضلا عن نظام الرى المستديم الذى تمّ بسببها ، جعلت من الممكن الحصول على قابلية هائلة فى الانتاج الزراعى المصرى . وفى السكان كذلك . لكن هذه الخزانات لم تستطع دفع خطر الفيضان المفرط ، كما أنها لا تستعمل مياه النيل استعمالا كليا . ولتسخير النيل بوجه أتم بدأت دراسات لانشاء مرافق اضافية للخزن ، ووضعت الخطة لذلك منذ مدة من الزمن . وسيكون الغرض من الاضطلاع ببعض الأعمال الانشائية الجديدة ، مثل خزان السد العالى ، ان يزداد الاستيعاب الحالى للتخزين السنوى الذى يقوم به خزان أسوان فى مصر ، وخزانا جبل الأولياء وسنار فى السودان . واذا لم تتم هذه الأعمال الانشائية ، فيتحتم على الخزانات القائمة فى البحيرات ، حول منابع النيل الأبيض والنيل الأزرق أن تحتفظ بالماء الزائد خلال سنوات الفيضان العالى ، لتستعمل خلال سنوات الفيضان المنخفض ، وبذا نطمئن الى الخزن المائى الطويل المدى . ولما كان تعاقب الفيضانات العالية والمنخفضة لا يمكن التكهن به ، اتخذ القرن أساسا للحساب فسمّى خزن المياه على هذه القاعدة باسم الخزن « القرنى » . وأخيرا صممت قناة تحويل السد ، لاجتناب التبذير الحالى الذى يضيع فيه مقدار (٥٠٪) من مياه النيل الأبيض ضياعا فى مستنقعات السد .

ويتألف فى الوقت الحاضر معدل النيل المائى المتيسر بين بداية شهر فبراير ونهاية شهر يوليه ، بموجب قياسه فى أسوان ، ما يزيد على ١٥ بليون متر مكعب من جرى النهر الاعتيادى ؛ يضاف الى هذه الكمية حوالى ثمانية بلايين متر مكعب من الماء المخزن فى الخزانات الثلاثة الموجودة ، غيرأن مجموع هذا المعدل يقصر عن سد حاجة مصر والسودان

المنتظرة بين شهرى فبراير ويوليه ، وهى التى تبلغ زهاء ثلاثين بليون متر مكعب . ومن المؤمل أن تسد الخطة الموضوعة للنيل هذه الحاجة الاضافية ، بأن يضاف الى مجموع الثلاثة والعشرين بليون متر مكعب الحالية حوالى ثلاثة بلايين متر مكعب من خزان السد العالى ، وحوالى خمسة بلايين متر مكعب من بحيرة البرت أو بحيرة فكتوريا ، وحوالى بليونين متر مكعب من بحيرة تانا . ومن المقدر ان خزن الماء فى البحيرات ، وفى خزان السد العالى ، سيجعل من الممكن زراعة ثلاثة ملايين فدان اضافية فى مصر والسودان . يضاف الى ذلك ان القوة التى سوف تتولد بالقرب من هذه الخزانات ، وفى أسوان كذلك ، سوف تزود البلاد بمنبع من منابع التقدم الصناعى .

والبلاد الرئيسية التى سوف تفيد من هذا المشروع هى مصر والسودان ، وسوف يستطيع كل منهما زيادة انتاجهما الزراعى زيادة غير يسيرة . أما الحبشة وكينيا وأوغندا والكونغو البلجيكية ، فيمكنها أن تفيد من انشاء محطات لتوليد القوة الكهربائية المائية على خزانات البحيرات[1] غير ان صبغة المشروع الدولية تتطلب عقد معاهدات قبل القيام بانشاء هذه المحطات ، وقد حصل شىء من التقدم فى هذا الاتجاه ، بالمفاوضات التى جرت بين بريطانيا ومصر والسودان ، وهذه تشتمل على اتفاقيات حول المشاكل الفنية والمشاركة المالية . ففى سنة ١٩٤٩ جرى التوقيع على اتفاقية رسمية بين البلاد التى يعنيها الأمر بشأن سد شلالات أوين (أوغندا) ، ويجب أن يتم الاتفاق مع الحكومتين البلجيكية والحبشية حول المشاريع التى تمس المناطق التى تخصهما .

وسوف ينشأ خزان السد العالى فى مكان ما بين ملتقى نهر عطبرة ، وهو آخر روافد النيل ، وبين الحدود المصرية السودانية فى وادى حلفا . ويجرى النظر الآن فى موقعين ، أحدهما بالقرب من مروى ، والآخر فيما يقرب من

(١) بالنظر للمسافة البعيدة بين مصر وهذه الأماكن يصعب على مصر أن تستفيد من هذه القوة ، لكنها تنوى انشاء محطة للقوة الكهربائية المائية بالقرب من خزان اسوان .

شلال دال . وسوف يزيد هذاالخزان فى المعدل المائى المتيسر للرى بين أوقات الفيضان ، لكنه — بذاته — سوف لا يؤمِّن مستقبل مصر ، لأنه سوف يهيء خزن المياه فى مواسم الفيضان لاستعمالها فى مواسم المنسوب الواطى ، كما تفعل الخزانات الحالية ، واذا كان الفيضان غير عال فى سنة استثنائية فسوف لا يتوفر الماء للخزن (٢) .

ولأجل اعداد خطة لخزن طويل الأمد ينظر الآن فى سلسلة من المشاريع لانشاء خزانات بحيرات أفريقيا الوسطى — فكتوريا والبرت وكيوجا — وعلى بحيرات تانا فى الحبشة . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٩ اتخذت خطوة رئيسية لانجاز بعض هذه المشاريع ، حيث أعلنت مقاولة لانشاء سد على شلالات أوين فى مخرج بحيرة فكتوريا ، وسوف يسمح ذلك بتراكم مئتى بليون متر مكعب اضافية من الماء ، وسوف يتضمن ذلك انشاء محطة لتوليد القوة الكهربائية . والمأمول كذلك ان تتحول بحيرة البرت الى خزان للخزن القرنى أو الدائم ، بانشاء سد فى نيمولى الكائنة على مسافة ٢٣٥ كيلو متر شمالى البحيرة داخل حدود السودان ، أو فى موتير الواقعة فى أوغندا ، والمنتظر أن يكون استيعاب بحيرة ألبرت النهائى ١٤٥ بليون مكعب .

وفيما عدا امكانية الخزن العظيمة لهذه البحيرات ، تتضح امكانيات توليد القوة الكهربائية من اختلاف الارتفاع الموجود بينها ، وهو يبلغ حوالى ١٧٠٠ قدم .

ثم ان انشاء مثل هذه الخزانات العظيمة يضمن نقل الماء دون ضياع مفرط ، لأن النيل الأبيض يفقد خمسين بالمئة من حجمه بالتبخير وتتح النباتات النامية فى مستنقعات السد الكائنة جنوبى نيمولى . وللحيلولة دون هذا الضياع ، وضعت الخطة لحفر نهر لتحويل المياه ، وأطلق عليه اسم ممر جونقلى ، وهو اسم القرية التى يسير فيها . وسوف يبلغ

---

(١) راجع التفصيلات فيما كتبه هرست وبلاك وسميكة فى الكتاب الذى عنوانه حوض النيل . وزارة الأشغال العمومية المصرية ، المجلد ٧ . (القاهرة ، ١٩٤٦) .

مقدار المياه التي يحملها حوالى ٥٥ مليون متر مكعب فى اليوم ، على حين مجرى النهر القديم قادرا على حمل حد أقصى قدره ٤٥ مليون متر مكعب من الماء ، خارج موسم الطغيان ، وهى كمية تكفى للسماح باستمرار الملاحة [١] . وهناك مشاريع بديلية تتضمن ضخ الماء من مستنقعات السد ، عوضا عن انشاء نهر لتحويل المياه .

أما مشروعا بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا ، وكذلك ممر الجونفلى ، فهى تؤثر فى المقام الأول فى نهر النيل الأبيض الذى يستوعب حوالى سبعى مجموع المعدل المائى لنهر النيل ، وينصرف انصرافا متساويا طوال أيام السنة ؛ ومن المعلوم أن النيل الأبيض لا يستعمل فى الوقت الحاضر للرى بمقياس واسع فى السودان . وهناك تصميم لمشروع مماثل للخزن الدائم « القرنى » ينشأ فى بحيرة تانا على النيل الأزرق ، والمعروف أن النيل الأزرق يأتى منه حوالى أربعة أسباع مياه النيل ، ويأتى السبع الباقى من عطبرة ، ولذا يكون النيل الأزرق فى المقام الأول مصدرا لفيضان النيل . ولا يخدم النيل الأزرق مصر وحدها بل السودان كذلك ، وعلى الأخص مشاريع الاستثمار السودانية فى الجزيرة الكائنة جنوبى الخرطوم . وتقع بحيرة تانا فى حوض فوق الهضبة الحبشية ، وهنا يكون مقدار الأمطار مساويا لمقدار التبخر تقريبا ، كما فى بحيرات النيل الأعلى . وعلى هذا فان انشاء خزان فى بحيرة تانا سوف يستغل تصريف النيل الأزرق ، ويتمم عملية خزن المياه فى بحيرتى ألبرت وفكتوريا . وهناك بالاضافة الى ذلك امكانيات توليد القوة الكهربائية المائية ، لأن النيل الأزرق يهبط هبوطا غير يسير .

ويبدو أن شلالات تس أيسات التى تبعد عن بحيرة تانا مسافة غير كبيرة هى على الأخص الموضع المناسب لتوليد القوة ، غير انه المؤسف ان توليد القوة الكهربائية من النيل الأزرق ربما يتعارض مع عملية الخزن الدائم « القرنى » ، ولا بد له أن يقتصر على المدة المنحصرة بين ديسمبر ويونيه .

---

(١) راجع تفصيلات ذلك فى كتاب مشاريع النيل الأعلى . مشروع قناة الجونفلى ، وزارة الأشغال العمومية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

ويوجد بصورة مستقلة تماما عن مشاريع تنظيم النيل مشروع مصرى صرف لتوليد القوة الكهربائية المائية ، وهو يهدف الى الافادة من الفرق فى المستوى بين البحر الأبيض المتوسط ومنخفض القطارة الكائن فى منتصف الطريق تقريبا بين وادى النيل وحدود برقة . وخدمت المستنقعات المالحة فى هذا المنخفض جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، اذ كانت محورا للدفاع عن الأراضى الضيقة المنحصرة بين ساحل البحر والمنخفض . وفضلا عن قيمتها الاستراتيجية ، تعد هذه البقعة فى الوقت الحاضر أرضا مواتا تماما ، فاذا اقتيدت مياه البحر الأبيض المتوسط بقنوات وأنفاق الى المنخفض ، فسوف يصبح فى استطاعة المجرى المنحدر من علو مئتى قدم تقريبا أن يولد قوة كهربائية تكفى لتغذية قسم كبير من البلاد المصرية ، كما ان تبخر مياه البحر المتراكمة فى المنخفض سوف تجعل من الممكن نشوء صناعة متسعة للملح [1] .

وادى الغور

فى موازاة ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى، من تركيا الى خليج العقبة ، يمتد خندق چيولوچى أو وادٍ غائر تقع أعلى نقطة منه فى لبنان بالقرب من بعلبك القديمة ، كما تقع أخفض نقطة منه فى منخفض البحر الميت العميق . وتجرى الأنهر الثلاثة — العاصى والليطانى والأردن — معظم جريانها فى هذا الوادى مع روافدها ، وهى مصدر التجهيز المائى الرئيسى للبنان وفلسطين ، ولأقسام من سوريا والمملكة الأردنية . ومع ان هذا الأنهر تحمل فى مجراها مقدارا من الماء أقل بكثير مما يحمله النيل، أو أنهر العراق الكبيرة ، فأهميتها تزداد بكونها تجرى فى بلاد محتشدة بالسكان احتشادا كثيفا [2] .

---

(١) ورذنجتون ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) ورذنجتون ، المرجع السابق ص ٦٢ .

وربما كانت أعظم صفة تتصف بها المنطقة المحيطة بوادى الغور هى الاختلاف الشديد فى الجو ، وهو الاختلاف الناتج عن التباين الكبير فى الارتفاع ، وتنوع الحضارات التى ظهرت بين سكانها الذين لا يزالون يمثلون خليطا من الأقوام والأمم والديانات . وينمو النخيل والموز وقصب السكر فى بعض أجزاء هذه المنطقة ، كما يمكن أن توجد الفواكه الحمضية على طول الساحل بأجمعه ، حيث يجود الزيتون والكروم والتفاح فى سفوح الجبال ، كما تزرع مجموعة من المحاصيل الحقلية تتراوح بين الحبوب وبنجر السكر والبطاطا فى الجهات العالية من البقاع . ويعيش فى هذه البلاد خليط من المسيحيين واليهود ، والدروز والمسلمين السنة والشيعة ، بين خرائب المعابد الوثنية . غير أن زراع بساتين الأشجار الحمضية الحديثة ، ومزارعى فلاحة المصاطب ، وهم الذين يزرعون الكروم والزيتون فى السفوح الجبلية ،يشتغلون فى جوار الرعاة البداة الذين تؤثر ماعزهم وضأنهم فى عملية تعرية التربة ، باتلاف الأشجار والشجيرات ، وبذا يعيقون الجهود المضنية التى يبذلها جيرانهم المستقرون. وفى أحوال كهذه يحدث انه على حين يتيسر عدد كبير من الأفكار المتضاربة حول استثمار المنابع المائية الموجودة ، لم يقم من المشاريع الكبيرة الا القليل لاستغلال الأنهر بمجموعها استغلالا مترابطا .ولايخفف من صعوبة هذا الوضع ولو بعض الشىء كون هذه المنطقة يتقاسمها عدد من الدول المستقلة ذات السيادة ، بل ازداد التعقيد بتقسيم فلسطين ، وشدة الخلاف الذى أعقب الحرب الأخيرة بين العرب واليهود . وينطبق كل هذا بلا شك على حوض الأردن أكثر مما ينطبق على النهرين الواقعين أبعد من ذلك شمالا فى الوادى .

وينبع نهر العاصى فى لبنان الشمالى ، بين سلسلتى لبنان الغربية والشرقية ، فى وادى البقاع الخصيب . ويتراوح مقدار الماء الذى يجرى فى هذا النهر بين ستة وسبعة عشر مترا مكعبا فى الثانية ، وهو يجرى شمالا فى أراض لبنانية مسافة نحو الثلاثين ميلا . وفى هذاالقطاع من مجرى العاصى وضعت خطة لتحويل شىء من مياهه للرى ، ولاستغلال مساقطه

فى توليد القوة الكهربائية ، بانشاء محطة صغيرة لهذا الغرض . وتزداد قيمة هذا المشروع اذا ربطت المحطة بشبكة اسلاك المنطقة كلها ، بعد أن تنشأ محطة الليطانى الأكبر فى الجنوب ، لأن تصريف الليطانى اذا قل خلال الصيف الى ما يقرب من عشرة بالمئة من تصريفه الشتوى يبقى العاصى أكثر مثابـرة فى التصريف ، لأنه يستمد جزءا من ميـاهه من ذوبان الثلوج .

وعندما يعبر نهر العاصى الحدود السورية يدخل بحيرة حمص ، وهى فى الحقيقة خزان اصطناعى تكون بتشييد قناطر فى موقع سد رومانى قديم . ومن هناك يجرى العاصى متجها نحو الشمال حتى يدخل أرض تركيا ، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط . ويمكن القيام بعدة مشاريع على طول مجرى العاصى الرئيسى فى سوريا ، مما تدرسه الآن الحكومة السورية . وأكثر هذه المشاريع فائدة مشروع تجفيف مستنقع الغاب الذى يتألف قاعه من تربة خصبة فى أسفل سلسلة جبال العلويين ، وهناك أيضا مشروع صرف (بزل) حوض الرج الواقع أبعد من ذلك شمالا . على أن مشاريع العاصى ، ومثلها مشاريع الليطانى ، تتطلب مقدارا غير يسير من الأعمال الترابية التى يساعد على انجازها كثرة الأيدى العاملة الرخيصة الأجور ، بالنسبة لأحوال الشرق الأوسط . وعلى هذا يبدو الآن تحقيق هذه المشاريع شىء مغر ، لأن البلدين معا يتوفر فيهما عدد كبير من الأيدى العاملة العاطلة عن العمل بوجود اللاجئين العرب من أهل فلسطين .

وينبع الليطانى ، كما ينبع العاصى ، من مسيل مياه بعلبك ، لكنه يسلك فى انسيابه مجرى معاكسا يتجه نحو الجنوب مخترقا وادى البقاع . ثم يدور الليطانى فيتجه الى الغرب ، ليصب فى البحر الأبيض المتوسط ، بالقرب من البلدة الفينيقية القديمة صور . ويقع منبع هـذا النهر على ارتفاع يبلغ ثلاثة آلاف قدم ، وينحدر انحدارا معتدلا مسافة خمسين ميلا من منبعه ، فضلا عن الخمسة والعشرين ميلا الأخيرة قبل أن يصل

المصب . وعلى هذا تكون الأراضى التى يخترقها نهر الليطانى فى هذين القطاعين — وعلى الأخص فى القسم الأعلى من حوضه — صالحة للرى . أما قطاعه الأوسط فهو شديد التحدر ، وهو يصلح أن يكون موقعا لتوليد القوة المائية (١) . ويتراوح تصريف النهر عند قياسه فى المنصورة بالقرب من المنبع، بين ٣٢ مترا مكعبا فى الثانية فى شهر يناير وثلاثة أمتار مكعبة فى أغسطس . ويقل الماء الضرورى لتوليد القوة الكهربائية حتى عن هذا الحد الأدنى خلال أشهر الصيف ، عندما تتم الاجراءات لانجاز مشاريع رى أخرى ، ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبة الا بخزن المياه بمقياس واسع فى الشتاء . ويتطلب هذا الأمر اجراء استقصاءات جيولوجية مفصلة ، ليتسنى تعيين أنسب موقع أو موقعين ينشأ فيه أو فيهما سد واحد أو سدان ، دون أن يحصل تأثير على نظام الرى فى أعالى النهر . والمعروف أن المكنات التى سوف تعمل لتوليد هذه القوة المائية يمكن أن تبلغ قدرتها خمسين ألف كيلو واط .

والسلسلة الثالثة الممكن ربطها بشبكة القوة الكهربائية المستحصلة من نهرى العاصى والليطانى تكون محطة توليد القوة الكهربائية من تساقط المياه من بحيرة يمونة ، وهى احدى ملحقات الليطانى . وعند ذلك يكون مجموع القوة الناتجة سنويا من محطات التوليد الثلاث حوالى ٤٨٠ مليون كيلواط فى الساعة ، وستزيد هذه القوة عن الاستهلاك الحالى للقوة الكهربائية فى لبنان بأكثر من ثمانى مرات . وتقرن مثل هذه المشاريع عادة بأعمال الاستثمار الأخرى ، وهذه سوف تؤدى لزيادة استهلاك القوة فى الداخل زيادة وافرة ، أو بمشاريع تصدير القوة الى البلاد المجاورة .

وينبع نهر الأردن من جداول اللدان والحاصبانى وبانياس ، وهذه يتكون ماؤها من العيون ، ومن أنهر البريغيت التى تنبثق من سفوح جبل

(١) راجع ى . عبد العال : الليطانى ، دراسة هيدرولوجية . (بيروت ، ١٩٤٨) .

الشيخ فى لبنـــان ، وتلتقى فى مستنقعات بردى العائدة لبحيرة الحولة . ومن هناك تخرج هـــذه الجداول ، فتكون الأردن الذى يجـــرى الى بحيرة طبرية ، وفى الأميال التسعة بين بحيرتى الحولة وطبرية يهبط الأردن مقدار ٩٠٠ قدم . وفى أسفل بحيرة طبريـــة مباشرة يتصل نهر الأردن باليرموك الذى ينبع فى سوريا ، فيكون الحـــدود بينها وبين الأردن لمسافة ما . والأردن اذ يجرى عابرا الى البحر الميت المنخفض عن سطح البحر حوالى ١٣٠٠ قدم ، ينخفض مستواه انخفاضا رفيقا مسافة خمسة وستين ميلا ، لكنه يتعرج تعرجا كثيرا فيقطع فى الواقع مسافة مئتى ميل .

ويتحكم الآن فى الحصيلة المائية من نهر الأردن امتياز شركة الكهرباء الفلسطينية ، وهى تمتلك حق استعمال الماء لأى غرض آخر ، ولو انهـــا تستعمل هذا الحق بتبصر [١] . فعند اتصال اليرموك بالأردن يحتفظ بالمياه بواسطة سد ، ثم يسمح لها بالهبوط من علو يقارب الثمانين قدما ، وذلك لتوليد القـــوة الكهربائية التى تبلغ حوالى تسعة أعشار جميع استهلاك فلسطين .

وفى الهوة الموجودة تحت السد يكون عمق نهر الأردن منخفضا عن قاع الوادى ، فيجعل استعمال المياه للرى شيئا غير اقتصادى فى الوقت الحاضر . ولذا تقتصر الافادة من الأردن فى جنوب البحر الميت على بضع مضخات أهلية ، تستهلك معظمها تكاليف باهظة ، بالنظر للعلو الشاهق الذى يجب أن يرفع اليه الماء ليصل الى مستوى الوادى [٢] .

وأعظم المشاريع ذات الأغراض المتعددة للافادة من مياه نهر الأردن مشروع يقرن عادة باسم و . ك . لاودرميلك ، لأنه هو الذى سمى هذا

---

(١) لايشمل هذا الامتياز منابع الاردن وروافده التى يأتى أغلبهـــا من خارج فلسطين ، حيث انشأت سوريا مثلا محطة صغيرة لتوليد القوة الكهربائية على اليرموك .

(٢) راجع وردنجتون : المرجع الســـابق ، ص ٥٣ . وانظر ما كتبه وولتر كلى لاودرميلك فى الفصل الثالث من كتاب فلسطين ، ارض الميعاد . (نيويورك ، ولندن ١٩٤٤) .

المشروع باسم سلطة وادى الأردن ، تقليدا لاسم مشروع وادى التنسى فى الـولايات المتحدة ، ولأنه هـو الذى وضع تفـاصيل التنفـيذ للحكومة الأردنية .

وتنحصر أهداف هذا المشروع فى تحويل مياه الأردن الى مستوى خزان شركة الكهرباء الفلسطينية الكائن فى أسفل بحيرة طبرية ، بحفر قناة أو قناتين يرتفع مستواها أو مستواهما ، بحيث تصبح واحدة فى كل جانب من جانبى الوادى ، ليسهل انسياب الماء بالجاذبية الى الأراضى القابلة للرى والزاجورس . ولما كان هذا المشروع سوف يوفر من الماء أكثر مما يحتاجه وادى الأردن ، فان قسما من النهر يمكن أن يحول من فوق بحيرة الحولة ، لارواء سهل صفد وسائر الوديان القريبة . ولأجل المحافظة على مسـتوى البحر الميت ، والاستمرار على تـوليد القوة الكهربائية ، مع التوسع فيها بطريق النهر ، سوف تتخـذ التدابير ليجرى الماء من البحر الأبيض المتوسط فى قنوات وانفاق يرجح ان تبدأ من خليج حيفا الكائن على بعد خمسة وعشرين ميلا فقط . ويتوقع المستر لاودر ميلك ان هبوط المياه الفعلى لتوليد القوة الكهربائية المائية فى عدد من محطات التولد فى الوادى سينتج حدا أدنى يتراوح بين٧٦٠٠٠ و ١١٠٠٠٠ كيلو واط . وتلتحق بمشاريع الرى وتوليد القوة هذه خطط لحفظ الماء ، وضبط الفيضان ، والصرف (البزل) ، وتنظيم الرعى ، والتحريج [١] .

ومع ان دراسات كثيرة أجريت فى مختلف نـواحى سلطة وادى الأردن ، لا يزال هنـاك كثير مما يجب أن يدرس . والمشروع بأجمعه موضـوع لنشرات ومطبوعات عديدة ، والكثير مما كتب قابل للنقاش والجدل ، بالنظر للمصالح المتعارضة الكثيرة . فبغض النظر عن المشاكل الطبيعية والعقبات الثانوية ، مثل ضرورة تسوية الأمر مع أصحاب الامتياز الحالى ، فان هـذا المشروع الجبار تعترضه صعوبتان رئيسيتان . أما

---

(١) لاودرميلك : المرجع السابق، الفصل الحادى عشر .

الصعوبة الأولى فهى أن التكاليف باهظة جدا ، لا بالنظر لأن مياه البحر يجب أن تقاد فى انفاق تحفر فى صخور مسامية ، بل بالنظر لأن الوديان العديدة التى يتحتم على جداول الرى الجانبية اختراقها تمر بمنحدرات الوادى أيضا . ثم ان الفائدة الاقتصادية للمشروع لا تزال بحاجة للبرهنة عليها ، ولعل أعقد من هـذه الصعوبة التى هى من صنع يد الانسان والناتجة عن جريان الأردن فى واد تشترك فيه عدة دول ، ان منابعه تنفجر فى لبنان وسوريا ، كما كان النهر نفسه يكون الحدود بين فلسطين والأردن ، وهو الآن يجرى فى أراض تسيطر عليها المملكة الأردنية من جهة واسرائيل من جهة أخرى. ومشروع فى مثل هذه الضخامة لا يمكن أن يضطلع به ويسير بصورة ناجحة الا بحصول التعاون التام بين سكان المنطقة بأجمعها ، فضلا عن حكوماتهم ، وليس من المستطاع اتمامه الا بعد حصول مقدار من الوحدة الاقتصادية فى المنطقة كلها على الأقل .

وفيما خلا المشاريع المختصة بهذه الأنهر الثلاثة ، هناك عدد كبير من المشاريع الصغرى ، وأهمها مشاريع توليد القوة الكهربائية من أنهر ابراهيم والبارد ، وسائر الأنهر الصغيرة التى تنبع من منحدرات لبنان الغربية . وهناك مشروع تحويل قسم من اليرموك الى جدول يجرى نحو الجنوب ، لارواء بعض أجزاء المملكة الأردنية ، وهو مشروع يتعارض مع مشروع سلطة وادى الأردن ، ومشروع تجفيف مستنقعات الحولة الكائنة فى شمال فلسطين وريها فيما بعد ، ومشروع ارواء النقب بالماء المحول من الينابيع ، ومشروع نهر العوجة الذى يجرى الى البحر الأبيض المتوسط فيما يقرب من تل أبيب .

تركيا

تسقط الأمطار بكميات وافرة فى مناطق تركيا الساحلية ، وخاصة سواحل البحر الأسود ، وفى مرتفعاتها الشرقية كذلك . أما الهضبة الوسطى المنبطحة ، وهى التى تعزلها عن البحار سلاسل الجبال العالية ، فتقل فيها الأمطار عن عشرين بوصة فى السنة ، بل يبلغ مقدار المطر فى

معظمها أقل من خمس عشرة بوصة ، وفى قسم منها — أى فى قلب الهضبة — أقل من ثمانى بوصات . ومما تتصف به الأناضول الوسطى ان الأراضى المزروعة تتألف من أشباه دوائر هندسية متقطعة مراكزها الآبار ، وانصاف أقطار مسافة يمكن أن يقطعها الثور فى يوم عمل واحد . وتتصف السواحل الغربية والجنوبية بالموسم الجاف الطويل الذى يتصف به جو البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فبينما لا تعانى معظم البلاد التركية قلة الماء بدرجة خطيرة ، ينبغى ايجاد الوسائل للمحافظة على المياه المتيسرة ، والافادة منها فائدة تامة حتى يكون من الممكن توسيع الرقعة المزروعة ، وزراعة محاصيل أكثر ، والحصول على غلات أحسن ، وغذاء أفضل لاستهلاك البشر والحيوانات .

وتوجد امكانيات ممتازة لاستثمار المياه فى تركيا ، فهنالك أسباب تدعو للاعتقاد بأن البلاد فيها موارد عظيمة من المياه الجوفية ، لكنها لا تزال بحاجة الى دراسة منتظمة . أما موارد الماء الواضحة للعيان فهى الأنهر الواقعة جميعها تقريبا اما فى الهضبة الوسطى ، أو فى جوانب حواجزها الجبلية المقابلة للرياح ، وهذه تجرى جنوبا الى البحر الأسود أو بحر ايجه أو البحر المتوسط . وتظل كثير من انهار تركيا على جريان دائم ، وتتضاءل بعضها أو تجف خلال الصيف ، لكنها تحمل فى مواسم معينة مقدارا من المياه يكفى لجعل الفائدة الزراعية منها شيئا ممكنا . وكميات الماء التى تحملها بعض هذه الأنهار وافرة غزيرة ، وهى فى نزولها السريع من الجبال الى البحر تفيض على الدوام ، وكثيرا ما تدمر قسما من أغنى أراضى تركيا الزراعية ، وتجعل جزءا منها فى احتياج دائم للصرف . وفى كثير من الحالات يجعل سقوط المياه الشديد من المرتفعات توليد القوة المائية امكانية أكيدة ، ويبشر هذا المطمح بنجاح عظيم فى بلاد متعطشة للقوة الكهربائية . ومع ان بضع مناطق فقط فى تركيا تتوفر فيها سوق جاهزة للقوة الكهربائية ، عدا مناطق استانبول وازمت وأنقره وازمير وأطنة ، فهناك عدد كبير من مراكز السكان والصناعة الكبيرة يمكنها أن

تفيد من أى مقدار من القوة الكهربائية ، وفى وسعها كلها أن تستعمل القوة المائية استعمالا مفيدا ، عوضا عن القوة الحرارية الغالية التكاليف .

وفى السنوات العشرين المنصرمة أدت الحاجة العاجلة للسيطرة على فيضان الأنهر ، فضلا عن الحاجة للقوة الكهربائية والرى الاضافى ، الى وفرة الدراسات الفنية وتعدد المشاريع . وكثير من هـذه المشاريع قيد الدرس الآن ، بل ان بضعا من هذه المشاريع سبق ان تمت دراسة . وتتوفر جميع الدلائل على ان الحكومة التركية مزمعة على أن تسير قدما فى تحقيق خططها ، على أن هذه الخطط لم تعالج علاجا كافيا حتى الآن ، كما ان ملابساتها الاقتصادية والزراعية لم تقدر تقديرا تاما بعد . يضاف الى ذلك أنه يعوزها الترابط ، لأن المشاريع فى بعض الأحيـان يضطلع بها من دون الالتفات الى امكانيات المنطقة أو حاجاتهـا بوجه عام ، ويكون العمل الذى سبق فى بعض الحالات غير متلائم مع الاستثمار الشامل لحوض النهر كله . وفى حالة واحدة فقط أجرى استقصاء استثمارى لحوض نهرى بكامله ، مع ان استقصاء ثانيا مثل هذا توضع له الخطة الآن . ثم ان أعمال التحريج ، ومكافحة تعرية التربة ، يبدو أنها أهملت ، بسبب الانصراف الى تنظيم حالة الأنهر . الواقع أنه لم تتخذ مطلقا أية اجراءات فعالة فى تركيا لمكافحة التعرية ، ومعنى هذا أنه على حين أضحت فكرة مشروع وادى التنسى معروفة فى تركيا ، يبدو ان مفهومها المعبر عن استثمار حوض أى نهر من الأنهار بأجمعه لم يبدأ تقديره الا حديثا .

وفيما يلى بيان موجز عن امكانيات عدد من الأنهر التى تبشر بحصول منافع شاملة من استعمالها ، بانتظام وحكمة ، فضلا عن اجراءات ضبط الفيضان التى تقتضيها . [1] ويجب أن يكون ملحوظا ان جميع الأنهـار

---

(١) راجع وصفا موجزا لمشاريع الحكومة التركية فى ما كتبه ن. تانيه، بعنوان اعمال هيدروليكية كبيرة فى تركيا ، فى مجلة الأشـغـال ، لسان حال جمعية هندسة الأشغال الفنية العامة والأسمنت المسلح : ديسمبر ١٩٤٨ ، ص ٦١١–٦١٨ . انظر كذلك ما نشره مكتب الاستعلامات التركى بعنوان « مشاريع استثمار الكهربائية المائية فى تركيا » فى مجلة « تركيا اليوم » رقم ٢ ، (نيويورك ، ١٩٤٩) .

عدا أبعدها شرقا (الفرات) تجرى بكاملها فى داخل حدود تركيا ، وبذا تنتفى احدى عقبات استثمار المياه بالقياس الى بلاد الشرق الأوسط المجاورة لها .

ومشروع وادى سيحان هو أكثر مشاريع استثمار المياه تقدما فى تركيا ، وسيحان أحد الأنهر الثلاثة (بردان وجيحان وسيحان) التى تجرى نحو الجنوب من جبال طوروس ، فتخترق منطقة تشقورا أووا الرسوبية الخصبة ، وهى احدى المناطق الزراعية الغنية فى تركيا ، وتكون مثلثا مقلوبا يشير الى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط. ومع ان الأنهر الثلاثة جميعها تفيض أحيانا ، فان سيحان يحدث أشد الفيضانات خطورة وأكثرها اتساعا ، فيدمر سنويا مساحات واسعة من الأراضى الزراعية على جانبيه ، ويقضى على حياة الكثيرين ، ولذا فان منع الفيضانات وحده يعد سببا كافيا لبذل الجهود فى سبيل السيطرة على سيحان . لكن منافع غير يسيرة يمكن أن تستخلص بالاضافة الى ذلك من رى السهول الكائنة على جانبى هذا النهر ، ومثال ذلك السد الغاطس الذى أنشىء على نهر سيحان على مسافة ست كيلو مترات فوق آطنة ، وكذلك الجدولان الرئيسيان للرى . لكن مجموعة الجداول الثانوية والثالثية التى شقت حتى الآن تخدم جزءا من الجانب الأيمن فقط ، وتزود ماء الرى لمساحة ١٧٫٠٠٠ هكتار فقط . فاذا تيسرت الوسائل لخزن المياه ، فسوف يكون من الممكن ارواء ١٥٦٫٠٠٠ هكتار ، أو جميع سهل آطنة فى الواقع .

ومع ما للزراعة من الأهمية الأولى فى تشقور أووا ، فالمنطقة تتيسر فيها أيضا أعمال التوسع والنمو لصناعات صغيرة ، وخاصة صناعات النسيج وحفظ الأغذية . ويعد عدم وجود القوة الكهربائية عاملا كبيرا فى الحيلولة دون حصول النمو الصناعى فى هذه المنطقة ، وهى بأجمعها تعانى الآن نقصا كبيرا فى القوة ، لأن ما يجرى توليده كله تقريبا يعتمد على مكائن حرارية صغيرة تستعمل كل نوع من الوقود . ثم انه يمكن تسخير مقادير

المياه الغزيرة المنهمرة فى سيحان لتطمين الحاجات الحالية من القوة ، وما ينتظر أن تتطلبه المنطقة منها لعدة سنوات قادمة .

ولسد حاجات منطقة تشقور أووا وضعت الخطة لانشاء سد متعدد الأغراض على أحد منحنيات سيحـان ، على مسافة ثمانيـة كيلو مترات تقريبا فوق آطنة ، وتتضمن التصاميم انشاء سد بعلو يكفى للتوفيق بين متطلبات الرى وتوليد القوة المتعارضة . وسيتكون من ذلك خزان لضبط جميع الفيضانات التى تزيد على الألف متر مكعب فى الثانية ، والتى لا بد من انشاء ضفاف عالية على طول النهر فى أسفل السد لتنظيمها . وبذا تتحقق امكانية الرى التامة فى المنطقة ، ويتسنى توليد حوالى ٢١٠ كيلو واط فى الساعة من القوة الابتدائية فى السنة ، بعد اقامة مصنع للقوة تبلغ سعته ٦٧٫٥٠٠ كيلو واط . وقد سبق للمصرف الدولى أن أبدى اهتماما بهـذا المشروع ، وأرسل خريف ١٩٤٩ مشاورا لدراسة التصاميم فى أمكنتها المقترحة [1] .

ولم تنظم حتى الآن مشاريع مماثلة لنهرى بردان وجيحان الكائنين على جناحى تشقور أووا الأيمن والأيسر ، على ان سدا ومجموعة من الجداول كانت موجودة على بردان ، لارواء حوالى ٢٠٫٠٠٠ هكتار من الأرض فى سهل طرسوس . وقد تنصب يوما ما التأسيسات الكهربائية المائية فوق السد أو بقربه ، ويجرى الآن انشاء سدة طولها ٤٥ كيلو مترات على ضفاف جيحان لدرء الفيضانات ، على ان خطة موحدة لمنطقة تشقور أووا كلها تتناول موارد الأنهر الثلاثة بأجمعها لم توضع بعد .

---

(١) منح المصرف الدولى فى ١٨ يونية ١٩٥٢ قرضا لتركيا مقداره ٢٥٢ مليون دولار ، لتمويل تكاليف العملة الخارجية التى يحتاجها مشروع سيحان. ويتضمن المشروع انشاء سد ترابى ، وانشاء محطة لتوليد القوة الكهربائية ينصب فيها مولدان كهربائيان تبلغ قوة كل منهما ١٨٠٠٠ كيلو واط ، فضلا عن مولد ثالث ينصب فيها فيما بعد ، وشبكة لنقل القوة الى اطنة وطرسوس ومرسين ، واكمال أعمال ضبط الفيضان ، وشق الجداول اللازمة للرى التى كان العمل جاريا فيها فى الوقت الذى منح فيه القرض .

وفيما عدا هذه الأنهار الثلاثة يوجد نهر سقاريا الذى ينبع فى القسم الغربى من هضبــة الأناضول ، ثم يجرى متجها الى الغرب والشمال نحو البحر الأسود مسافة ٧٥ ميــلا شرقى البوسفور . ويجرى نهر بور سوق ، وهو الرافد الأكبر لنهر سقاريا نحو الشرق مخترقا كوتاهية واسكيشهر قبل أن يتصل بسقاريا ، كما يجرى أحد روافده الغربية بالقرب من أنقرة . ويشتمل حوض مجموعة الأنهار هذه على قسم من أحسن مناطق زراعة الحبوب فى تركيا ، والخطة لاستثمارات مائيــة متعددة الأغراض تتناول مجموعة أنهر سقاريا — بور سوق غير أن الهدف الأول من هذه الخطة يقتصر على توليد القوة ، لأن هذه الأنهر واقعة فى منتصف الطريق تقريبا بين أنقره واستانبول ، وهى صالحــة لتوليد موارد كهربائية مائية فى أمكنة استراتيجية يمكن أن تجهز القوة اللازمة لأرقى المناطق الصناعية فى تركيا . والحقيقة ان هذه المواقع أصبحت مراكز هامة فى شبكة أسلاك كهربائية يؤمل مدها ، لتربط بلاد الأناضول الشمالية الغربية سويا ، وتمدها بالقــوة اللازمة . أما الصرف والرى ومكافحة الفيضان ، فهى كلها ذات أهمية ثانوية فى ضــوء امكانيات القوة الكهربائية للمنطقة .

وأنشىء على هذه المجموعة النهرية سابقا ســد من أحدث سدود تركيا وأكثرها اتقانا ، وهو سد نهر تشوبوق بالقرب من أنقرة ويجرى الآن انشاء سد ثان فى اسكيشهر على نهر بور سوق ، لتكوين خــزان يسع ١٥٥ مليون متر مكعب . وسوف يقوم هــذا السد بمنع وقوع الفيضان الدورى ، وبتيسير رى سهول اسكيشهر كذلك . ولم تبذل بالنسبة لنهر سقاريا نفسه الا جهــود متواضعة حتى الآن ، لاتخــاذ ما يلزم للــرى والصرف فى أعاليه على ان مشروعين رئيسيين وضــعا لهــذا النهر وأولهــما فى صارى ير ، ويتضمن انشاء ســد ومصنع للقوة الكهربائية المائية سعته ٧٥٫٠٠٠ كيلو واط ، ويستطيع توليــد حوالى أربعمائة مليون كيلو واط فى الساعــة سنويا [١] ، وثانيهما فى

---

(١) هذا السد ومحطة توليد القوة الكهربائية يجرى انشاؤهما الآن .

جاغلازق ، ويتضمن انشاء سدين يشغلان مصنعا واحدا سعته ٣٦٫٠٠٠ كيلو واط ، لتوليد ١٢٠ — ١٥٠ مليون كيلو واط فى الساعة . وتستدعى تصاميم الحكومة التركية ربط مصانع القوة هذه بغيرها من مصانع القوة التى تشتغل بالفحم والليجنايت ، لتكوين شبكة تضم تركيا الشمالية الغربية ، فتزود على هذه الشاكلة القوة لمناجم الفحم الكبيرة فى زونغلداق ، والمنطقة الصناعية الممتدة بين استانبول وأزميت ومركزى أنقرة وقرق قال الصناعيين [٢] . وينتظر أن تنتج عن هذه المشاريع حصيلتان ثانويتان كبيرتان ، لأن انشاء السدود سوف يدرأ الفيضان عن وادى سقاريا الأسفل ، كما يؤمل أن تجعل مسافة ستين الى مئة ميل من مصب النهر صالحة للمراكب الصغيرة من حمولة ٢٠٠ الى ٥٠٠ طن .

ومن أنهار تركيا نهر كديز الذى يجرى غربا حتى يصب فى بحر ايجه شمالى أزمير مباشرة ، ويعد واديه موردا كبيرا لقطن تركيا وتبغها وفواكهها ونقلها وزيت زيتونها . ولقد حسب الحساب بصورة واضحة فى التصاميم الموضوعة لحوض هذا النهر لشؤون الرى والصرف ومكافحة الفيضان وتوليد القوة من الماء . وعلى هذا النهر بنيت سابقا عدة سدود وجداول تحويلية ، فالسد المقام أولا على نهر كديز . والآخر المقام فى جامليكا على قوم تشاى ، يساعدان على تنظيم فيضان كديز الأسفل الذى يهدد بخطره سهول منمن ومغنيسيا الغنية ، حيث تجرى المياه التى يصدها هذان السدان فى جداول الى بحيرة مرمرة . ويبنى الآن سد غاطس آخر على كديز فى جنوب البحيرة مباشرة ، وسوف يربط أيضا بالبحيرة بواسطة جدول خاص . وعلى مسافة من أسفل النهر أقيم سد أكبر لتحويل المياه فى أمير عالم ، كما شيدت سلسلة من الضفاف ومجموعة من الأقنية لارواء سهل منمن بأجمعه . وبالاضافة الى اتمام هذه الأعمال الانشائية ، فان أكبر عمل يراد انجازه فى حوض كديز هو انشاء سد كبير

---

(١) يكاد العمل ينتهى فى هذه الشبكة لتوليد القوة الكهربائية فى هذه المنطقة الشمالية الغربية ، لان السلطات التى يهمها اتمام هذا العمل جهزت العملة الخارجية اللازمة .

جديد بالقرب من أوالا على أن الهدف الأكبر لهذه الأعمال كلها هو مكافحة الفيضان وضبطه ، ولو ان انشاء السد الجديد سوف يتضمن نصب تأسيسات كهربائية مائية يكون فى وسعها توليد ١٥٠ مليون كيلو واط فى الساعة سنويا ، وسوف تستعمل هذه القوة للرى بالمضخات فى المناطق القريبة من مجنيزيا ، وفى منطقة أزمير الصناعية .

على ان المشاريع التى أنجزت والتى وضعت لها الخطط اللازمة حتى الآن فى حوض كديز اضطلع بها على انفراد ، دون أن ترسم الخطة لاستثمارها بصورة مترابطة ، ويشبه وضع كديز فى هذا الشأن جميع المشاريع الاستثمارية الأخرى فى تركيا . على ان كديز ينفرد عن الأنهر الأخرى بأنه أول حوض نهرى تبذل فيه الجهود الآن لوضع خطة استثمارية موحدة من جميع الوجوه ، وقد باشرت الشركة الأمريكية التى احتفظ بها للقيام بهذا العمل سنة ١٩٤٩ ، وهى تأمل أن تنتهى من وضع تقريرها أوائل سنة ١٩٥٠ [١] .

ويجرى نهر المندرس الكبير ، كما يجرى نهر كديز ، من الهضبة الغربية الى بحر ايجه ، مخترقا أراضى تنتج كثيرا من منتجات تركيا الزراعية ، وهو يمر كذلك بمركز صناعى هام هو مركز نازللى . والمنطقة بأجمعها فى حاجة الى حمايتها من الفيضان ، كما ان الرى والصرف سوف يزيد كثيرا فى المنافع التى تجنى من المنطقة . ويمكن أن تربط الامكانيات الكهربائية المائية فى وادى المندرس الكبير بامكانية نهر كديز ، وبذا تتكون شبكة مشتركة تخدم منطقة بحر ايجه .

والمشاريع التى يؤمل انجازها فى هذا الحوض لا تتناول نهر المندرس الكبير نفسه فقط ، بل تتناول أيضا روافده ، وهى كوفى تشاى ودندلاس وآق تشاى وتشين تشاى .

---

(١) انتهت شركة ناين ـ تيبت ابوتس الهندسية فى نيويورك من الأعمال التمهيدية ، وقدمت تقريرها الى الحكومة التركية فى ١٩٥٠ • ولاعتقاد الحكومة بأن هذا المشروع يستحق الترجيح والاولوية على غيره من المشاريع فانها أخذت تسعى للحصول على مساعدة من الخارج لتمويله .

وبدأ العمل فى هذا الحوض بصرف المناطق المجاورة لايتشكلى ، وتنشأ الآن الضفاف حول بحيرة ايتشكلى . وهناك سد على بعد عدة أميال فوق نازللى ، حيث يحول الماء الى جدولين فى جانبى النهر لرى سهل نازللى . وقد أنشأت مجموعة صغيرة من الأقنية فى أعالى النهر ، لارواء سهل دنزلى ، كما تنشأ الآن ضفاف واقية عبر سهل صوكاى حيث يتصل النهر بالبحر .

وتستهدف الحكومة التركية حماية هذا الحوض كله ، لكن بعض الأعمال الانشائية التى سبق ان أنجزت ليست سوى مشاريع منعزلة متفرقة . على ان الحكومة برهنت أخيرا على عزمها فى مسح الحوض بكامله ليكون وحدة استثمارية ، ومن أجل ذلك أجرى مسح تمهيدى لهذه الغاية.

مشاريع تركية أخرى

كانت أربعة حياض نهرية أخرى على الأقل موضع البحث فى دوائر الحكومة التركية ، ومع ان أى حوض نهرى من هذه الحياض لم يدرس دراسة علمية منظمة ، فان بعض المشاريع الجزئية تمت بأعمال انفرادية . وأنجز العمل فى بعضها لتصبح فيما بعد أجزاء من مشاريع استثمارية عامة . مثال ذلك حوض صو صورلو للصرف ، وهو الواقع جنوبى بحر مرمرة مباشرة ، ويحتوى على مياه بحيرتى مانياس واو لوباد وأنهر صو صورلو ونيلوفر وخوجة تشاى وكمال باشا مع روافدها . والحاجتان الرئيسيتان فى هذه المنطقة هما الصرف ومكافحة الفيضان ، وتمت بعض الأعمال لانشاء الضفاف والسدود على طول نهرى صوصورلو وكمال باشا ، وفيما حول بحيرة مانياس . ومع ان هذه المنطقة من المناطق التى يكثر فيها الرى فى تركيا ، فان بعض مشاريع الرى تمّ انجازها وتحققت فائدتها ، وبعضها الآخر رسمت الخطة لانشائه . ومن المأمول أيضا أن يتمّ ما يلزم لتوليد القوة ، وجعل الملاحة ممكنة فى القسم الأسفل من نهر صوصورلو .

ويجرى نهر قزل أيرمق ويشيل أيرمن من الهضبة الوسطى ، فيخترقان مضايق صخرية عبر حاجز بوتتيك الى البحر الأسود ، على جانبى ميناء سامسون الهام . وتكونت دلتاوات غنية فى مصبى هذين النهرين ، لكنها دلتاوات مرزغية تتعرض للفيضان . وسبق ان بدأ العمل فى منشآت صغيرة للصرف والرى فى هذه المنطقة ، لكن أعمالا أكثر من هذه يؤمل انجازها فى المستقبل . ثم ان امكانيات توليد القوة الكهربائية المائية صارت معروفة فى هذه المنطقة كذلك ، لكن الخطط المفصلة لم توضع لها بعد.

ويكون الفرات الأعلى وروافده فى الأناضول الشرقية أطول مجموعة نهرية فى تركيا ، اذ ينبع بين أعلى الجبال الموجودة فى البلاد ، ثم يهبط بسرعة الى سهول تركيا الجنوبية الغربية ومنخفضات سوريا . ومما لا شك فيه ان امكانيته لتوليد القوة الكهربائية المائية عظيمة ، لكنها بقيت غير مدروسة حتى الآن ، والمشاريع الوحيدة المضطلع بها فى العصر الحاضر هى المشاريع التى تساعد على الرى والصرف فى سهل أرزنجان .

الهضبة الايرانية

ليست قلة الماء التى تعانيها ايران ناشئة من الأحوال الجوية فقط ، بل من تكوينها الطبيعى كذلك . ففى ما بين ذراعى المساحة التى تشبه رقم ٧ ، وهما الذراعان اللذان تكونهما جبال البرز فى الشمال وسلسلة الزاغرور فى الغرب تقع الهضبة الايرانية التى يبلغ معدل ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم ، فوق مستوى سطح البحر . وتبدأ هذه الهضبة وعرة ، ثم تنبسط بالتدريج فتكوّن بادية عظيمة تؤلف ما يقرب من ربع مساحة البلاد . ويبلغ مقدار المطر السنوى فى منطقة البوادى أقل من خمس بوصات ، وهو يزيد فى معظم الهضبة على ١٢ بوصة ، وأكثر سقوطها فى أشهر الشتاء . على ان مناطق بحر قزوين الساحلية تغزر فيها الأمطار طول أيام السنة ، فيبلغ معدلها حوالى خمسين بوصة ، كما ان ايران الغربية يكثر فيها تساقط الثلوج والمطر خلال أشهر الشتاء . غير أن هذه الأمطار

المتكونة من جبهات جوية تتحرك من الجنوب الى الغرب تستهلك نفسها عادة ، لأنها تنضب عند الحواجز الجبلية العظيمة . وعلى هذه الشاكلة لا يقل المطر داخل ايران فحسب ، بل تعود معظم المياه فتجرى من الجبال الى مجموعات الصرف الخارجية ، ولا يمكن أن يستفاد منها الا فى رقعة صغيرة من ايران ،قبل أن تعبر الحدود أو الممرات الى البحار مباشرة . وهذا وضع لا يختلف عن الوضع الموجـود فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، حيث تعوّق سلسلتا جبال لبنان جريان معظم الريح الممتلىء بالرطوبة قبل أن يصل الى سوريا .

وقلة هطول الأمطار لا تعوض عنها الأنهر التى تجرى قادمة من خارج ايران ، حيث تجرى كميات من الماء الى الداخل فى مجار سطحية ترد من أفغانستان . ثم ان الأحوال الطبيعية لا تساعد كثيرا على الافادة من المياه الجوفية ، لأن معظم ايران — ما عدا زاويتها الجنوبية الغربية — يظلّ فيها مستوى الماء الجوفى واطئا ، بحيث لايسمح بضخ الماء بقوة الثيران من الآبار ، كما يجرى فى الهند ، أو فى وادى النيل . وبالنظر للصعوبات التى يتضمنها استيراد المكنات ، وتشغيلها وصيانتها فى بلاد غير متقدمة فى العمران ، فان عدد المضخات التى تشغلها المحركات لا يزال محدودا . غير ان براعة الفلاحين وخبرتهم أدت الى ابتداع القناة التى تزيد مساحة الأرض التى ترويها على المساحة المرواة بأية وسيلة أخرى . وتتألف القناة من اسطوانة أفقية مجوّفة تدفن فى قاعدة الجبل حتى تصل الى الطبقات الحاملة للماء الضحل ، فتنقل الماء بالجاذبية الأرضية الى أسفل ، حيث يستهلكه الناس والحيوانات للرى والسقى . ويعتمد الناس والزراع فى هذه المناطق من ايران اعتمادا تاما على مثل هذه القنوات ، مع العلم بأن عشرة بالمئة من المياه الجوفية فقط تستخرج بهذه الطريقة .

ومن الممكن أن يزداد تجهيز ايران المائى ازديادا جوهريا ، بانجاز مشاريع الماء الحديثة . والواضح ان توظيف المال لهذا الغرض ضرورة كبرى لأى تحسين فى مستويات الصحة الشخصية والصحة العامة ، ولتقدم

الزراعة التى تعد عمادا لاقتصاديات البلاد . ويتطلب خزن الماء السطحى ، فضلا عن استخراج الميـاه الجوفية على وجه أتم ، مصاريف جسيمة وتصميما مترابطا ، وفى بضع السنوات الأخيرة بدأ العمل فى التصميم لذلك كله بمساعدة فنيين أجانب ، وأخيرا وضعت الحكومة الايرانية «مشروع السنوات السبع للتعمير[1]» والغرض منه أن يزداد الانتاج ومقدار المنتوجات المصدرة ، مع انتاج ما يحتاجه السكان داخل البلاد ، واصلاح شأن الزراعة والصناعة ، واستغلال الموارد المعدنية وخاصة النفط ، وتنمية المواصلات ، وتحسين الصحة العامة ، والقيام بكل شيء ضرورى لتعمير البلاد ، ورفع مستوى المعيشة بين السكان ، وتقدم الرفاهية العـامة ، وخفض تكاليف المعيشة [2] . وخصصت الحكومة الايرانية من مجموع النفقات التى تبلغ ٢١ بليون ريال مبلغ ٦٥٠ مليون دولار بسعر التحويل الرسمى ، أى ٢٥٪ للزراعة ، وفى النية صرف ٨٪ ، أى ١٨٥٠ بليون ريالا على شؤون الرى وانشاء السدود .

ويبدو من المعلومات المتوفرة[3] ان مجموع معدل ما يتوفر من الماء سنويا فى ايران يزيد على ٤٥٠ بليون متر مكعب ، يضيع منه فى الوقت الحاضر بالتبخير والانسياح من الأنهر حوالى ثلاثة أرباعه . ولتحسين هذه الحال سوف يكون من الضرورى الافادة من الماء المضاع بالانسياح من الأنهر ، وفتح منابع جديدة باستخراج المياه الجوفية ، للحصول على كميات أوفى مما يجرى الآن بواسطة القنوات واعادة استعمال بعض المياه

---

(١) من الأحوط أن لا يؤكد كثيرا على عدد السنين المقرون باسم المشروع ، فبينما اعلن عن المشروع لأول مرة أوائل ١٩٤٧ ، حين اتخذ شكله القانونى باقراره فى البرلمان الايرانى فى ١٥ فبراير ١٩٤٩ ، ليس من العجيب أن يمتد هذا المجهود الواسع النطاق الى مدة أطول .

(٢) المصرف الملى الايرانى . النشرة رقم ٩٨ (فبراير – مارس ١٩٤٩) ، المجلد ١٦ ، ص ٢٨٠ .

(٣) يرغب المؤلفان فى الاعراب عن شكرهما للسفارة الايرانية فى واشنطن ، لسماحها لهما بالاستفادة من « تقرير عن مشروع السبع سنوات لمنظمة المشاريع التابعة لحكومة ايران الامبراطورية ، شركة مشـــاورى ما وراء البحار . » (نيويورك ١٩٤٩) .

التى تتسرب من مشاريع الرى الموجودة فى أماكن مرتفعة ، لرى الأراضى التى يقل ارتفاعها . ويؤمل بهذه الوسائل أن تسد الحاجة السنوية من الماء ، ومقدارها حوالى ٥٠٠ بليــون متر مكعب فى السنة . وسوف يستهلك مقدار ٩٧٪ من هذا المقدار للأغراض الزراعية ، والباقى ما تتطلبه المدن والمرافق الصناعية وقدره بليون متر مكعب ، كما ان حوالى ثمانية بلايين متر مكعب سوف تحفظ مستوى الماء الكافى للملاحة فى نهر قارون الذى يحمــل خارج ايران حــوالى ٢٤ بليون متر مكعب فى السنة . وتخصيص كميات عظيمة من موارد الماء للزراعة أمــر تبرره القابلية الانتاجية العظيمة التى يؤمل حصولها ، اذ تدل أوثق الاحصاءات المتيسرة على انه يوجد بالاضافة الى الأحد عشر مليون فدان من الأراضى المزروعة بالمحاصيل والتسعة والعشرين مليون فدان من الأراضى البور ، حوالى اثنين وثمانين مليون فدان أخرى قابلة للزراعة أيضا .

وفيما يلى نورد خلاصة عن أهم امكانيات تسخير موارد الماء الايرانية واستثمارها : كما وضعت فى مشروع السنوات السبع . وأول هذه الامكانيات يأتى من نهر قارون وهو أهم نهر فى ايران ، فى الجبال الممتدة غربى أصفهان . وفى مجراه الأسفل يتعرج قارون فى سهل خوزستان متجها نحو الجنوب ، ويجرى كله فى ايران ، لكنه يعد من الوجهة الجغرافية جزءا من مجموعة نهرى دجلة والفــرات اللذين يشاركهما فى منطقة مصبهما — أى شط العرب . ولا يستعمل قارون فى الوقت الحاضر استعمالا كافيا لرى السهول الرسوبية التى تهددها الفيضانات دوريا ، وأوصى مهندس بريطانى سنة ١٩٤٤ بانشاء سد واق بالقرب من ششتر ، حيث يخرج النهر من الجبال . وبذا يكون من المستطاع خزن كمية من الماء تقارب أربعة بلايين متر مكعب ، وسوف يقلل هذا الخزان من خطر الفيضان الذى يتعرض له سهل خوزستان ، بل سوف يؤدى كذلك الى تقليل المساحة التى تغمرها المياه الفائضة من نهرى دجلة والفرات سنويا ، بالتخلص من الصعوبات التى يسببها قــارون بتصريفــه غير المسيطر

عليه . وسوف تكون للسد امكانية لتوليد القوة الكهربائية المائية ، ومقدارها ثلاثين ألف كيلو واط . وهنــاك قيــد النظر الآن — بالاضافة الى هذا الخزان — عدة مشاريع لرى خوزستان . ومن الاقتراحات أيضا ان قسما من النهر يمكن تحويله الى منطقة المستنقعات فيما وراء الأهواز ، لترسيب غرينه واستعمال مياهه لتكوين أراض جديدة لزراعة الأرز [1] . ثم ان التقليل المقترح لجرى النهر سوف لا يؤثر على امكان الملاحة فيه ، كما ان كميات الغرين المترسب فى الدلتا العــراقية سوف تقل ، وهى الكميات التى يتحتم فى الوقت الحاضر ازالتها بأعمال الكرى الباهظة التكاليف .

وهناك فى طور الانشاء الذى سبقت الاشارة اليه فى ايران مشروع آخر ، وهو أصغر بكثير من سائر المشاريع الايرانية ، ويتناول بعض منابع قارون . ففى غرب أصفهان — على مسافة ٤٥ ميلا — توجد رابية ضيقة تقسم حوضين لتجمع المياه ، ويوجد فى غرب الرابية أحد منابع قارون ، كما يوجد فى شرقيها نهر زيانده رود الذى يضيع نفسه فى البادية الايرانية ، ولكن بعد ان يغمر بالمياه منطقة زراعية غنية تقع حول أصفهان . ويحفر الآن نفق يخترق هذا المسيل ، لتحويــل بعض مياه قارون لزيادة مياه زياندة رود . ومن شأن هذا المشروع أن يزيد فى أهمية المشاريع المعدة لحفظ مياه زياندة رود نفسه ، واستغلالها بوجه أحسن ، ولذا وصت الحكومة الايرانية باعطاء أرجحية فائقة فى ميزانية مشروع السنوات السبع للدراسات والاستقصاءات الممهدة لهذه الأعمال .

وفى ايران يضيع عدد من الأنهر الصغيرة هباء فى المستنقع والبحيرة المالحين الكائنين جنوبى طهــران ، وأكثر هذه الأنهار أهمية قــاراح وجاجيرود ، وهى التى تجرى من جبال البرز فى شمال طهران ، وهى برغم تصريفها المتواضع ذات أهمية للاستثمار المتعدد الأغراض ، بما فى ذلك تجهيز الماء الصالح للشرب والقوة الكهربائية للعاصمة الايرانية ،

---

(١) ورذنجتون : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

مع رى الأراضى الزراعية القريبة . وتغذى الثلوج نهر قاراج فى الربيع وأوائل الصيف ، ولذا يجرى فى الجهات العالية ذوات الجو الجاف وهو خال نسبيا من الغرين ، اذا قورن بمعظم الأنهر الايرانية ، كما ان هبوطه بمقدار ألف قدم تقريبا فى مسافة ستة عشر ميلا فقط يجعل توليد القوة شيئا ناجحا . وكان قازاج منـذ سنين يجهز طهران بمعظم مائهـا الذى يجرى حتى العصر الحـاضر فى مجرى مكشوف غير مبلط داخل العاصمة الايرانية . وبالاضافة الى عدم صلاحية هذه الطريقة ، يكون ماءقاراج غير كاف خلال قسم من السنة ، وسيبقى كذلك حتى يدبر أمر خزن المياه . أما نهر جاجيرود الأصفر فدراسته منتهية لتوليد القوة وزيادة التجهيزات المائية لرى سهل ڤرامين ، وهو بقعة تبلغ سعتها حوالى ربع مليون فدان من الأراضى المزروعة القيمة بالقرب من طهران . وترتبط هذه الامكانيات بمشاريع مماثلة على نهر لار الذى يتفجر على مقربة من جاجيرود ، لكنه يجرى الى بحر قزوين .

وتوجد تحت النظر عدة مشاريع أخرى للرى ، وهى تختص بمختلف أنحاء ايران ، ومنها حوضا نهرى كور ومند .

وادى دجلة والفرات

النصف الشرقى من الهلال الخصيب المعروف فى التاريخ واد عظيم واحد يرويه نهران هما دجلة والفرات،وفى مجراهما الطويل من تركيا الى الخليج الفارسى يكون هذان النهران مع الأراضى التى يخترقانها امكانيات زراعية هائلة ، بالقياس الى غيرها من امكانيات الشرق الأوسط كله . والنهران كلاهما ينبعان فى تركيا ، لكنهما تنصرف اليهما مياه قسم من سوريا ، وحدود ايران الغربية ، وجميع القسم المسكون من العراق . وبعد ان يجرى الفرات مسافة ٤٢٠ ميلا فى سوريا ، و ٧٥٠ ميلا فى العراق ، وبعد أن يجرى دجلة مسافة ٧٧٠ ميلا فى العراق ، يلتقى النهران آخيرا فى القرنة ، حيث يبدأ شط العرب الى الخليج الفارسى . وهما يخترقان

خلال قسم كبير من مجراهما مناطق من أشد مناطق العالم حرارة ، وأكثرها جفافا .

وهناك بلا شك مجال للافادة من هذين النهرين ، وخاصة الفرات ، فى تركيا للزراعة وتوليد القوة معا . على ان الخطط لاستثمار دجلة والفرات فى تركيا لم تتجاوز حتى الآن مرحلة البحث والتدقيق ، والحقيقة هى انه لا يعرف الا شيء قليل عن ذلك الجزء من مجرى هذين النهرين . وأى تنظيم أو خزن يجرى فى المستقبل لمياه النهرين فى تركيا ، ولمنابع روافد دجلة العظيمة الأربعة فى ايران ، سوف يؤثر تأثيرا خطيرا على مقدار المياه فى النهرين وجريهما فى الأقسام الوسطى والجنوبية منهما ، أى فى سوريا والعراق . وعلى هذا فان استغلال دجلة والفرات على الوجه الأتم يتطلب عقد اتفاقية دولية تمهيدية بين البلاد الأربعة التى يعنيها الأمر ، [1] على ان دراسة غير يسيرة أجريت فى الوقت نفسه حول امكانيات استثمار دجلة والفرات فى العراق وشمال شرق سوريا [2] ، وهو ما يتعلق بالبحث التالى .

ذلك أن السهل الرسوبى الذى يجرى فيه دجلة والفرات يشبه وادى النيل المصرى ، فهنا أيضا تكون الأمطار غير كافية للزراعة التى تعتمد على الرى من الأنهر منذ عصور ما قبل التاريخ ، وفى كلا الواديين يتذبذب التجهيز المائى بين الفصول . على انه توجد فروق هامة بين العراق ومصر ، لأن دجلة والفرات معا يحملان مقدارا من المياه يقل عما يحمله النيل ، وتتوفر مياههما فى وقت غير مناسب — أى وقت زرع المحاصيل الصيفية. وينشأ ذلك عن كون النيل ينبع من جبال استوائية فيتجه شمالا ، بينما يجرى النهران فى اتجاه جنوبى من أجواء معتدلة. يضاف الى ذلك انه يصعب رفع

---

(١) أشار السيد عبد الامير الازرى، معاون مدير الرى فى العراق فى ١٩٤٤، بأن أى استثمار زراعى واسع النطاق يجرى خارج العراق ، ويستمد الماء من الفرات خلال موسم هبوطه ، سوف يؤثر على مصالح البلاد تأثيرا خطيرا . انظر تقرير مركز تموين الشرق الأوسط المشار اليه سابقا ، ص ١٨٠ .

(٢) محافظة الجزيرة والقسم الشرقى من محافظة الفرات .

مستوى الماء بسدات فى أراضى ما بين النهرين المنبسطة أكثر مما يصعب فى وادى النيــل الضيق . ونتج عن ذلك أن الرى فى السهل الرسوبى العراقى اعتمد فى السنوات الماضية على رفع المياه الى أعلى بالمضخات ، كما ان مشاريع منع الفيضان الجديدة تستند أحيانا على الاستفادة من المضخات الموجودة بقرب الأنهر . وبينما أدت قلة الأراضى القابلة للزراعة فى مصر فضلا عن احتشاد السكان أن تصبح الزراعة كثيفة سنة بعد أخرى فان المقدار العظيم من الأراضى القابلة للزراعة فى العراق ، ونسبة السكان الى الأرض .. انعكس تأثيرهما فى شيوع الزراعة المتسعة حتى فى الأراضى المعتمدة على الرى . ولذا تفشت الملوحة فى مساحات واسعة من الأرض بالقرب من الأنهر ، لانعدام وجود الصرف (البزل) وأضحت هذه الأراضى بائرة [1] تماما .

وعلى الرغم من هذا يمتلك العراق أعظم احتياطى من القابلية الانتاجية فى الزراعة فى الشرق الأوسط ، لأن حوالى ثلاثين مليون دونم (فدان) من أراضى العراق فيها قابلية كامنة للزراعة . ومن مجموع الأراضى فيه يوجــد ١٩٫٨ مليون دونم فى منطقة الرى ، ولا يزرع من هذه المساحة الآن الا سبعة ملايين دونم ، كما ان ٤٫٣ ملايين دونم فقط تزرع بالفعل فى كل مرة [2] . ومن المعروف ان مليونى فدان فى سوريا يمكن أن تخضع للزراعة اذا استعملت مياه الفرات وروافده استعمالا مناسبا [3] . وتدل هذه الأرقام على أقصى حد من امكانية الأراضى المحيطة بدجلة والفرات، وأما المقدار الذى يمكن الاستفادة منه عمليا ، فسوف يكون أقل بالنظر

---

(١) راجع ويرنر : المرجع السابق ، ص ١٠٢ ، وكذلك وردنجتون : المرجع السابق ، ص ٤٨ــ٥٠ . انظر أيضــا ما كتبه فرانك م . ايتون بعنوان « زراعة الرى على طول النيل والفرات » فى مجـلة سـاينتيفيك أمريكان ، مجلد ٥٩ (١٩٤٩) ، ص٣٤ ـ ٤٢ .

(٢) ويرنر : المرجع السابق ، ص ٩٩ــ١٠٠ . وهناك بالاضافة الى ذلك عشرة ملايين دونم فى العراق من الأراضى التى تسقيها مياه الأمطار لا يزرع منها فى الوقت الحاضر غير مليون ونصف فقط .

(٣) تقرير الولايات المتحـدة ـالبعثة الزراعيةالى سوريا . (واشنطن، سنة ١٩٤٧ ص ١٣) .

لعدم وجود الماء . غير ان الوصول الى هذه الأهداف يتطلب أعمالا متسعة ، للخزن والصرف ومكافحة الفيضان والرى .

ويجرى الفرات فى سوريا خلال واد متسع يسمح بتحقيق امكانيات الرى الواسعةالنطاق كما يسمح بذلك نهر الخابور وهو الرافد الأكبر للفرات. واذا لم تتهيأ وسائل الخزن لهذه المياه ، فان تحويلها فى سوريا سوف يتعارض مع استعمالها فى العراق . وعلى هذا فان أحد مشاريع الفرات الذى يمكن تحقيقه فى سوريا هو انشاء سد وخزان فى يوسف باشا ، حيث يمكن أن يخزن حوالى مليون ونصف متر مكعب من الماء لارواء ٣٠٠٠٠٠ هكتار تقريبا ، وسوف يجهز الخزان أيضا مقدار ٣٠٠٠٠ كيلو واط على الأقل لتوليد القوة الكهربائية . وهناك مشروع آخر لرى الجزيرة ، باستغلال الخابور استغلالا أكثر فائدة مما هو حاصل فى العصر الحاضر .

وفى العراق تؤخذ معظم مياه الفرات الآن للرى من فوق سدة الهندية، حيث يتغيَّر قاع النهر بسبب الترسيب ، وتحدث الفيضانات سنويا بصورة منتظمة . وفى هذا القسم من البلاد تخدم الفيضانات غرض رى الحياض ، لكن هذه المنطقة وسائر المناطق تحدث الفيضانات فيها أضرار بالمزروعات ، حتى انها تهدد بغداد بالخطر . وأكبر عمل انشائى وضع للفرات فى العراق هو مشروع الحبانية الذى بدأ العمل فيه قبل الحرب العالمية الأولى ، لكنه بقى معلقا مدة تزيد على العشرين سنة ، وهو مشروع لمكافحة الفيضان . والمشروع يعتمد على الاستفادة من بحيرة الحبانية التى هى عبارة عن منخفض فى البادية ، بالقرب من ضفة النهر اليمنى غربى بغداد . وسوف يشمل هذا المشروع عند انتهاء العمل فيه على سد للتحويل يقام على الفرات ، وعلى جدول ينقل الماء الى البحيرة ليخرج منها الى منخفضين جنوبى الحبانية ، حيث يمكن خزن كميات أخرى من الماء فيهما . وستكون سعة الخزن فى الحبانية بعد أن يتم انشاء الخزان حوالى ثلاثة بلايين متر مكعب ،

وسوف يساعد هذا الخزان على ضبط فيضانات الفرات ، وتوسيع رقعة الرى الى مليون ونصف دونم أخرى ، مع اضافة مياه الفرات فى موسم الجرى الواطىء .

ومنابع مياه دجلة أعلى من منابع مياه الفرات ، كما ان الأمطار الهاطلة عند منابعه تتحدر انحدارا أكثر . ولدجلة بالاضافة الى ذلك أربعةروافد كبيرة فى العراق ، وهى تجرى بانحدار كبير الى واديه . وعلى هذا فان فيضانات دجلة أكثر خطورة وأصعب تكهنا بها من فيضانات الفرات ، وهى بذلك تهدد بغداد على الدوام . على انه من حسن الحظ أن تكون معظم روافد دجلة داخل العراق ، مما يؤدى الى توفر فرص أحسن للسيطرة التامة على مياه دجلة فى مرحلة أبكر ، بانشاء مشاريع تقع فى بلاد واحدة ، هى العراق . وهناك الآن على دجلة سدة كبيرة واحدة هى سدة الكوت التى أنشئت أسفل النـهر سنة ١٩٣٩ ، وهى ترفع مستوى الماء بحيث تسمح بارواء مساحة كبيرة من الأرض . ومجرى دجلة فى أسفل الكوت، مثل الفرات فى أسفل الهندية ، كلاهما غير مستقر وغير قابل للتحديد دائما.

ثم ان أهم مشروع لضبط الفيضان على دجلة ، وهو مشروع وادى الثرثار ، يشبه مشروع الحبانية على الفرات ، ولكن مقياس أوسـع بكثير . ذلك أن وادى الثرثار يمتـد بموازاة دجلة من الغرب ، ويجرى فيه الماء خلال مدة قصيرة من السنة ، بمنخفض طويل يمكن أن يستعمل خزانا طبيعيا يحتفظ بمياه فيضان دجلة ويعيـدها الى النهر فى أوقات هبوط مستوى الماء فيه . ويتطلب هذا المشروع انشاء سد لتحويل المياه الى النهر ، وحفر جدولين ينقل أحدهما المياه الى الوادى ويعيدها الثانى الى النهر . ومثل هذا الترتيب سوف يسمح بتوليد القوة الكهربائية المائية ، وتوسيع المساحة المزروعة فى جوار المشروع . وبحفر مخرج الى الفرات يمكن أن يستعمل خزان الثرثار لتزويد كل من دجلة والفرات بالماء فى أوقات هبوط مستوى الماء فيهما .

وللسيطرة على مياه دجلة ، ولزيادة سعة خزن المياه ، وضعت الخطط لانشاء سدود للخزن فى أعالى دجلة وروافده ، مثل نهر ديالى . وبذا سوف

يؤدى انشاء سد ديالى الى تخفيف الضغط على جريان دجلة بالقرب من بغداد ، وانقاذ وادى ديالى نفسه من شر الفيضان ، كما ان ذلك سوف يسمح بتوسيع رقعة الزراعة على طول ديالى وباقامة مكائن لتوليد قوة مقدارها ٣٠٠٠٠ كيلو واط ، على مسافة ٦٥ ميلا من بغداد .

ومما ينظر فيه من المشروعات أيضا سد الفتحة على دجلة ، على مسافة ٦٥ ميلا شمالى سامرا . وسوف يتكون من ذلك خزان يشبه فى سعته خزان الثرثار فضلا عن سد نجمة على الزاب الكبير ، وسد دمير على نهر العظيم ، وسد دوكان على الزاب الصغير . والهدف الرئيسى لهذه المشاريع فى مجموعة نهر دجلة هو ضبط الفيضان ، لكن قابلية الخزن التى تنشأ عنها ، وجداول الرى التى يؤمــل فتحها ، سوف تساعد على وضع مساحات كبيرة من امكانيات العراق الزراعية موضع الاستعمال ، كما ان الاستغلال للماء فى هذه المساحات يتوقف أيضا بطبيعة الحال على انشاء المبازل الكافية لازالة الملوحة فى قسم كبير من أراضى العراق الرسوبية ، ويساعد على نشوء نظام زراعة الرى المتسعة الخاصة به .

ولو ألقينا نظرة على خارطة دجلة ومشاريع الاستثمار التى يؤمل تحقيقها على روافده ، وعلى النهر نفسه ، نجد أوجه شبه مدهشة بنهر التنسى ووسائل تنظيمه . والواقع أن ضبط دجلة والفرات المجاور له على الوجه الأتم سيــولد انقلابا فى حياة المنطقة لا يقل عما حــدث بفضل مشروع وادى التنسى فى المنطقة التى يجرى فيها . ويصح الشىء نفسه لسائر مشاريع الاستثمار المائى المتعددة الأغراض التى أشرنا اليها هنا ، وبفضل المناهج لاستغلال الماء والأرض والمحافظة عليهما يستطيع الشرق الأوسط أن يتقدم نحو تحقيق امكانياته الاقتصادية ، وتأمين مستوى كاف من العيش لسكانه . وسوف لا تزول الموانع المتنوعة التى تقف فى سبيل هذه المناهج بسهولة ، وربما يستغرق انجاز الكثير منها عقودا من السنين ، غير ان خطوات أولى بطيئة يمكن أن تتخذ الآن ، لتحقيقها بالدراسة الكافية والوسائل العلمية المتواضعة .

جعفر خياط

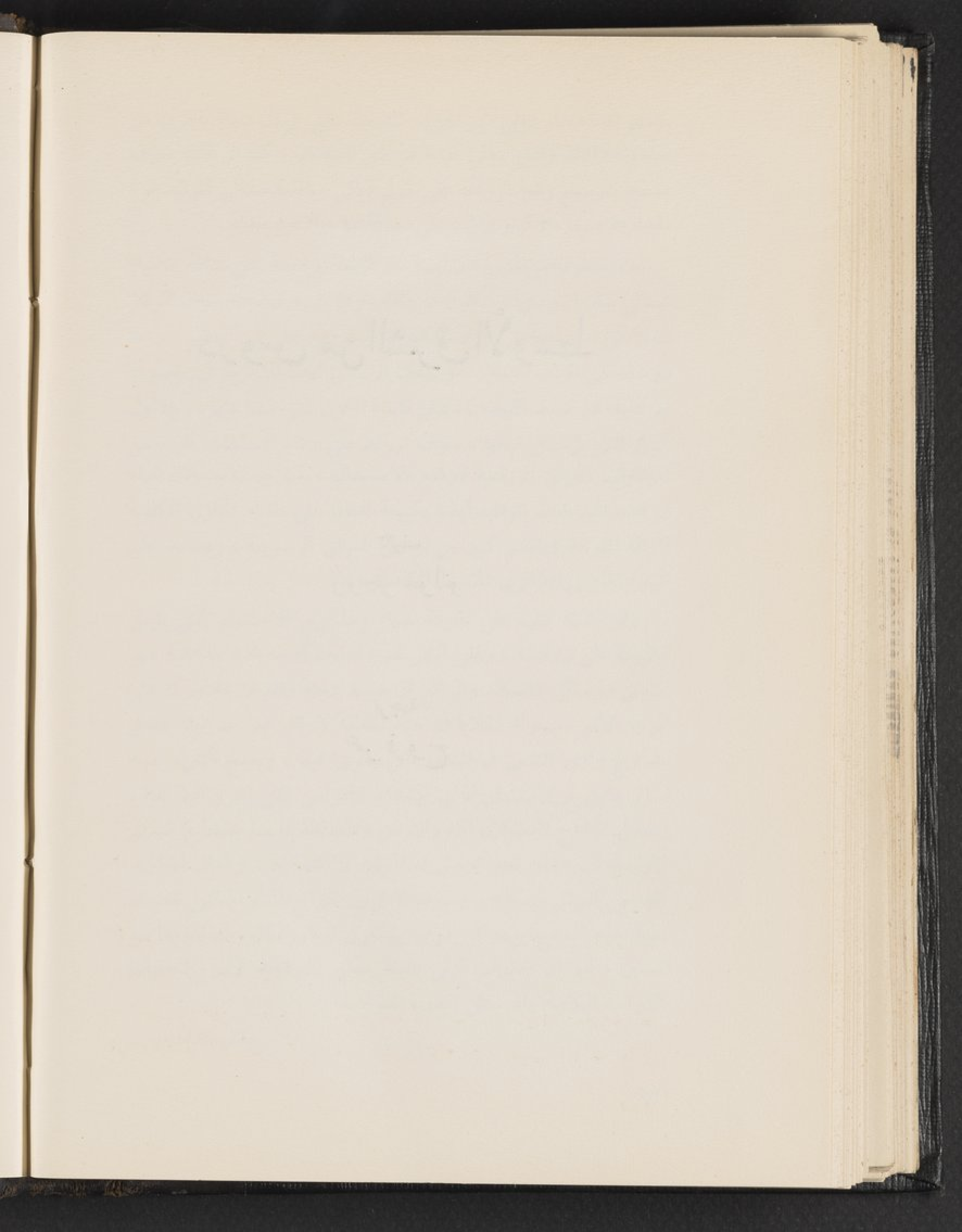
دروس من الشرق الأوسط

تاليف

روجر سولتو

ترجمة

عمر فروخ



يجب فى المقام الأول أن نعرف مدلول اسم الشرق الأوسط ، واننى فى هذا المقال أحصر كلامى فى البلاد التى تتكلم اللغة العربية ، وتطل على الشاطىء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، أى البلاد التى كانت جـزءا من الامبراطورية العثمانية : سورية ولبنان وفلسطين والعراق ، والتى أصبحت بعد الحـرب العالمية الأولى تحت الانتداب ، ولم تحرمها أحوالها السياسية أن تظل متحدة فى النـواحى الاجتماعية والثقافية . وانى لا أزال بعد نحو عشر سنين من الاختبار فى التـدريس بين طلاب تلك البلاد أسأل نفسى فى دهشة عما اذا كان ما تعلمته أنا لم يكن أكثر مما علمته .وانى لأعتقد أن هـذه الدروس التى تعلمتها تستـحق أن يشاركنى فيها زملائى ، من الباحثين فى التاريخ والسياسة فى الغرب .

ان أول ما يسترعى انتبـاهنا فى هذا المقام ان ما نسميه شرقيا أو نعده كذلك ، لا يمثل الخصائص الشرقية المعـروفة فى التطور الاجتـماعى والثقافى العام ، وهو التطور الذى تشترك فيه معظم الحضارات . ويبلغ هذا التطور فى الشرق ، على وجه التقريب ، ما بلغه الغرب فى أعقاب العصور الوسطى، مع مظاهر أخر تذكرنا من ناحية ببدء الثورة الصناعية ، وتعيد الى ذاكرتنا من ناحية ثانية عصر النهضة الأوربية .

فهل معنى هذا اذن أن الشرق الأوسط متخلف خمسة قرون عن الغرب ، أم أن الغرب متقدم عليه هذا العدد من القرون ؟ على أن الفصل فى هذا الأمر ليس سهلا أبدا ، وينبغى أن نعود بذاكرتنا أولا الى القرون الأولى من العصر المسيحى ، حينما كان الشرق الأوسط جزءا أساسيا من الامبراطورية الرومانيـة ، ويتمتع فى ظلها بجميع ما أضفته الحضارة اليونانية الرومانية على أجزاء تلك الامبراطورية سواء بسواء .

على أن تقهقر الحضارة ، وهو من دلائل ما نسميه سقوط الامبراطورية الرومانية ، كان أخف تأثيرا على الشرق منه على الغرب ، ولذا ظلت

بيزنطة ترى نفسها صاحبـة الحق فى المجد الرومانى ، وكادت أن تؤسس سلطانها فى جميع المقاطعات التى انبسط عليها سلطان روما من قبـل . ولكن خيبة جستنيان وما تلاها من تقويض للحكم البزنطى فى المشرق على أيدى العـرب ، من غير أن يستتبع ذلك تقهقر الثقافة أو الاقتصاد فيه ، أدى الى بزوغ حضارة اسلامية شقت طريقها فى عرض افـريقية الى الأندلس ، حيث بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها ، على حين كان الغرب فى أحلك أيامه ، فى القرن التـاسع والقرن العاشر والقرن الحادى عشر للميلاد . ولو أن عربيا معاصرا لشارلمان أو لألفريد الكبير أو لوليم الفاتح نظر الى الأوربيين — هذا اذا رأى أنهم خليقون بنظرة اليهم — لألفاهم شعوبا فطرية تجهل فن البناء والنظافة الصحية ، وتجهل الطب والفلسفة ، وكل شيء يجعل هـذه الحياة خليقة باسمها . كان اولئك الأوربيـون يسكنون أراضى باردة رطبة قاحلة ، ويعيشون عيشة تجعل كل تقدم صحيح مستحيلا ، وتقضى بأن يظل أولئك الأقوام أبدا على مستوى أدنى من المستوى الذى تتمتع به الشعوب التى ورثت نعمة الشمس المشرقة وثقافة المشرق .

أما الآن فانقلبت الآية . فالرجل الغـربى هو الذى يزدرى اليوم انخفاض المستوى للحياة الشرقية ، ويأسف لحال العامل الشرقى ، ولما يتناوله من أجر ضئيل ، ولما هو فيه من حياة تاعسة . ولكنه يعود فيقول : ماذا ننتظر من بلاد ينـدر فيها سقوط الأمطار ، وتمحل الأرض فيهـا امحالا شديدا ؟ ان مثل هذه الأحوال تجعل كل تقدم صحيح مستحيلا ، ثم هى تقضى على الشعوب التى تسكن تلك البلاد بأن تكون أبدا متأخرة وراء الأمم الراقية الموهوبة التى تتمتع بالجوّ المعتدل .

ونحن لا نحتاج الى أن نؤكد الجانب السطحى من هذا المنطق ، سواء أكان مبنيا على الجوّ أو على الخصائص والعادات الموروثة . وليس ثمة من ينكر أثر الجوّ فى الحضارة ، وان مما لا ريب فيه أن الرومان والعرب الأولين أفـادوا من مصادر للرى جفت الآن ، وأدى جفافها

الى محل أراضى كانت من قبل خصبة ، لأن وجود خرائب لمدن كبيرة مثل جرش وتدمر فى وسط ما نسميه اليوم صحراء ، دليل على ما نذهب اليه . ولكن أثر الجو يغفل عن قدرة الانسان على مقاومة عوامل بيئته ، اذ أنه يتجاهل مظاهر كثارا ، مثل تحول الطرق التجارية ، والعثور على مصادر جديدة للمواد الخام ، وفتح الأسواق الجديدة ، واختراع الوسائل الحديثة للانتاج والنقل . وبكلمة أخرى ، لم يكن ثمة عامل دائم فى تأخر الغرب فى العصور الوسطى ، ولا فى عظمة الشرق فى تلك العصور نفسها . كما أنه ليس ثمة ضرورة تقضى بأن يظل الشرق الحديث متأخرا ، أو أن يبقى الغرب عظيما كما هو اليوم . ان ما كان مرحلة فى حياة أحدهما يمكن أن يكون فى حياة الآخر أيضا مرحلة فقط .

ومن الحقائق الثابتة ، على كل حال ، أن الازدهار العظيم للحضارة العربية تبعه أولا تقهقر فجائى سريع ، ثم تلا ذلك أيضا قرون من الانعزال والركود الجزئى من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية ، فى وقت كان الغرب فيه يمد آفاقه مدا سريعا لا يكاد يقف عند حد . أما سؤالنا هنا فهو : لماذا حدث ذلك ، وكيف حدث ؟ والأجوبة عليه من التاريخ لا تزال ضئيلة وغامضة الى حد يدعو الى خيبة الأمل .

أما أحد هذه الأجوبة فهو بلا شك ، أن الحضارة العربية لم تتقهقر فحسب ، بل تقوضت على أثر غزوات المغول والفتح العثمانى . ومع أن المغول والأتراك اعتنقوا الاسلام ، فحرصوا من أجل ذلك على أن يظل عدد من المظاهر الاسلامية نابضا بالحياة ، فانهم أساءوا فهم الأحوال السياسية والاقتصادية التى قامت عليها الثقافة العربية اساءة تامة . مثال ذلك أنهم أقاموا تقسيمات سياسية خلقت حواجز اقتصادية مصطنعة ، فعطلوا بذلك حركة التجارة . ثم انهم أثقلوا كواهل رعاياهم بالضرائب الباهظة ، حتى أن مدنا بأسرها حل بها الخراب ، بعد أن عجزت عن دفع الضرائب . أما احتكار القمح وسواه من الحاجيات فانه رفع مستوى الأسعار ، وترك الشعب فى فقر مدقع ؛ ثم ان الحروب والدمار والأوبئة لم تنقطع قط .

غير أن هذ كله صحيح فى ما يدل عليه فقط ، ولكنه لا يكاد يفى فى تعليل القضية من جميع نواحيها . وعلى الرغم من بحوث الاستاذ توينبى الرائعة ، فان المشكل المتعلق بالاسباب التى تؤدى الى تقهقر الدول والحضارات ، ثم الى سقوطها ، لا يزال ميدانا بكرا ينتظر مؤرخى الغد . ما السبب فى أن المجتمعات المختلفة يجرى تطورها حسب درجات مختلفة من السرعة ؟ لماذا وقف نمو الصين فجأة بعد قرون عديدة من التقدم ؟ لماذا استطاعت اليـابان أن ترقى بمثل هذه السرعة بعد قرون كثيرة من التأخر الاقتصادى ، وكيف تم لها ذلك ؟ ما الأسباب الحقيقية لتقهقر الرومان ، ولانتكاس أوربا فى عصورها المظلمة ؟ أفيجب علينا أن نفسح فى هـذا كله مجالا لعنصر الاتفاق ، على ما يرى هنرى پار فى كتابه الذى عنوانه التأليف فى التـاريخ ، كما نفسح مجالا لعنصر الشخصية الانسانية التى تقتحم المناسبات ثم تحول مجراها بتلك القوة الخفية التى هى قوة الفرد ذى الفطرة الفائقة ؟

أما الآن فيجب علينا أن نعود أدراجنا قليلا الى النقطة الأساسية ، أى الى الشبه بين المظاهر الرئيسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية العربية وبين المظاهر التى وضحت فى العصور الوسطى فى الغـرب الأوربى . ما الخصائص التى كانت لحضارتنا نحن فى العصور الوسطى ؟ ان أولى الخصائص الأوربية بلا ريب هو تمازج المجتمع الدينى بالمجتمع المدنى الى حد كان يصعب فيه تمييز أحدهما من الآخـر . ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية أشرفت وقتذاك على جميع ميادين الحياة التى تشرف اليوم عليها الدولة : المستشفيات ، والاسعاف ، والتعليم ، واستقبال المسافرين. أما المحاكم الكنسية ، فكانت تفصل فى الزواج والوصية والارث والربا ، والزندقة . وكان الانتماء الى الكنيسة أمرا لا مفر منه من يوم الولادة ؛ ثم ان الحرمان من الكنيسة كان موتا معنويا ، ان لم نقل موتا طبيعيا . بعبارة أخرى لم يعرف الناس فى العصور الوسطى (فى الغرب) شيئا من المدرك المدنى للمجتمع .

ان هذا الوصف يمكن أن ينطبق انطباقا كليا على الأحوال الحاضرة فى العالم العربى ، اذ الفـرد فى العالم العربى اليوم جزء غير منفصل سياسيا واجتماعيا من الجماعة الدينية التى ولد فيها . ثم أن لكل مذهب مثلا تشريعه الخاص بالطلاق ، والارث ، وسائر الأحوال الشخصية . والدولة تعترف بهـذه الأنواع من التشريع ، وتقرها فى محاكمها اذا دعت الى ذلك ضرورة [1] .وكذلك الانتخاب فى العالم العربى يجرى على الأسس الطائفية ، والنواب عموما موزعون بالنسبة الى القوة العددية للطوائف [2] ، وكل انسان يذهب الى الاقتراع على أنه فـرد من طائفة معينة .

ومراكز الدولة أيضا موزعة بين الطوائف بنسبة عددها ، بصرف النظر عن الكفاءات التى يتمتع بها أصحابها . والاديرة لا تزال تستقبل المسافرين، وجميع المـدارس تخص عمليا هـذه الطائفة أو تلك ، حتى ان اشراف الحكومة على المدارس التى تسمى مؤسسات رسمية يبلغ حدا لا يحلم به أشد المتعصبين فى الغرب [3] . فلو أن رجلا كاثوليكيا من أهل العصور الوسطى بعث اليوم فى العالم العربى ، لألف الحياة فى مجتمعاته الفة تامة. وفى الحق ، ان الاسلام كما يذكر الأستاذ جب فى كتابه الذى عنوانه الى أين يتطوّر الاسلام ؟ ، مجتمع متكامل مبنى على أساس دينى يشمل جميع مظاهر الحياة الانسانية ، وان الذين عاشوا فى العصور الوسطى كان بامكانهم أن يفهموا ذلك ، بل فهموه فهما تاما ، وهـا نحن أولاء اليوم نعالج مجتمعا لا يزال قلبه ينبض بهذه المدارك الموروثة من العصور الوسطى . ومن هذه المدارك ان الانشقاق بين الاسلام والنصرانية كان

---

(١) تقدم الينا مرة اقتراح بأن الحل الوحيد لمشلكة الطلاق ، والذى يمكن أن ينال رضا الناس هو أن يتقيد الزوجان بقوانين الكنيسـة (اى المذهب الدينى) التى عقدت زواجهما . على أن ما يبدو فكرة مثالية فى هـذا الاقتراح هو القاعدة المتبعة فى العالم العربى .

(٢) يقدم الكاتب على ذلك مثالا نواب بيروت وتوزيعهم الطائفى ، ولكن هذا التوزيع تبدل الآن .

(٣) هذه الأحكام ربما تصدق على الجمهورية اللبنانية وحدها .

فى العصور الوسطى أقل كثيرا مما صار اليـه فيما بعد ، فمـن أسباب ذلك أن المجتمعين كليهما كانا يقـومان على أسس تكاد تكون واحدة ، والآراءالسائدة كانت تتـجه تقريبا اتجـاها واحـدا . ولقـد كان لهما كليهما ، والى حد بعيد أيضا ، استشراف الهى واحد لهذا العالم . أجل ربما كانا عدوين ، ولكن كل واحد منهما عرف على الأقل خصمه ، وكانا كلاهما يتحاربان بوسائل روحية ومادية واحدة . ثم أن الأستاذجب يخطو بمناقشته هذه خطوة واسعة حينما ينبه على أن الاسلام انتشر من قلب جزيرة العـرب الى العالم الهلنستى وارث الحضـارة اليونانيـة والرومانية ، وان معظم فتوحاته كانت فى ذلك العالم . وهكذا تسربت الثقافة اليونانية الى الحياة العقلية فى الاسلام شيئا فشيئا ، حتى أن علم الالهيات فيه مدين لأرسطو . وهكذا نشأت جميع الثقافة الاسلامية فى أساسها غربية المنزع ، وهى من أجل ذلك أقرب الينا من ثقافات الهند والشرق الأقصى . واذا نحن سميناها شرقية فانما نكون أخطأنا التسمية ، لأنها ليست شرقية باطلاق ، ولكنها شرقية فى امتدادها المحلى ، أى أنها الفرع الشرقى للحضارة الغربية .

أما ما سبق قوله فى الصلة بين الفرد والكنيسة ، فليس فى الحقيقة الا مظهرا واحدا من مشكلة أوسع نطاقا ، وهى صلة الفـرد بالمجتمع عموما. وفى الحق انه من الصعب أن تتكلم عن الفرد فى العصور الوسطى، فان الانسان فى تلك العصور لم يوجد الا مضافا الى جماعة صغيرة : من اقطاع ، أو نقابة ، أو كهنوت ، أى من جماعة تملى عليه حياته اليومية، وتكون له مرة سجنا ومرة ملجأ . وهذا نفسه يصدق على الفرد العربى (اليوم) ، الا أن جماعته يغلب عليها أن تكون اجتماعية لا اقتصادية ، وهى القرية حينا والاسرة دائما . هنـالك مثـلا التملك للعقار باسم الاسرة ، وهنالك الاتفـاق بين الاسرة على زواج الأفراد منها ، وهنالك الحياة الجماعية للاسرة فى منزل واحد ، وهنالك رقابة الاسرة على الفتاه ، وهنا لك نفـوذ الاسرة فى السياسة ، وفى كل ما يتصل بالسير فى طريق

الحياة فى هذا العالم . وليس ثمة مدرج من مدارج الحياة يستطيع الفرد العربى أن ينفلت فيه مما هو معروف باسم تضامن الاسرة ، وهو أحد العوامل التى تشل الحياة الشرقية .

وهنا لك ، بكل تأكيد ، جانب آخر لهذا التضامن فى الاسرة . فاذا كانت الاسرة الشرقية اليوم — كما كانت الجماعة فى العصور الوسطى — سجنا فانها تكون وسيلة من وسائل الغوث فى أيام العسف الاجتماعى، أو أيام الضيق الاقتصادى . الواقع أن الأسرة تجترح المعجزات فى ميدان الوفاء والتضحية ، فترسل الشاب النابه (الفقير) من أفرادها الى الجامعات، أو تدفع عنه أسوأ كوارث البطالة والمرض . والتضامن فى الاسرة هو أحد العوامل التى تتيح للعمال أن يعيشوا فى مجتمع اقتصادى عيشة طيبة ، ولو كان ذلك المجتمع لا يزال فى دور التطور . ويندر جدا أن يترك فرد فى مثل المجتمع فى الشرق يصارع الحياة وحده ، وفى هذه الحقيقة يجب أن نبحث عن سبب المقاومة التى يبديها كل شعب اذا أظلته الأزمات ، وفى ذلك الشعور من الاعتزاز بالاسرة والتضامن فيها يكمن العلاج الرئيسى لكل قنوط [١] .

وفى التعليم أيضا لا نرى أن الشرق الأوسط تقدم الى ما فوق الطور الذى بلغه الغرب فى العصور الوسطى . ان التعليم الذى قامت عليه الكنيسة فى تلك العصور جعل غايته تخريج القسس ، واعداد طبقة محدودة من الموظفين . أما التعليم العام فلم يكن من الناحية العلمية موجودا ، ولذا كان المرء فى العصور الوسطى اما أميا تماما . أو ملما بمبادىء من التعليم الذى لا بأس به . وهذا نفسه يصدق اليوم على بعض مناطق العالم العربى، بل يصدق على كثير منها لسوء الحظ . هنالك عدد كبير من المدارس الثانوية ، وبقدر ما تستطيع البلاد أن تتحمل على الأرجح ، لامداد البلاد بالأطباء والمحامين والموظفين الرسميين . على أن العالم

---

(١) من تقرير رفعه المندوب السامى الفرنسى فى سورية ولبنان ، عام ١٩٣٤ الى لجنة الانتدابات .

العربى ينقصه الرجال الفنيون والصناع البارعون ، أما الأمية فانها واسعة الانتشار ، ونسبتها تختلف ما بين ٤٠٪ وبين ٩٥٪ باختلاف البلاد ، وباختلاف الجنس ما بين ذكور واناث .

غير أنه أتيح لنا — فى ما يتعلق بذلك — أن نصحح ظن كثيرين من الغربيين . اننا نحن الغربيين نفهم الأمية على أنها مستوى من الجهل قريب من العجز العقلى ، وهذا يصدق على عدد من الأميين فى الغرب ، ولكنه لا يصدق على البلاد التى تكون الأمية فيها نتيجة لفقدان الفرصة المتاحة أمام الناس لتحصيل العلم . ولو أن أحدا قضى وقتا قصيرا فى مجتمع تنتشر فيه الأمية انتشارا لا يرجع الى تقصير السكان أنفسهم ، لرأى بعينيه الى أى حد تستطيع الحياة والاحتكاك بالرجال وبالحوادث أن يعلما بلا كتب ، وهذا اذا كان الذكاء الفطرى والرغبة فى العلم موجودين. ومن الحق أن نقول ان أحدنا ليعجب اذا لم ير — فى مثل هذه الحال — عددا من الأميين يبلغون من المقدرة على التفكير الشخصى أكبر من المقدرة التى يبلغ اليها أولئك الذين يحتاجون الى ورقة مكتوبة ترسم لهم فيها كيف يجب أن يفكروا ، لا فى السياسة فحسب ، بل فى الفن أيضا ، وفى الأدب ، وفى الفلسفة ، وفى الدين . وكذلك لا يجوز أن ننسى أهمية الكتب فى مجتمع تغلب فيه الأمية ، لأن الكتب فى مثل هذا المجتمع لا تقدر حق قدرها فقط ، بل تدور أيضا بين الناس ، ثم تصبح شبه مراكز ينجذب اليها القراء والسامعون . وفى مثل هذا المجتمع يصبح الفرد الذى يعرف القراءة ناشرا للآراء وللتسلية ، ومن المشاهد المألوفة فى الشرق الأوسط جماعات من الناس يصغون فى ساحات المقاهى الى شخص يقرأ لهم بصوت مرتفع . ولقد كان قرب بيتنا فران يقرأ لجيرانه قصصا تاريخية.

وينبغى أن نذكر هنا أن تغييرات كبيرة ، لا تقل فى ناحيتها الثقافية عنها فى ناحيتها السياسية ، حدثت عندنا فى غرب أوربا أثناء انتشار الأمية ؟ ما عدد الذين كانوا يقرأون ويكتبون فى أوربا أيام الاصلاح الدينى ، أو زمن الحروب الأهلية فى انجلترا ، أو قبيل الثورة الكبرى فى فرنسا ؟

أجل ، انه ليس لدينا احصاءات لذلك فى تلك الأعصر، ولكننا نعلم يقينا أن الأميين فى فرنسا فى عام ١٨٣٠ كانوا ثلاثة أخماس السكان ، أما فى انجلترا فكان عدد الأميين فى عام ١٨٤٠ خمسى السكان ، أى ثلث الرجال ونصف النساء . ونحن آخر من يبخس الكتب والجرائد والمدارس قيمتها ، ولكن يجب ألا نمزج بين التعليم الصحيح وبين قراءة الكتب أو الشهادات الجامعية .

ثم هنالك مقارنات أشد غرابة تبدو لنا ، اذا نحن انتقلنا من ميدان الاجتماع الى ميدان الاقتصاد . ما الخاصة الأساسية التى كانت للحياة الاقتصادية فى العصور الوسطى ؟ انها الفقر بلا ريب ! ولكن هذا لا يصدق على العصور الوسطى وحدها . ومثال ذلك أن المؤرخين وصفوا الفساد الذى نتج من الترف والثروة فى العالم القديم ، ولكن الأستاذ فرارو استرعى انتباهنا فى كتابه تاريخ روما بقوله ان مستوى المعيشة كان فى العصور القديمة منخفضا جدا . ان قصور القدماء كانت فى الحقيقة أبنية بسيطة قليلة النور ، ولا تعرف التدفئة الا نادرا . أما مآدبهم فترجع شهرتها الى ما كانت تضم من كثرة الطعام ، لا نوعه الفاخر . ثم أن القيود التى فرضها أجسطوس على النفقات المتعلقة بالثياب والغذاء تدل على أن الرومانيين لم يكونوا يملكون أموالا ينفقونها فى تلك الوجوه . وعلى هذا القياس بالعصور القديمة لا يمكن أن يكون الترف فى العصور الوسطى شيئا مذكورا ، كما تدلنا الاحصاءات التى بقيت لنا من ذلك العصر . ذلك ان مجموع الصادرات التى كانت تشحن من مرفأ أوربى فى العصور الوسطى خلال عام كامل لم تكن تملأ باخرة من بواخر اليوم ، بل ان متجرا صغيرا من متاجرنا اليوم يحتوى من الأفاويه على مقدار كان يكفى أوربا كلها أشهرا كثيرة . وتطالعنا أحيانا أخبار جلابين أرسلهم التجار من ألمانيا الى البندقية ، ليشتروا ستة عشر كيسا من القطن ، وأما نفاد بضع مائة قطعة من النسيج فى عام من الأعوام فكان يدل على حسن الأحوال التجارية فى ذلك العام . ولنضرب على ذلك أمثالا من الأرقام

التاليــة : فى عام ١٣٤٥ م بلغت تجارة الصــوف فى انجلترا ٣٢٩٦٣ كيسا ، ثمن الكيس منها ست ليرات انجليزية ، يضاف اليها نحو ١٣٫٠٠٠ قطعة من النسج ثلثها فقط من نوع فاخر حقا ، وثمنها لا يصل الى مائتى ألف ليرة انجليزية . وكان فى مدينة ريفال ، احدى مدن الهنسا ، ١٩٨ تاجرا يملكون فى عام ١٣٦٨ م اثنى عشر مركبـا . أما لوبك ، وهى من أشهر مرافىء العالم ، فقد أرسى فيها ذلك العام نفسه ٤٣٠ مركبا ، وأقلع منها ٨٧٠ مركبا ، أى ان الحركة فى ذلك المرفأ لم تصل الى أربعة مراكب فى اليوم ، ما بين ذاهب وقادم . ثم ان كولشستر ، وهى مركز من المراكز الرئيسية لصناعة النسيج فى انجلترا ، كان يسكنها عام ١٣٠٠ م نحو ألفى شخص ، لا يتجاوز عدد الأغنياء الكبار منهم عشرة . وفى مدينة ردنج فى انجلترا كذلك كان ثمانية رجال فقط يستطيعون أن يتسلحوا من مالهم الخاص . ثم ان ضآلة الأجور وانخفاض الأثمان على وجه العموم يدلانا على مستوى المعيشة يومذاك ، بل تعين على الذين يتطلبون التــرف الحقيقى فى صدر العصور الوسطى أن يذهبوا الى القسطنطينية ، أو الى بغــداد .

أما اليوم فان الفقر ، بل الفقر المدقع ، هو الصفة الغالبة فى الحيــاة فى بعض البلاد الشرقية ، وهو مستوى من الفقر الذى لا يستطيع أحد أن يعتقد بوجوده حتى يرى آثاره بعينيه ، لا فى أيام الأزمات فقط ، بل على أنه الأساس الثابت للحياة ؛ وهذا يصدق على المدن وعلى القرى سواء بسواء . ويصحب هذا الفقر انخفاض كبير فى الأسعار ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يتناول جميع الحاجيات ، فبينما نجد الخضر والفاكهة رخيصة لا يكون الخبز غير رخيص ، وكذلك اللحم . أما أجور العمال والصناع فمتدنية بصورة مخيفة . ثم اننا لا نجد تشغيل الأحداث شائعا فقط ، وبأجــور ضئيلة ، بل ان الأجــور التى يتناولها البالغون أنفسهم أيضا لا تكاد تسد الحاجات الأساسية للأسرة . وهنالك بلا ريب أشخاص من ذوى اليسار فى الشرق ، ولكن الشرق بلد فقير ، اذا نظرنا فى أساس

موضوعنا ، لأن ثرواته الطبيعية قليلة ، واذا نحن استثنينا البترول ، فان الطلب على هذه الثروات فى الخارج ليس كبيرا . ثم ان النظام الذى يقوم عليه التملك والانتاج — وهو من بقايا العصور القديمة — يجعل الحاصلات الطبيعية أقل كثيرا مما لو كانت وسائل الاستغلال تقوم على أسس صحيحة . أما نشاط السكان ، فلا يمكن أن يقوم مقام التمرين الفنى المفقود ، ولا أن يتلافى النقص الكائن فى وسائل الانتاج .

ان أحوال الانتاج فى الشرق الأوسط اليوم تشبه تماما ما كان عليه النظام الاقتصادى فى أوربا العصور الوسطى : هنالك عدد كبير من المؤسسات الصناعية الصغيرة التى هى من الناحية العملية بلا رأس مال ، وهذه يديرها كلها أحيانا أفراد أسرة واحدة ، هم أصحابها وهم رؤساء الانتاج فيها ، وهم الباعة بالمفرق لمنتوجاتها ، والمستهلك فى هذه الأحوال متصل اتصالا مباشرا بمنتج المصنوعات . ثم ان الصناعات محشورة فى مناطق معينة ، أو فى شوارع بعينها ، ووسائل الدعاية قليلة ، أو مفقودة . وكذلك ليس ثمة انتاج موحد ، بينما مدة العمل طويلة ، وهى تعتمد على ضوء النهار فى الأكثر . ولا يكاد المرء يتبين حدا فاصلا بين المستخدم (بكسر الدال) وبين المستخدم (بفتح الدال) . كل هذه الخصائص تصدق اليوم على كثير من بلاد الشرق ، كما كانت تصدق على العالم الأوربى فى العصور الوسطى .

على أن الموازنة الحقيقية لا تكون بالاضافة الى العصور الوسطى ، بقدر ما هى بالاضافة الى طلائع ما نسميه الثورة الصناعية ، أو بالاضافة الى صدر عصر الآلة . ذلك أن النقابات القديمة فى العصور الوسطى حالت بين صاحب العمل وبين استغلال العامل بزيادة ساعات عمله ، أو بينه وبين استغلال المستهلك من طريق البضائع المغشوشة والأسعار الباهظة . وقامت تلك النقابات فى الماضى مقام اتحادات التجارة والصناعة فى يومنا هذا ، واحتلت مكان التشريع الاجتماعى . ولكن قبيل انتهاء القرن الثامن عشر بادت تلك النقابات ، أو انحلت على كل حال ، ثم أخذت أنظمتها

تترك مكانها لنظرية المنافسة الحرة ، قبل أن توضع قوانين تأخذ مكان هذه الأنظمة كلها . ويجب أن نذكر أن انجلترا ترددت كثيرا قبل أن تشرع قوانين تحمى الأطفال من مساوىء المنافسة المطلقة . هذا هو الطور الذى وصل اليه الشرق الأوسط اليوم ، والذى يقف فيه العامل أعزل فى وجه المنافسة ، وفى وجه التقدم الصناعى . ففى بعض البلاد الشرقية ليس ثمة قانون يضع حدا لساعات العمل للبالغين ، ولا قانون للتعويض يحمى العمال من أخطار العمل ، مهما كان العامل يقظا حذرا . وكذلك ليس ثمة تأمين يساعد العمال أثناء مرضهم أو بطالتهم ، ولا أنظمة تضمن للعمال أحوالا صحية مواتية فى مؤسسات العمل . ثم ان المحاولات الضعيفة لحماية الأطفال والنساء فى بعض البلاد الشرقية تذكرنا بالقوانين الأوربية الأولى التى وضعت لمصلحة العمال المبتدئين ، بما فيها من نكوص عن التطبيق ، لقلة الرقابة . ولقد نجد هنا وهناك صناعة سعيدة ، أو تجارة أخذت تضع لنفسها أصولا بدائية فطرية لاتحادات تجارية أو صناعية . أما الاضرابات فليست مجهولة كل الجهل فى الشرق ، غير أن كره الفرنسيين [1] للجمعيات — مثل فزعنا نحن قديما من التكتلات — جعل هذه الجهود فى سبيل حماية العمال وتحسين أحوالهم مضنية وبطيئة جدا . ثم ان العمال أنفسهم لا يزالون متأخرين اقتصاديا الى حد يمنعهم من أن يروا موضع الحاجة الى عمل موحد ، وخصوصا فى سبيل حماية مصالحهم المتبادلة . والعمال واصلون الى ذلك بلا ريب ، ولكن لا يزال ثمة ارقال [2] كثير أمام العمال الشرقيين ، وأمام قادتهم أيضا . غير أننا يجب ألا ننسى الجانب الآخر من الصورة أبدا ، أعنى المعونة التى يحققها تضامن الأسرة وقوة التقاليد ، مثل عاطفة الضيافة التى تمنع طرد المستأجر اذا لم يدفع ايجار مسكنه . ولكن بما أن المقارنة بين الشرق الأوسط الحديث وبين العصور الوسطى الأوربية لا تصدق من كل نواحيها ، فانها لا تصدق بين

---

(١) كتب هذا المقال قبل أن جلا الفرنسيون عن سورية ولبنان .

(٢) الارقال السير صعودا .

الشرق الأوسط اليوم وبين طلائع عصر الثورة الصناعية فى كل شىء . ولقد اتفق للشرق الأوسط أن بلغ فى بعض مرافق الحياة طورا متقدما ، فمجىء السيارة مثلا قضى على نظام المقايضة ، وعلى أسباب الحياة المبنية على النقل بواسطة الدواب . وكذلك لم يبق بامكان القرية ، ولا بامكان المدينة الصغيرة ، أن تضع حدا لأفق الزارع أو لنشاطه، مع أنه لايزال ثمة أماكن قليلة لا تربطها بالمدن سيارات كبيرة أو سيارات صغيرة على الأقل. وهكذا أصبحنا نجد أنفسنا فى الشرق الأوسط أمام ثورة أخذنا نشعر بطلائع آثارها .

لنأخذ مثلا على ذلك مدينة حماة ، وهى مدينة صغيرة فى شمال سورية . كانت حماة قبيل الحرب العالمية الثانية تعيش — هى والقرى المحيطة بها — عيشة اقتصادية من نوع ما . فالبن والحديد كانت حماة تستوردهما من الخارج ، ولكنها كانت تصنع شيئا من نسيج القطن ، تبيعه فى البادية المتاخمة لها . أما فيما عدا ذلك فكل أسرة كانت تنبت طعامها ، وتنسج ثيابها من صوف خرافها ، وتنحت أدواتها لنفسها من الخشب فى الأكثر ، ولا تشترى من غيرها الا بمقدار ماتبيع لغيرها ، وكل ذلك قليل جدا . أما معاملاتها المالية الضئيلة على كل حال ، فاقتصرت على منطقة حماة. ولكننا نجد اليوم فيها المصنوعات اليابانية من القطن، ومن الحرير الصناعى ، ونجد الأغذية المحفوظة فى العلب ترد اليها من الولايات المتحدة. ثم نجد الأوانى الصينية المستوردة من تشيكوسلوفاكيا ، وسواها من البضائع الموحدة الصنع . أما الذى لا نجده فى حماة ، فاننا واجدوه فى حلب . واما الصناع المحليون ، فانهم لا يكادون يجدون منفذا لبضائعهم ، بينما ترى الناس من كل صوب يطلبون المزيد من المال ، فيفدون الى المدن ليحصلوا عليه . ويتضح من هذه العبارات أن الصناعة والتجارة فى حماة مقضى عليها بالبوار ، بسبب ذلك التطور .

ان المثل الذى قدمناه يدل على وجود جذور عميقة لعوامل التطور بجانب العناصر الراكدة فى الحياة الشرقية ، مما يوجد عادة فى جميع

المجتمعات فى جميع الأزمان ، مع العلم بأن هذه الجذور تكون عادة أعمق وأنشط فى أدوار معينة دون أخرى ، وان هذه الأدوار المعينة بلغها الشرق الأوسط بلا ريب . وهكذا تكون الصـورة التى رسمناها مضللة ، لو اعتبرت بنفسها فقط ، كما أنها تكون مضللة أيضا لو جعلناها صورة للعصور الوسطى . الواقع أن عوامل التطور واضحة فى الحياة الاقتصادية فى الشرق الأوسط ، وهى أشـد وضوحا فى عالم التفـكير . والشرق الأوسط الآن فى حال من التخمر يمكننا أن نلخص الكلام عليها بالرجوع مرة ثانية الى الاستشهاد بالأستاذ جب حيث ، يقول : « فاذا نحن قبلنا أن المجتمع الانسانى لا يزال على تكوينه الذى كان له فى العصور الوسطى ، فاننا نرى أن تسرب الآراء اليه أثار فى العالم الاسلامى كله حالا من القلق والتوتر النفسى تسترعى انتباهنا بلا ارادة منا ، وتذكرنا بالأزمة التى مرت فيها أوربا فى عصر النهضة وعصر الاصلاح الدينى [1] » . غير أن التوسع فى هذه الناحية الجديدة للقضية يحملنا الى خارج النطاق المحدود لهذا المقال ، ولكننا نشير هنا فقط الى أن ما ذكرناه آنفا انما هو مثال آخر للموازنة بين الشرق والغرب ، وأنه انذار للباحثين يجب أن يحول بينهم وبين أن يتخيلوا الحضارات متحاجزة ، تتصف كل واحدة منها بصفات تخصها وحدها ، بدلا من أن نعترف لهذه الحضارات بأوجه شبه متقاربة جدا فى تطور كل واحدة منها .

والأوجاع المتزايدة فى بلاد الشرق الأوسط تجعلنا نذكر أوجاع أوربا الغربية فى عصور ماضية ، حتى أن المؤرخ ليستطيع أن يتبين الدلائل العظيمة الأهمية على الطريق الذى سلكته الحوادث فى أثنـاء الأدوار العظمى للتطور فى الغرب . وها نحن أولاء نستطيع أن نرى كم كانت أدوار التطور المختلفة تتجاوز أو تتراكب ، فالكتب المدرسية تخبرنا واثقة أن الآلة التى تدور بالماء أخذت مكان النول الذى كان يدار باليد ، وان قوة البخار حلت بدورها محل الماء ، كما أن العربة انهزمت أمام القاطرة ، وأن المركب الشراعى انهزم أمام الباخرة . ويخيل للقارىء كأن الكتب المدرسية

---

(١) انظر جب : الى أين يتطور الاسلام (Whither Islam?) ، ص ٢٠ .

تعنى ان حلول بعض هذه الوسائل مكان بعضها الآخر تم بين عام وعام .
على أن النقد والتدقيق فى البحث الحديث ، فيما يتعلق بحلول بعض هذه الوسائل مكان بعض حلولا تاما ، تؤيده الحال الراهنة فى الشرق الأوسط ، إذ يرينا الى أى حد يمكن أن يكون استبدال وسيلة مكان أخرى بطيئا ، كما يدلنا على كثرة الذين يظلون أوفياء لطرق الحياة القديمة ، وكيف أن أكثر الأدوات بداءة وفطرية يمكن أن تعيش جنبا الى جنب مع آخر ما وصلت اليه الآلات الحديثة من التحسين . فالجمال والسيارات يمكن أن تشاهد فى شوارع بيروت ، والطيارات تحلق فوق السفن الشراعية التى لا تزال على أشكالها وأحجامها التى كانت عليها فى العصور الوسطى ، والتى تنقل بين مدن الشاطىء أعظم الوسقات الثقال التى لا يخشى عليها التلف . وكذلك الكهرباء تنير اليوم فى الشرق الأوسط دكاكين تدار فيها أنوال النسيج باليد ، بينما المعامل المتوسطة الحجم تنافس هذه الدكاكين ، فتخلق طبقة من الكادحين فى المدن ذات طابع غربى واضح . ونحن نرى أيضا فى الحقول آلات الحرث الحديثة ، بجانب الأدوات الخشبية التى ورثناها من عهد عاد . واذا كنا نحن نستغرب هذه المتناقضات فى الشرق الأوسط اليوم ، فيجب أن نذكر أنه فى عام ١٨٣٣ لم يكن فى انجلترا آلات نسيج يدار بعضها بالماء وبعضها الآخر بالكهرباء ، بل كان فيها ألوف من الأنوال تدار باليد ، وعليها عمال لا يكسب أحدهم فى الساعة الا بنسا واحدا . ويجب أن نذكر أيضا أن معامل باريس التى كانت فى عام ١٨٤٠ يستخدم كل واحد منها مائة عامل كانت قليلة جدا . ثم ان نصف معامل باريس فى عام ١٨٧٠ كانت مؤسسات يملك كل واحدة منها شخص واحد . وكذلك بينما تطورت وسائل النقل فى العالم ، كانت العربات التى تجرها الخيول لا تزال الزى الشائع فى سويسرة ، وظلت هذه هى القاعدة المتبعة حتى نحو عشرين سنة خلت . وحتى عام ١٩٠٢ ظلت فرنسا تبنى سفنا شراعية من الحديد ، وفضلا عن هذا كله فان أكثرنا لم يتفق له أن سافر فى الطائرة بعد .

وهنالك ناحية ثانية يمكن أن نستفيدها من تاريخ الشرق الأوسط ، وهي أن ثمة عددا من الأدوار فى حياة الأمم يمكن تخطيها كلها . فالانتقال فى السكك الحديدية دام فى أوربا مدة تبلغ قرنا كاملا أو تزيد ، بينما هو لم يدم فى الشرق الأوسط الا جزءا يسيرا من هذه المدة . فبعد أن قضى الشرق الأوسط سنوات عديدة يستعمل لنقله وانتقاله سككا حديدية غير وافية بالحاجة [1] ، اذا به الآن لا يبنى سككا حديدية ، بل طرقا واسعة للسيارات ، بينما السكك الحديدية أصبحت قاصرة على قطع المسافات الطويلة جدا ، وعلى نقل البضائع الثقيلة . ومنذ نحو خمس وعشرين سنة أو نحوها لم يكن يقطع الصحراء الا قوافل الجمال ، ثم جاءت السيارات والطيارات وهى الآن تنافس الجمل فى صحرائه . وهنا يمكننا أن نقول أن الرواد فقط هم الذين يمرون فى جميع أدوار النهضات المختلفة ، ويرتكبون جميع الأخطاء ، وأما الذين يأتون بعدهم ، فانهم يستطيعون أحيانا أن يتجنبوا عددا من هذه الأخطاء . فألمانيا مثلا تأخرت عن انجلترا فى دخول ميدان الصناعة ، ولكنها تجنبت كثيرا من المخازى التى رافقت توسع المدن فى انجلترا . ولم يتبع بناء البيوت العمالية فى ألمانيا قاعدة البيوت الملزوزة [2] التى هى سبة المدن الشمالية فى انجلترا . ثم ان فرنسا وألمانيا تقدمتا على انجلترا فى ميدان التعليم الابتدائى ، بفضل ما تجنبتا من الشرور التى تنشأ عادة اذا ظل الجمهور الغالب غير متعلم .

غير ان المطابقة بين التطور فى الشرق الأوسط وبين شبيهه فى الغرب لا يمكن أن تستمر بلا نهاية ، لأن لكل منهما أدواره وقضاياه . على أن قضية المياه تستأثر باهتمام الشرق أكثر مما تستأثر به قضية السكنى والتدفئة ، ومع أن الشرقى معرض للأمراض الغربية ، فانه أشد تعرضا لحمى

---

(١) بيروت اكبر مرافىء بلاد الشام ، وهى تتصل بخط حديدى ضيق يبلغ طوله ثمانين ميلا ، ويقطعه القطار فى مدة بين ثمان ساعات وعشر ساعات . أما السيارات فتحتاج الى ثلث هذا الوقت ، لتقطع هذه المسافة نفسها ، واهل بيروت يفضلون الانتقال بالسيارات .

(٢) البيوت الملزوزة هى التى تبنى لصيقة بعضها الى بعض ، دون فضاء يفصل بينهما .

الربع وللزحار [1] خاصة ، وهما المرضان اللذان يغفل المؤرخ الأوربى حسابهما فى عوامل التاريخ فى الشرق الأوسط . ثم ان الصحراء ، وماتعنيه من تمييز جامد ثابت بين الأرض القابلة للسكنى والأرض التى لا تقبل السكنى ، هى التى تجعل العقل الشرقى أكثر استعدادا لقبول الأمر المحتوم ، وللانحناء أمام الضرورات ، ثم تجعله من أجل ذلك أقل ثقة بالعمل الفردى ، وبقدرة الانسان على تبديل البيئة الانسانية — ولعل ذلك هو الفرق البارز بين الشرق والغرب .

كل هذه دروس هامة ، ولكن الدرس الأخير أهمها بلا ريب . وأنا أرجو الا أكون بهذه الدروس صرت على فهم لأدوار تاريخ الغرب والشرق فقط ، ولكنى تعلمت على ما أظن معنى جديدا للزمن فى التاريخ . ومع أن تدريسى للتاريخ لم يكن يتناول ما قبل عهد الاصلاح الدينى ، أو الفتح النورمانى لانجلترا على أبعد تقدير ، كان لى اتصال مستمر ببقايا الحضارة القديمة التى يبدو التاريخ الأوربى أمامها طفلا صغيرا . وهذا هو الذى يجعل الانسان حذرا أبدا من أن يكون قصير النظر فى التاريخ . كنت مرة فى نينوى ، فشهدت الكشف عن هيكل عظمى مدفون فى التراب بلا تابوت ، وكان تاريخ دفنه يعود الى نحو أربعة آلاف عام ، أى أن ضربة معول واحدة حملتنى الى ما قبل ثلاثة آلاف عام من الفتح النورمانى المشهور فى أصول التاريخ الانجليزى ؛ وبذا تكشفت لى ناحية من مسير الزمن تركت فى خيالى أثرا لا يمحى . وعلى الطرف الآخر من الزمن يزورنى صديق لى طبيب ، فيخبرنى بأن الانسان لم يتح له بعد أن يتعود نهائيا أن يمشى مستقيما على رجلين اثنتين ، وهكذا نجد أن عظام قدميه وعموده الفقرى ، وهى التى جعلت فى الأصل لتحمل جسما يعتمد على أربع دعائم ، لم تكتسب بعد القوة الكافية لتقيم جسدا منتصب القامة . من أجل ذلك لا يزال عند معظمنا شىء من الانحراف أو الضعف فى العنق ، أو فى القدمين ، أو فى كعوب القدمين . وهكذا اذا بدت الانسانية فى يوم ما شائخة جدا ، ثم بدت فى يوم آخر فتية جدا ، فاننا نرجو ألا ينظر فى المستقبل الى

(1) حمى الربع هى الملاريا ، والزحار هو الديسنطاريا .

أخطائنا الا على أنها من طيش الشباب ، ونحن فى كل من الحالين على يقين بأننا لسنا الشعب المسؤول عن ذلك ، وبأن الحكمة لن تموت على أيدينا .

وأخيرا يمكننى أن أجمل هذه الملحوظات المتفرقة ، فأقول اننى رجل أوربى غربى حديث ، تعلمت درسا مزدوجا وجهه الأول هو النظر الى التاريخ من زاوية جديدة ، وأما وجهه الآخر فهو التواضع . انه لمن الحمق أن ينكر أحدنا وجود فوارق بين مدنيات الشرق والغرب فى وقتنا الحاضر ، ولكن يبدو أن التاريخ والاختبار الانسانى يعلماننا أن هذه الفوارق ليست أساسية ، ولا هى ثابتة مثل الخصائص الموروثة التى لا يمكن اجتثاثها من أصولها . وسواء أكانت هذه الفوارق طبيعية أو فكرية أو روحية ، فهى فوارق تمثل فى أساسها مراحل مختلفات ودرجات متفاوتات فى سرعة تقدمنا . على أن هنالك مواضع تناقض واختلاف فى عالمنا المسكين ، ونحن لا نحتاج الى أن نختلق هذه اختلاقا ، ولا أن نؤكد جانبها حيث تكون طفيفة أو عارضة . ان الشرق سيبقى شرقا ، وان الغرب سيظل غربا — مع أن هذه الفكرة لا تزال تنتظر من يقوم فى الأعصر المقبلة ليقيم الدليل عليها . ولكن من المؤكد انهما يقتربان شيئا فشيئا ، وأن من المحتوم أن يستمر اقترابهما يوما بعد يوم ، ليلتقيا فى ما يمكن أن يكون ، وما نرجوه نحن أن يكون ، عالما من التعاون السعيد المثمر ، لا سيد فيه ولا مسود ، ولكن شركاء أسوياء يتمتعون بثروات ماضيهم وحاضرهم ، ويشتركون فى ما يقدمون للحضارة المقبلة .

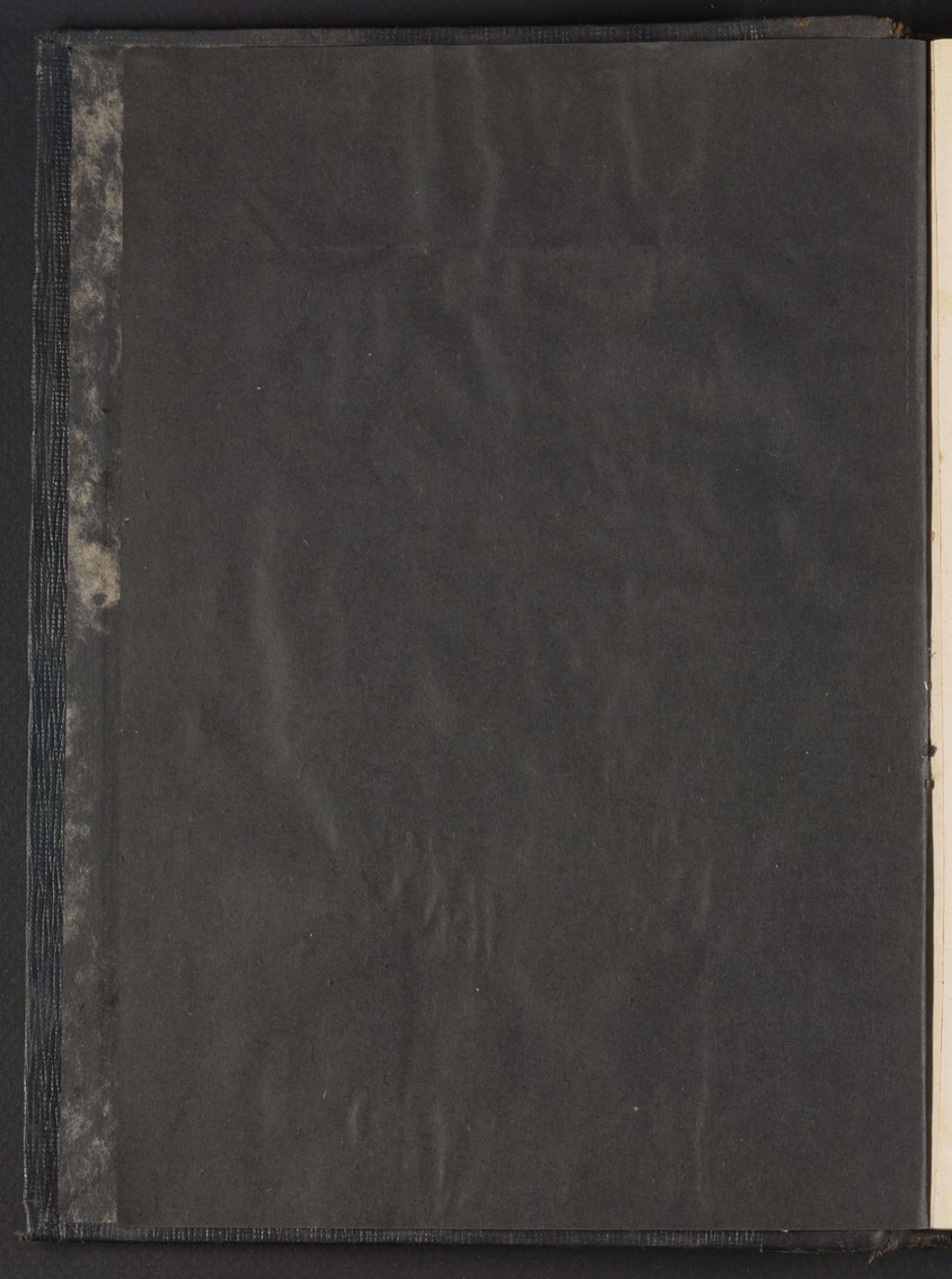
عمر فروخ

قائمة ببعض المؤلفات الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط

SELECT BIBLIOGRAPHY of GENERAL BOOKS ON THE MIDDLE EAST by AMERICAN WRITERS

1. H.R.P. Dickson : *The Arab of the Desert.* New York, 1949.
2. Carleton S. Coon: *Caravan: the Story of the Middle East.* New York, 1951.
3. Richard N. Frye : (ed.), *The Near East and the Great Powers.* Cambridge, Mass., 1951.
4. Philip K. Hitti : *History of the Arabs.* Fifth edition, New York, 1951.
5. Halford L. Hoskins : *British Routes to India.* New York, 1928.
6. Philip W. Ireland (ed.): *The Near East : Problems and Prospects.* Chicago, 1942. 266 p.
7. George Lenczowski : *The Middle East in World Affairs.* New York, 1952.
8. Roderic Mathews and Matta Akrawi : *Education in Arab Countries of the Near East.* Washington, 1949.
9. E. A. Speiser : *The United States and the Near East.* Second edition. Cambridge, Mass., 1950.
10. T. Cuyler Young (ed.): *Near Eastern Culture and Society.* Princeton, 1951.

مطبعة مصر ٣٢٧٧/٥٣/٣٠٠٠



DS
44
S55x
1953
c.1



